غادة السمّان

القمرُ المربّع

قصص غرائبيّة

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان
ص.ب: ١٨١٣-١١
تلفون: ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى:
كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى حبيب
لم يغادرني يوماً اسمه الدهشة!

قطع رأس القط

ثمة قوة خفية في الذكريات قلما يلتفت المرء إليها.

توماس فولر

كي نكـون سعداء علينـا أن لا نبالي كثيراً بالآخرين.

ألبير كامو

خـطر الماضي عـلى الإنسان أنـه يجعل منه عبداً.
خطر المستقبل على الإنسان أنه يجعل منه رجلاً آلياً.

إريك فروم

أشعـر بالمـوت المستمر لـلأشياء والآخـرين بحدة، وهكـذا تعلمت مصـالحة نفسي مـع المـوت حتى أن النهاية النهائية والرسمية تفقد معظم تأثيرها!

سانتايانا

قطع رأس القط

«عروس نادرة يا ابني. لها فم يأكل وليس لها فم يحكي. ما قَبَّلَ فمها غير أمها. لا تغادر البيت دونما استئذانك إلا إلى قبرها. لا تلد إلا الصبيان. خادمة في النهار وجارية في الليل. خاتم في اصبعك تديره كما تشاء وتخلعه حين تشاء وإذا فركته قال لك شبيك لبيك عبدتك بين يديك».

كان «أبدول» ينصت وهو يكاد لا يصدق أن ذلك يحدث له حقاً، في قلب حي «تروكاديرو» الباريسي، قبل ستة أعوام من سنة ٢٠٠٠! ولكن ها هي السيدة الغامضة جالسة أمامه، مثلثة الوجه، خمسينية، وقد انزلقت من تحت خمارها الأسود الذي أزاحته خصل محمرة مصبوغة بالحناء كما كانت تفعل عجائز أسرته في بيروت حين كان طفلاً.. لها غمّازتان طريفتان وتتقن فن رفع الكلفة منذ اللقاء الأول كما كان يحدث في وطنه الأم لبنان. **(ما الذي جعل هذه «الخاطبة» تعرض خدماتها اليوم بالذات، حين اتخذتُ أخيراً قرار طلب الزواج من نادين في هذه الأمسية نفسها؟)..**

تتابع السيدة الغامضة: «يا ابني يا عبد الرزاق.. عروس عندها الله في السماء وأنت في الأرض.

بوسعك أن تتزوج امرأة ثانية وثالثة ورابعة عليها وتعيش راضية مع ضراتها، بل وتذهب لتخطب لك العروس الثانية بنفسها إذا لم تنجب أطفالاً.

ولكن من المهم أن تقطع رأس القط على عتبة البيت ليلة العرس، أمام عينيها، فتفهم أن مصيرها كمصيره إذا لم تطعك!».

بدا الأمر لأبدول طريفاً لو لم تلفظ السيدة اسمه الأصلي: عبد الرزاق.

معارفه جميعاً في باريس ينادونه «عبدول» ويلفظونها «أبدول». إذن فالسيدة الغامضة صديقة لأمه حقاً ما دامت تعرف اسمه الأصلي **(كنت أرتدي ثيابي وأستعد للخروج حين رنَّ جرس الباب. تعجبت فقد كنت أظنه معطلاً وقد سمعت والدي يهتف للكهربائي كي يمر بنا لإصلاحه.**

فتحتُ الباب. شاهدتها يتدفق الضوء من خلفها واقفة كعمود من السواد والدخان في معطفها الأسود الذي يغطيها كالعباءة متصلاً مع سواد خمار عقصته على شعرها مائلاً كما في الصور البيروتية القديمة.

سألتني عن أمي بالعربية فقلت لها إنها ذهبت لشراء بعض الحاجيات برفقة والدي وسألتها هل هي على موعد معها.

أجابت ضاحكة: ومنذ متى أنا بحاجة إلى موعد مع أمك يا بني؟

قدَّرت أنها قد تكون صديقة قديمة لها، ربما لا أعرفها لأنها لم تزر باريس من قبل، ولعلي شاهدتها في بيروت فوجهها مألوف ولكنني بالتأكيد لم أرها منذ عشرة أعوام على الأقل أي منذ إقامتنا هنا بعدما غادرنا بيروت.

أضافت: «يا حبيبي كم كبرت. كدت لا أعرفك».

شيء ما في نظرتها أمرني بأن أدعوها إلى الدخول. شيء ما في حضورها جعلني أبادلها رفع الكلفة على غير عادتي.

اعتذرتُ عن الغبار الذي يغطي أرض المدخل، فالنجار الذي مر على حين غرة قبل قليل لتعليق المرآة الجديدة للمدخل ترك وراءه غبار حفارة الجدار، كما ترك مربعاً من الزجاج كان من المفترض أن يستبدل به الزجاج المكسور في نافذة الحمام الصغيرة لو لم ينس أدواته ويعد بالعودة في اليوم التالي بعدما مدده على أرض المدخل.

وحين جلستْ على المقعد الوثير خبّرتها عن الزيارات الدورية لأمي وأبي إلى بسطات الخضار الشعبية في بعض الأحياء حيث هما الآن، وقلت لها: كمعظم المغتربين نحن نمارس هنا لبنانيتنا مطبخياً وفولكلورياً.

نهضتْ عن مقعدها وهي تخلع معطفها كما تفعل البيروتيات في حضور غير «المحارم»، ولاحظت أن المقعد الوثير تحتها لم يتقعر بفعل وزنها والوسائد لم تتبدل هيئتها كما لو أن عصفوراً حط عليها لا امرأة.

بدأتْ تعبث بسبحة من (الكوربا)(*) وشعرتُ أنني أعيش ما يشبه

(*) الكوربا: حجر شبه كريم Ambre.

الحلم، فأنا أتباهى عادة بأنني عقلاني ومنطقي و «كارتيزيان» كما يقولون هنا في باريس، - أي من أتباع ديكارت -، ولذا صرت أبحث عن تفسير منطقي لأسئلة من نمط: من أين لهذه السيدة بمعرفة اسمي الحقيقي عبد الرزاق بدلاً من أبدول؟ ولماذا رن الجرس المعطل تحت اصبعها؟ ولماذا لا يتقعر المقعد الوثير تحت جلستها؟ ولكن، بالمقابل، لست متأكداً من أن جرس الباب قد رنّ ولعلِّي سمعت حركتها أمامه فافترضت أنه رن. أما المقعد فليس بوسعي أن أجزم في هذه الاضاءة بمدى تقعرّه. أما أعصابي فمتعبة بالتأكيد، فاتخاذي لقرار الزواج من نادين لم يكن سهلاً).

تتابع كلامها بجدية مفرطة وهي تعبث بحبات سبحتها ذات الكرات العسلية: «عروس نادرة بيضاء شق اللفت(*) تقول للقمر قم لأجلس مكانك. لا تفك الحرف كي لا تفسد القراءة أخلاقها ولا ترى التلفزيون إلا بأمرك. لا ترتدي الأحمر إلا في البيت أمامك. وتقطع ذراعها قبل أن تمدها من الباب ويراها غريب. لا تنشر الغسيل على السطح إلا محجبة خوفاً من كلام الناس وعيون الجيران والشيطان. . لا تراها إلا ضاحكة ولا يراها أحد غيرك إلا عابسة. لا تصادق إلا النساء الفاضلات اللواتي تختارهن أنت بنفسك، والتي لا تعجبك تطردها حتى ولو كانت أمها.

الكلمة في البيت لك والسكوت والسمع والطاعة لها. أياً كان ما تقوله تجيب: أمرك يا سيدي يا تاج رأسي.

لا تقطف الأزهار من أحواض الشرفات ولا تطل من النافذة. لا تستمع في الراديو إلا إلى البرامج الدينية وبرنامج الأطفال مع أولادها. لا تدخن ولم تشم رائحة الخمرة في حياتها. لا تقول كلمات مثل «موزة أو خيارة أو بيضة» إلا وتضيف عبارة «بلا معنى» بعدها لكي تتبرأ من الايحاء بمعنى جنسي. بنت ١٤ سنة تصلح لزيجة الدهر».

(*) بيضاء شق اللفت: تعبير محلي توصف به بيضاء البشرة التي يشبه بياضها لون اللفت بعد شقه إلى نصفين. والبياض صفة جمالية مستحبة جداً عربياً، وبالمقابل قلما نطالع في الأدب الغربي تغزلاً خاصاً ببياض المرأة التي تحاول هناك تحميص بشرتها تحت الشمس!.

يكاد ينفجر ضاحكاً وهو يتخيل وجه تلك السيدة الغـامضة لو شاهدت نادين، الشابة التي ينوي أن يطلب منها أن ترضى به زوجاً هذا المساء بالذات. . سيغمى عليها بالتأكيد لو سمعت حوارهما أو شاهدتهما معاً. . ولن تصدق عينيها لو عرفت أن بناتاً كنادين يجدن أزواجاً! (على الجسر قرب باريس وقفنا ذلك الفجر الجميل مع رفاق النادي الرياضي. قيدوا قدمي نادين بالمطاط جيداً وسط الضحكات. كانت تريد أن تجرب تلك القفزة في الفراغ عن الجسر، مربوطة بحبل مطاطي خاص من قدميها، حيث تهوي وقبل أن ترتطم بالأرض يعيدها المطاط إلى أعلى كأي «يويو» بشري.

حاولتْ اقناعي والرفاق بالانضمام إليهم. قلت لهم إنني صرت عجوزاً في الخامسة والثلاثين من عمري ولا أتذوق هذا النمط من الرياضات العصرية وجانين صبية في العشرين. ضحكوا مني وخجلت من جبني، ولم أخجل من حبي لتلك الجنية الجميلة المدعوة نادين.

هربتْ أسرتها من الحرب وهي في العاشرة من عمرها فكبرت في باريس وتوهجت مزيجاً من سحر الشرق والغرب معاً. . . شَعْرٌ كخابية عسل الأجداد يسيل على جانبي وجه مضيء بالأمل والحيوية والذكاء المتحدي لشابة مبدعة في جنونها محلقة في دراستها كواحدة من المتفوقات في المعهد العالي الشهير «H.E.C» حيث تدرس إدارة الأعمال والتخطيط المالي، لا التدبير المنزلي واللغات بانتظار العريس كصبايا الأسرة في بيروت أيام كنت صبياً صغيراً، أراهن حولي يدرسن أشياء خاصة (بعقلهن) كما تقول أمي كالأدب الانكليزي والفرنسي الذي درسته أنا حتى الدكتوراه!

جرتني نادين من يدي بقامتها التي تعادلني طولاً وأقسرتني على التمدُّد فوق الأرض وثبّتت جسدي النحيل الهش بذراعها الرياضية القوية وطلبت من الرفاق حزم قدمي بالمطاط بينما رحت أتأمل مبهوراً قامتها الباسقة التي بدت لي أكثر طولاً وانتصاباً من عادتها، بساقين جميلتين مفتولتين ومشدودتين تحت جورب رياضي يغطي الركبة ويبدو جزء من الفخذ العاري بين الشورت والجورب شهياً. . . جمال من نمط جديد لا يشبه عجينة الغنج نصف المترهل لنجمات السينما القديمات اللواتي كنت أعلق صورهن في غرفتي البيروتية أيام

مراهقتي. بدت لي امرأة من فصيلة أخرى، أحبها لأنها كذلك وأتوجس شراً منها لأنها كذلك أيضاً! وما يجذبني إليها هو نفسه ما يخيفني منها! وكل ما يدفع بي إلى حبها يدفع بي إلى الخوف من الزواج منها!

حزموا قدمي مع الضحكات وهم يهتفون بـالفرنسية أبدول سيقفـز، وقالت كوليت صديقة نادين مازحة إنها تحلم بحزم أقدام جميع الأساتذة ورميهم عن الجسر على أن لا يكون المطاط جيداً وينقطع. قهقهوا وغمرني ذعر سري: لا أستطيع أن أقفز هكذا في الفـراغ حتى ولو كنت مـربوطـاً بحبل «السرة» المطاطي!... نعم. أنا خائف. رجل وخائف. ليست لدي روح المغامرة. أكره التورط مع المفاجآت. قالت نادين: هات يـدك لنقفز معـاً. قلت لها: اقفزي أنتِ أولاً ودعيني أفكر.. لا أعتقد أنك تريدين القفز حقاً. فكري كم ذلك خطر. أن نقفز أو لا نقفز تلك هي المسألة...

قالت مداعبة: حسناً يا هاملت اللبناني... أورڤوار... ومدّت ذراعيها كالعصفور وقفزت في الفضاء وهي تصرخ بـالفرنسيـة التي تتكلم بها طـوال الوقت: حرية...

حلّقت في لحظة طيران وحرية مطلقة، وبـدت لي وهي تطير في الجـو فصيلة جديدة من النوارس. ثم هوت كما لو أصيبت بطلقة نارية، غلبها قانون الجاذبية ولم تصرخ وانخلع قلبي: ماذا لو انقطع حبل المطاط؟ الخطأ البشري ممكن دائماً، فماذا لو راحت ضحيته؟...

وظلت تهوي تهوي وقلبي يغوص كما يحدث لي دائماً حينما أشعر بأن الأمور تخضع لمنطق لا يد لي فيه وأعجز عن تحويره وبالتالي أرفض غالباً اتخاذ القرارات الحاسمة بشأنه وأفضل الهرب منه. ويتهمونني بالجبن الهاملتي والعجز عن اتخاذ قرار وأنا مجرد ديكارتي مذعور على حبيبة ما زالت تهوي. وبعد ثوان أو دقائق أو ساعات لا أدري توقفت عن السقوط قبل أن تلامس صفحة النهر وارتدت بقوة المطاط إلى الأعلى وصارت تتأرجح كاليويو البشري جيئة وذهاباً في ذلك الفضاء الفضي المزرق المزنر بالحقول وخيوط الشمس التي بدأت ترسل تحياتها الضوئية في الاتجاهات كلها. غمرني الذعر حـين تخيلت نفسي مكانها

أنوس في الفراغ هكذا وقلت لكوليت: أرجوك ساعديني على فك وثاقي.

خشيتُ أن تعود نادين إلى الجسر وأنا لما أتحرر بعد وتقسرني على القفز!..

وخشيتُ أيضاً من اليوم الذي تتحول فيه نادين إلى طائر رخ هائل عبثاً أتمسك بريشه لأطير معه وأنا مذعور).

تتابع السيدة الغامضة لعب دور الخاطبة، متفننة في ذكر فضائل عروسها التي لن يدهشه أن تخرجها كالحاوي من حقيبة يدها. **(دور لا يبدو لي غريباً جداً في النهاية، فقد عايشت مناخاته في بيروت أيام طفولتي، وكان ذلك ما يزال يدور أحياناً حولنا يتندر البعض به لكنه يساهم في عقد بعض الزيجات. وما من سيدة خمسينية أمية تحترم نفسها إلا وكانت تلعب في ذلك الزمان دور الخاطبة لأي شاب عشريني تلتقي به وتُخرج الصبايا له من ملاءتها كما يُخرج الساحر الأرانب من قبعته. وكنت أظن ذلك انتهى مع الحرب، أو بقي جوهر تلك النظرة إلى الزواج قائماً و«تعصرنت» سبل التعبير عنها. ولكن الهياكل العظمية لم يتم تكنيسها كلها من حديقة الدار فيما يبدو).**

ينصت إليها وهو يتستر على شعوره بسرور خفي غامض وهي تقول وتكرر دون أن يضجره التكرار: «أنت ملك البيت وسيد الكل وهي عبدتك. إذا مشيتَ تمشي خلفك على بعد خطوة وراءك لا تزيد ولا تنقص، لا تسكب الطعام في صحنها إلا بعدك وقطعة اللحم الكبيرة لك. كلمتك لا تصير اثنتين. صوتها لا يرتفع أعلى من صوتك إلا ساعات مخاضها. لا تفهم في السياسة ولكنها تخرج في أية مظاهرة إذا أمرتها. إذا لم يعجبك شيء ضربتها وأدّبتها وعلّمتها كيف تأكل القطة عشاءها وهي ساكتة. عروس خجول تستحي من أكل موزة أمام الناس»...

بدت له الجلسة هزلية ومحزنة وممتعة في آن... **(ألأنها تذكرني بأمجاد غابرة ولت ومميزات كنت أرثها لمجرد أنني ذكر؟ أم لأنها توقظ في أعماقي شخصاً آخر يقطنني وكنت أظنه قد مات ودُفن في باريس؟ هل أنا مسرور بجلستي الطريفة مع هذه الخاطبة الغامضة لأنها تذكرني بقيمتي كذكر في بلدي وبلدان أخرى حيث تمنحني بعض الإضافات اللحمية مزايا ومكاسب غير قابلة للمناقشة؟ إنها**

تذكرني بزمان كنت فيه مدللاً وكان يكفي أن أبدو حائراً لتهرع الخالات والعمّات لتقديم الحلول وعرض الخدمات! كان ممتعاً أن أكون رجلاً في لبنان الغابر ويبدو أنه يروق لي استحضار هذه السيدة لأندلسي الذكورية حين كانت عجائز أسرتي ينشدن الأغاني الشعبية البذيئة «لأعضاء» الأطفال الذكور فرحاً بهم وفخراً بفحولة الزمن الآتي، أمام عيون بنات الأسرة مكسورات الخاطر).

نظر إلى ساعته كي لا يتأخر عن موعده مع نادين أمام مدخل ناديها الرياضي ولكنها كانت ما تزال تشير إلى الخامسة كأنها تعطلت أو كأن الزمان توقف. السيدة الغامضة ما تزال تعبث بحبات سبحتها.

يخيل إليه أنه شاهد هذه السبحة «الكوربا» في مكان ما، بأحجارها النادرة والحشرات المتحجرة المحنطة داخل شفافيتها العسلية منذ عصور.

تتابع السيدة الغامضة: «يا ابني عبد الرزاق.. المرأة جانحها مكسور وهي لا شيء بلا رجل، قيمتها من قيمته، وإذا ترملت تدخل عدتها (*) الأولى عدة شهور لا ترى خلالها رجلاً، وحين تنتهي العدة تتابع حدادها على حياتها في (عدة) مفتوحة ريثما ينعم الله عليها بزوج آخر. ما قيمة المرأة إذا لم تكن زوجة فلان أو عمة فلان أو أم فلان؟ المرأة جانحها مكسور يا ابني»...

صارت تكررها بأسى وهي تضرب على صدرها بيد مزنّرة بالخواتم والحلي البيروتية العتيقة من «مبرومات»(**) وسواها والدمع يكاد يسيل من عينيها كمن يبكي زمناً هارباً. (المرأة جانحها مكسور؟ آه لو ترى انكساري أمام عنفوان نادين وطغيان حضورها الإنساني.

تزلجتُ على الثلج في «ميجيف» وأنا أتأملها مثل مهرة عصرية يتطاير الثلج تحت سنابكها، ثم جاءت تداعبني: ألم يكن هاملت يتزلج على مرتفعات الدانمرك وثلوجها؟

قلت لها: أحب أن أترك أفكاري تتزلج وحدها على تلال الذكريات..

أجابت: يا هاملت اللبناني الهارب من الفعل إلى الشعر، لماذا لا تعترف

(*) العدة: فتر أشهر على المرأة الانتظار خلالها قبل الزواج ثانية.

(**) المبرومة: أسوارة شائعة محلياً.

ببساطة أنك لا تحب من فعاليات الجسد إلا رياضات الفراش؟

ضحكتُ. لم أضحك من الداخـل. تتعبني صراحتها ونـظرتها الثـاقبة للأشياء، وربما لذلك أحبها. إنها نقيضي بمعنى ما. هي تكره الأوهام وتحب تسمية الأشياء بأسمائها وأنا من رعايا لغة الايماء والتلميح وأغنية فيروز «تعا ولا تجي» ـ تعال ولا تأتِ!

قلت مناكداً: وأنـتِ ألستِ مثلي لبنانية؟

أجابت: أنـا امرأة عصرية وواقعية وحرة ومستقلة وعاشقة ولبنانية. إذا كان يحق لي جمع هذه الصفات كلها مع لبنانيتي فأنا لبنانيـة. أراك بوضـوح وأعرف عيوبك وأحبك وأعرف أنني مثخنة بالعيوب وأريد أن تحب حقيقتي لا صورة ترسمها لي ثم تحاول أن ترغمني على أن أصيرها!

ـ وأنـا أحبكِ حتى الجنون العـاقل!.

ـ أحبكَ ومستعدة للارتباط بك. وعليك أن تتخذ قراراً.. لا مفر من مواجهة الأشياء، لنقفز معاً يا هاملتي العزيز.. لا مفر من اتخاذ قرارات في الحياة. هذا ما أدرسه في المعهد: فن اتخاذ القرار.

قلتُ في محاولة للالتفاف على شجار محتمل مبدلاً الموضوع: حسناً. أنا لا أحب الرياضة وأفضل الشعر وهذا من حقي.

أجابت: أنت تكره الرياضة حين أمارسها لأنها الحرية. إنها انعكـاس لحرية روحي وعقلي، وانعكاس لعجزك عن تملكي على الطريقة اللبنانية، كما يتملك أبي أمي. عندك في البيت نموذج مشابه.

نعم أنا لبنانية ولكنني لستُ نسخة عن أمي، أما أنتَ فيناسبك أن تكون صورة عن والدك حرصاً على مكاسبك. إنك تريد أن تتابع حياتك كأن الحرب لم تكن والزمن لم يمر. أنا جئت طفلة إلى باريس وليس بوسعي أن ألغي ما شاهدته هنا وما تعلمته.. إنني امرأة مختلفة عن أمك وأمي...

امتلأتُ بالغضب لكنني كبحته وقلت لها بهدوء مصطنع: ولكنك أنتِ أيضاً لبنانية. هل تظنين أن جنسيتك الفرنسية تبدل من الأمر شيئاً.

أجابت: أنا لبنانية بمعنى الحرية، وبمعنى أنه ليس بوسع أي ذكر لبناني أو

غير لبناني ممارسة استبداده عليَّ لمكاسب موروثة لا تخصني. فولكلور المطبخ في بيتنا لا يجمعنا بما يكفي لتأسيس أسرة، أنا امرأة ستعمل وستكون حرة وستختار أن ترتبط أو لا . . .

قلت لنفسي: وصلنا إلى بيت القصيد. وشهرتُ السلاح الأخير: ليس بوسعكِ العمل بعد زواجك من أي رجل. من سيربي الأولاد؟ ومن سيحمل مسؤوليات البيت؟

لم أقل لها عبارة «بعد زواجنا» لأنني كنت أخاف الزواج منها وأتمناه في آن!

زمت شفتين شهيتين وقالت: سنتقاسم المسؤولية، وعندئذ ستجد أنت عشرات الأساليب للهرب من قسطك منها، كاستخدام الخدم والمربيات، وسأقتدي بك! . . .

تابَعتْ بهدوء غير مصطنع: كوني احتضن البيضة تسعة أشهر ليس مبرراً لتجريدي من حقوقي المدنية! . . . لا أريد أن أكون موظفة عند زوجي أي سكرتيرة بيتية. لي أنا أيضاً عملي وعالمي وعذاباتي وأفكاري، وأنت جزء من حياتي لا محورها. لم يعد الزواج جزءاً من حياة الرجل ونهاية لحياة المرأة. . . الحب جزء من حياتهما معاً وليس محوراً لها. أحبكَ ولكن. . . وعبارة «ولكن» أهم من عبارة أحبك. . .

ولم أقل لها إن مأساتي هي أن الحب محور حياتي، وثمة لحظات أشعر فيها أنني أريد امتلاكها، إحراقها كما فعل ديك الجن وصنع إناءٍ من رمادها أظل أشرب منه حتى الانتصار عليها. لم يكن ذلك صحيحاً كما لم يكن كذباً تماماً. فأنا بالمقابل أحب رأسها ولا أريد قطعه ليلة العرس ولا بعدها، وأفضل التفاهم معه.

لعلي بالفعل هاملت اللبناني: أعرف الاحتمالات كلها وأقلب الأمر على وجوهه كلها ولا أدري شيئاً غير أن الزمان يمر والعالم يتبدل وأنا حائر.

ذلك المساء منحتني جسدها ببساطة، كما تتمدد رمال الشاطىء تحت جسد الليل الدافىء، بعفوية وبراءة. تذكرتُ «دلال» في بيروت، ومراهقتي،

وكيف تراجعتْ يومها قبل سقوط قلعتها الأخيرة كأنها كانت تنفذ خطة مدروسة لتستعرض أمامي ما سأخسره إذا لم أتزوجها! . . خبث كهذا لا تعرفه نادين. . قدمت لي يومها «دلال» تفاحها. تركتني أركض في حقولها، ألمس التفاح وأشمه وأقبله وأعبث به على هواي شرط ألا أقضم تفاحةً قبل ليلة الدخلة!).

تتأهب السيدة الغامضة للذهاب، ولا يدري عبد الرزاق لماذا يرغب في استبقائها قليلاً لسماع المزيد عن صفات العروس المحتملة. . . ولم تبخل عليه بالمزيد: الطاعة. الرضى. الجمال الخجول ليلة الدخلة المهمة جداً (حيث ألعب دور الفاعل كما كنت أحلم مراهقاً قبل عقدين وأوقع اسمي بدم جرحها على خرقة بيضاء كانوا إلى زمن ليس ببعيد يطوفون بها بين الأهل المقربين ويدقون الطبول سبعة أيام وسبع ليال، فثمة بكارة إضافية من بكارات القبيلة تم فضها على سُنّة الأجداد).

تسأله الخاطبة الغامضة هل يتمنى عروسه شقراء أم سمراء، طويلة أم متوسطة الطول. . . ويغيب عنه صوتها كالمُنوم. . . (قبل أن تتعرى نادين أمامي على الشاطىء إلا من ورقة التوت في «جوان ليه بان» وتتمدَّد على الرمل الحار لتصير امتداداً له قالت لي: «أنا لست عذراء».

لم تكن تتعرى لي وحدي ولا لبقية رواد الشاطىء بل للشمس ولنفسها كما قالت ضاحكة: لماذا من حقك أن تستمتع بوقع الشمس على صدرك وليس ذلك من حقي؟ ألمجرد أن لدي زوائد لحمية لإرضاع الأطفال؟ كيف يمكن للزوائد اللحمية عندك وعندي أن تكون مصدراً للتشريعات والقوانين الاجتماعية؟

قلت لنفسي: إنها جميلة ويسعدني أن أراها شبه عارية ويضايقني أن يراها الآخرون ويخنقني أنها ليست عذراء. أريدها لي وحدي

أريد ترويض تلك النمرة وامتلاكها وستكون متعتي أكبر فيها بعد كلما كان الترويض أكثر صعوبة.

أردفتْ بهدوء: «هل يضايقك أنني لست عذراء؟.

أجبت بهدوء مماثل لكنه مصطنع: أجل. يضايقني. من هو الذي. . .

قاطعتني: هل تعني أنكَ أنتَ (عذراء)؟

أجبتها: أنا رجل!...

قالت: وأنا امرأة. وكونك رجلاً لا يمنحك عندي أية مكاسب موروثة.

قلت: من هو؟

أجابت: من هي؟

قلت: لا أذكر.

أجابت: وأنا أيضاً. هل تظنني سأنحت نصباً تذكارياً لكل نزوة أو مغامرة أو شهوة اكتشاف؟

تذكّر ما سأقوله لك: إنني مثلك تماماً بكل سموِّك ووضاعتك ونزواتك وشهواتك. وأنت لا تستطيع قمعي بسطوة المجتمع أو القانون في فرنسا كما هي الحال في بلدنا. وإذا كان ذلك يضايقك من الأفضل لك أن تفتش عن خاطبة تجد لك عروساً لم يُقبِّل فمها إلا أمها، ولها فم يأكل وليس لها فم يحكي كما تتندر أمي في أمثالها.

هذه أنا، امرأة لا تشعر بالذنب لمجرد أنها ولدت كذلك ولا تعتذر حتى عن نزواتها ـ كأي رجل ـ وليس بوسعك أن تمتلكها إلا إذا أحببتك.

كدت أقول لها: إذن تزوجي من فرنسي! ثم تذكرت أن بعضهم، أيضاً، قد لا يرضى بشروطها. وسكت، فقد كانت أجمل من أن يقول لها المرء كلمة جارحة).

تنهض السيدة الغامضة وهي تقول: لقد تأخرت. لم يعد بوسعي البقاء. تودع عبد الرزاق دون أن تصافحه. يسألها أن تترك عنواناً لتتصل بها أمه حين تعود. تقول: الاتصال بي صعب. سأفعل ذلك بنفسي.

يُخيّل إلى عبد الرزاق أن صورتها لم ترتسم في مرآة المدخل وهي تمر أمامها. يتأمل فستانها ذا الطابع القديم كما في صور «ألبوم» الأسرة وهي تغطيه بمعطف أسود طويل كالعباءة وتمشي صوب باب الخروج بحذائها شبه الأثري بتصميمه العتيق. لا يدري لماذا تغمره رغبة جارفة في استبقائها. لا يريد أن تذهب.

يقول لها: انتظري أمي. ستعود بعد قليل.

تجيب بنبرة جادة: لم يعد ذلك بوسعي يا ابني. يجب أن أذهب.

تمشي على عجل. تدوس دونما انتباه لوح الزجاج الذي تركه النجار ممدداً على الأرض. لا ينكسر تحت وطأة قدميها.

يصل المصعد. ينفتح بابه. تغادره الجارة. يحييها. تختفي الخاطبة الغامضة داخله.

يسأل الجارة عن الطقس وهي تخرج مفاتيحها.

تجيب: جيد. ولكن لماذا لم تستقل المصعد إذا كنت ذاهباً.

يقول بدهشة: كنت أودع السيدة.

تسأله: أية سيدة؟ لم أر أحداً.

يعود إلى البيت. تبدو له الزيارة غير حقيقية وحقيقية في آن مثل حلم.

لا يجد في المنفضة رماد لفافتها التي كانت تدخنها ولفتته بالاسم الطريف على العلبة «خانم» وبعقبها الأحمر الغامق المنمنم. لفافة لم ير مثلها من قبل. لا يجد أيضاً آثار قدميها على غبار (الأنتريه)، المدخل المدموغ بآثار حذائه وحده جيئة وذهاباً، أما لوح الزجاج الذي شاهدها تدوسه فلم يصب حتى بخدش!

يهرع إلى الشرفة ويراها. إنها تغادر المبنى وتقطع الشارع كمن لا يلوي على شيء ولا تبالي حتى بالسيارة التي تصدمها.

يركض كالمجنون إلى المصعد فمدخل المبنى مرتاعاً من مشهد يتوقعه: هي ممددة على الاسفلت تحتضر وقد تجمع المارة وحارس المبنى حولها (مسكينة هل جاءت لتموت عندنا؟).

يصل إلى الشارع. لا يجدها وكل شيء يمضي في طريقه كالمألوف.

يسأل حارس المبنى عن السيدة التي صدمتها سيارة. يقول الحارس إن شيئاً من ذلك لم يحدث.

يؤكد له عبد الرزاق أنه شاهد حادث صدم سيارة لسيدة من شرفته. يقول حارس المبنى إنه لم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً.

يؤكد عبدول أن المصدومة هي السيدة التي زارتهم ويذكر لحارس المبنى أوصافها. يقرر الآخر أنه لم يغادر مكانه في غرفته الزجاجية مقابل الباب ولم يفتح الباب الكهربائي الآلي لسيدة كهذه.

يعود عبد الرزاق إلى البيت مضطرباً. (**إنني واهم بالتأكيد. الجارة لم ترها في المصعد. حارس المبنى لم يرها تدخل أو تخرج. الجرس المعطل لم يرن. لوح الزجاج لم ينكسر تحت قدمها. المقعد لم يسجل أثر جلستها. رماد لفافتها اختفى.. مثلها، لأنها ببساطة لم تحضر. وأنا بالتأكيد متعب الأعصاب إثر قراري الزواج من نادين وربما كان علي أن أعيد النظر في ذلك..**).. ولكن السبحة ما تزال متربعة على الطاولة حيث نسيتها الضيفة! لا يجرؤ على مسّها. يخاف أن تكون هي الأخرى وهماً كصاحبتها.

يدخل إلى غرفة والديه أو «غرفة الذكريات» كما يحلو له أن يدعوها، كمن يفتش عن جواب وقد انتعشت ذاكرته وبدأت ترسل له إشارات غامضة.

يجلس على المقعد ذي المسندين المزينين بأشغال صنّارة أمه في الغرفة نصف المعتمة مسدلة الستائر دائماً، كما تحبُّ أن تبقيها أمه ربما لتتخيل أن البحر ما زال خلف النافذة والغرفة ما زالت في بيروت. مضطرباً، يجيل عبد الرزاق عينيه في اللوحات كمن يراها للمرة الأولى. لوحات لعمر الأنسي ومصطفى فروخ وجورج داوود قرم، حملها والداه معهما من «أيام العز» كما يسمي الجميع أيام ما قبل الحرب في بيروت.

يتأمل دانتيل الفراش الذي سوّته أمه بيديها الموجوعتين المصابتين بالروماتيزم.

يتأمل المرآة المحاطة بالفضة المطروقة والمصنوعة في لبنان قد شابها صدأ عريق جذاب، وسوط والده المعلق على الحائط متدلياً مثل راية منكسة لم تعد لها أية قدرة على الانتصاب.

يتأمل مائدة لها غطاء مشغول بقصب محلي وفوقها الصور العائلية القديمة.. كان ينفر من هذه الصور قبل ذلك. يهرب منها. يريد أن ينتمي إلى حيث هو بكل قواه، ويترك والديه العجوزين لزمن الذكريات.

يتأمل في النور الشاحب صورته طفلاً وصور شقيقاته وإخوته وكلهم يكبرونه سناً وبينهم من قتل الآخر في الحرب وكانوا في الصورة متعانقين (**إنها صور أسرة قابيل وهابيل. . الغرفة غارقة في ضوء رمادي بين الأسود والأبيض كالفجر أو الغروب وقلبي غارق في الإضاءة ذاتها.**

إذن هذه صورتي طفلاً وأنا في السابعة من عمري. في وجهي نظرة اعتزاز لا تبدو في عيون شقيقاتي ربما لأنني صبي في أسرة تحب الصبيان أو لأنني كنت أحدس أنني سأبقى الصبي الوحيد بعد مصرع بقية «المقاتلين» من اخوتي. . . الصبي الأصغر الذي تخصُّه الخالات والعمّات ونساء الأسرة بالدلال). .

للمرة الأولى يهدر عبد الرزاق وقته في التحديق في الغرفة بحنين كمن يودع لحظة هاربة تتلاشى في الضوء المغبر تدريجياً.

(**كانت هذه الصور هنا دائماً ولم أرها. كنت مشغولاً بحياتي عن ذلك. لم يخطر لي يوماً أنها جزء مني بنفتالينها وغبارها وبخورها الغامض كذكرى رائحة**).

يتأمل بقية الصور دون أن يمسح عنها غبارها، فأمه تترك الغبار يغطيها وتمسحه عن كل ما في الغرفة باستثناء الصور. . .

يحدق في صورة أمه أيام كانت شابة جميلة متوهجة بالحيوية تقف تحت جانح أبيه النحيل الرقيق بابتسامة كلها رضى. يرى صورة أخرى لها محاطة بشقيقاتها. يجمد فجأة كمن ضربته صاعقة (**يا إلهي. هذه خالتي بدرية الواقفة إلى جانب أمي. إني أذكرها. إنها هي بالتأكيد. . .**).

تتوقف نظراته عندها. يذكر أنها ماتت بالسرطان وهو بعدُ في الثامنة من عمره. قيل له إنها كانت تحبه كابنها الذي لم ترزق به لأنها لم تتزوج. لم تكن جميلة ولا بيضاء، وهو خطأ لا تغتفره الخاطبات بسهولة.

قلبه يقرع كطبل مجنون. يتأكد من حقيقة لا سبيل لإثباتها: المرأة التي زارتهم سائلة عن أمه هي خالته بدرية أو أنها تشبه كثيراً امرأة الصورة، خالته بدرية (**بل وترتدي الثياب ذاتها كما في الصورة ولها المنديل المائل ذاته. أعني**

تشبه خالتي كثيراً إذ لا يُعقل أن تكون هي نفسها بعدما صارت عظامها تراباً من زمان).

يشعر بالذهول. يسمع مفتاحاً يدور في قفل الباب الخارجي ولا يتحرك.

يسمع أمه ووالده يتبادلان التهاني لنجاحهما في الحصول على «القرع»(*) و «الهندباء»(*) من «البسطة» مقابل فندف «لوتيسيا».

لا يتحرك. تناديه أمه. لا يتحرك. يسمعها تقول لوالده: هذه السبحة ما الـذي جاء بهـا إلى هنا؟ إنها سبحـة أختي بدريـة رحمهـا الله. قـرأتُ عليهـا «الصمدية» عشر مرات حين ولد عبد الرزاق. لا يتحرك.

تقول بدهشة: من الذي نبشها من بين حقائبي في القبو؟ لا يتحرك.

يسمع والده يقـول: لا أذكر أنها كـانت في حقائب القبـو. لعلنا نحن أخرجناها من خزانة غرفة النوم حين قمنا منذ أيام بترتيب الخزائن.

يرن الهاتف. لا يتحرك. الذهول يغمره.

تدخل أمه إلى الغرفة. تجده جالساً. تشهق نصف مرتاعة وتسأله: ما الذي تفعله هنا؟ هل أنت مريض يا حبيبي؟

لا يجيب. يحاول أن يقول لها شيئاً عن الزائرة التي جاءت في غيابهـا، ولكنه يصمت كما لو كانت الزيارة تخصه وحده. تكرر أمه سؤالها. يقول: لا شيء. كنت فقط أتأمل هذه الصور. هذه السيدة الواقفة إلى جانبك في الصورة أليست خالتي بدرية؟

ـ أجل إنها خالتك بدرية. كنتَ مدلَّلها وكنا نتندر بحماسها لجمع رأسين بالحلال، فهي تحب دور الخاطبة دون أن يكلفهـا أحد بـذلك. وكنت طفـلاً وكانت تختار لك العرائس! لو عاشت حتى اليوم لما تركتك هكذا عجوزاً بلا زواج والصلع يغزو رأسك.

تتابع مستدركة: اعذرني. لم أعرف أنك كنت هنا. لقد هتفت نادين قبل دقيقة وسألت عنك وقلت لها إنك غير موجود.

(*) خضار شائعة في لبنان.

ينظر إلى ساعته. يجدها الخامسة والربع. **(إذن عاد الزمن يتحرك!).**

. . كمن يصحو من غيبوبة، ينهض مهرولاً وهو يقول: لدي موعد معها بعد ربع ساعة.

قبل أن يغادر البيت يلمح سبحة خالته بدرية على الطاولة. يمسك بها بحنان ويخفيها في جيبه.

يغادر المرآب بسيارته، يقودها منهكاً حائراً لا يدري ماذا يحدث له.

عند المنعطف يلمح خالته بدرية تركض في شوارع باريس والسيارات تدهسها وهي لا تبالي وتتابع ركضها أمام عينيه. . .

بين حين وآخر يتحسس سبحتها في جيبه بحنين ويدهش. **(من أخرج هذه السبحة من صناديق الزمن؟ هل يمكن أن أكون قد فعلت ذلك دونما وعي مني؟).**

أمام مدخل النادي الرياضي تقف نادين بانتظاره**(كم هي جميلة متوهجة بذراعين من العافية والنضارة، وفخذين رياضيين شهيين لغزالة برية. . وصدر ناهد لأمور كثيرة، الرضاع من بينها كما القفز في الفراغ إلى المغامرة). . .**

تقول له مداعبة كعادتها: أهلاً بهاملت اللبناني.

يُخرج يده من جيبه، ويترك سبحة خالته ليضمها إليه بيديه وقلبه وجسده وكل ما فيه يخفق **(اللعنة عليها كم أحبها. . وأكرهها وأتوق إليها وأخشاها. . . ولكن ما دمت غير قادر على قطع رأس القط ولا ذنبه، فلا بد لي من التفكير طويلاً: ترى هل بوسعي أن أقفز معها عن الجسر؟ أقفز أو لا أقفز تلك هي المسألة. بل واحدة من «المسائل» الكثيرة. . لا. لا أجرؤ).**

يخيل إليه أنه يرى من جديد خالته بدرية وسيارات باريس تدهسها **(لن أعرض عليها الزواج الليلة، بالرغم من أنني كنت قد عقدت العزم صباحاً على أن أفعل ذلك. يجب أن أفكر في الأمر ثانيةً، أن أفكِّر طويلاً طويلاً. ها أنا مربوط من قدمي بحبل مطاط متدلٍ فوق الهاوية، مجرد «يويو» بشري آخر مذعور. أقداري تعبث بي. تصعد وتهبط بي. نعم. لا. سأتزوج منها: لن أجرؤ. بلى سأفعل. لا، لن أجرؤ. . نعم. لا. نعم. لا. .).**

يلمح خالته بدرية تمشي في وسط الشارع نصف المعتم ببطء كما لو كانت تائهة. يتوقف ريثما تمر لئلا يدهسها. تقول نادين بنزقها: لماذا توقفت والشارع خاوٍ من المارة والإشارة الضوئية خضراء؟ لا يجيب. يتابع السير بسيارته، لكن يده تبحث في جيبه عن سبحة خالته بدرية وتمسك بها في الظلمة..

١٩٩٤/٨/١٥
الساعة ٣,٣٥ ليلاً

التمساح المعدني

الفضول لدى أكثر العقول ضخامة وفهماً وكرماً هو العاطفة الأولى والأخيرة.

د. جونسون

الفضول يهزم الخوف أكثر مما تهزمه الشجاعة.

جيمس ستيفنز

للحلم عالمه الخاص: مملكة من الحقيقة البرية.

اللورد بايرون

ما أكثر الذين يفضلون انصاتك لهم على قضائك لحاجتهم!

لورد شسترفيلد

التمساح المعدني

تنفخ الريح بشفتين متجلدتين على صف طويل من بشر بدوا بلا ملامح في ظلمة الفجر الشتائي. انتظموا كالأشباح على الـرصيف كأنهم أعضـاء في منظمة سرية للبكاء وتعذيب الذات.

ينحني سليمان من وقفته مقرفصاً. ينطوي على نفسه كمن يحتضن جرحه. يحاول عبثاً تغطية وجهه بطرفي ياقة معطفه. **(ما الذي أفعله هنا؟**

ها هو ألم ضرسي يستيقظ من جديد تحت مطارق البرد القارس. لو قال لي منجّم يوم كنت شاباً غارقاً في دفء شواطىء بيروت إنني سأقف أمام مركز البوليس في باريس بعد عقدٍ ونصف عام ١٩٨٥ غارقاً في الذل في الخامسة فجراً بانتظار فتح الأبواب ومؤشر حرارة الجو يشير إلى خمس درجات تحت الصفر لسخرت منه أنا الآمن في «امبرطوريتي» البيروتية.

يومئذ كنت أمارس هواية صيد السمـك فوق صخـور شاطىء «رأس بيروت» وأشعر أن جسدي جزء من الصخرة تحته ومستقر فوقها و «الحجر في مكانه قنطار»(*) كما كان يردد أبي).

ينبض ضرسه بالألم مرسلاً سهامه في الاتجاهات كلها.

يكاد يشعر بالندم لأنه حيث هو. **(كان عليَّ أن أكتب رسالة إلى مدير البوليس الفرنسي أشكو فيها هذا الإذلال اليومي البارد للغرباء، كما فعلت ليلى احتجاجاً وحملت طفلها فراس وعادت به إلى بيروت وهي تقول: سأموت تحت القصف بدلاً من هذا الإذلال الصامت البارد.**

ولكن ما الذي بوسعي أن أكتبه أنا لمدير البوليس؟ وهل يعاملني أهل بلدي بأفضل مما يفعل رجاله؟ هل أقول له إنني لست هارباً من القصف بل مما هو أمرّ وأدهى؟ وعلامَ ألومه وجثة بلدي المتدلية من عنقي مـا تزال تـذكرني بمآسي الفوضى؟

(*) «الحجر في مكانه قنطار» مثل شعبي ضد مغادرة المرء لمسقط رأسه.

أكلنا بعضنا بعضاً حتى سال الـدم من وجوهنـا وتكومت الجثث عـلى سجادنا وداخل فناجين قهوتنا، وانهار كل شيء على رؤوسنا وسط التصفيق والخطب الحماسية والملصقات المتطايرة مع رصاص الابتهاج وانتهينا إلى هـذا الذل الذي لا مفر منه. عودتي إلى بيروت تعني ببساطة قتـلي على يـدي «أبو المهاول».

لم أكن أعرف أن تلك السيدة التي جاءتني طالبة «عقد ذَكَرٍ» زوجها عن كل آدمية أخرى بلغة الجان، وحرمانه من قواه الجنسية باللغة العصرية، كانت زوجة الزعيم الميليشياوي «أبو المهاول» في المقر المجاور لمقري.

في البداية كان زبائنه أكثر عدداً من زبائني لكنهم عادوا إلي واحداً بعد الآخر ومعهم بعض أزلامه وصار بعضهم يستشيرني أيضاً في أمور السياسة، ناهيك عن خط حياته.

كنت بصاراً، فلكياً، ساحراً، منجِّـماً، ولا يهمني حقاً كيف يسمـونني بقدر ما يهمني أن يدفعوا أكثر وأكثر، فورائي زوجتان وسبعة أولاد يتعلمون ويأكلون ويمرضون وينفقون.

قالت لي زوجة «أبو المهاول» ـ يوم جاءتني كأيِّ زبونة ثرية مجهولة ـ إن زوجها يخونها مع حسناء أرتني صورتها في صفحة المجتمع في إحدى المجلات وإن صديقتها همست بذلك في أذنها. فصارحت زوجها الذي أفهمها أن ما يقوم به «واجب وطني»، فهو يرتاد السهرات الراقية ضمن «تكتيك استراتيجي» وأنه مضطر أحياناً لخيانتها. وأكدت لي باكية أنها لم تفهم من أعذاره تلك غير أنه يخونها.

وتعجبتُ من هذه الحكاية إذ هل يمكن للنذالة أن تصير واجباً وطنياً؟ ولكنني قمت بعمل اللازم وكنت أعرف أن ما أفعله لا يفيد ولا يضر، وهو قد يزيد من ثقتها بنفسها ويساعدها بالتالي على استعادة زوجها، وكنت أجهل أنه «أبو المهاول».

اكتشف الحرز الذي دسته في سريره واستجوبها ببعض طرقه الخاصة التي لا يصمد أمامها أحد، وجاءني غاضباً وفي يده «آر. بي. جي» وطرف القذيفة

يرغي ويزبد.

هددته بالشياطين والأرواح ولعنتي عليه وعلى ذريته، ودهشت حين خاف من ذلك واكتفى بمطالبتي بفك السحر عنه وبالرحيل بعد ذلك.

كان مثلهم جميعاً يخشى القوى الخفية، وأنا مثلهم أخشاها، ولكنني لا أملك شيئاً منها!

من زمان مارس والدي الفقير ألعاب الخفة في الملاهي والكاباريهات والسهرات وعلمني الكثير منها. قررت أن أربح أكثر وأتعب أقل، فوضعت لافتة على بابي: الفلكي الكبير. وذهلت لكثرة الزبائن وصرت أغتني بسرعة كأنني أغرف من منجم ذهب. كل ذلك الذعر من المجهول في القلوب تحول إلى شيكات على طاولتي وسبائك ذهبية في خزانتي.

قال أبي: ألعاب الخفة فن، والشعوذة السحرية دجل، وثمة أشخاص نادرون أنعم الله عليهم بقوى خفية يحركون الأشياء المادية عن بعد بإرادتهم الروحية ويخاطبون الماوراء ولستَ من بينهم يا ابني.

قلت ما الفرق ما دام الزبائن سعداء وأنت تقاعدت يا أبي والأولاد يتعلمون ويكبرون وصار بوسعي الزواج من ثالثة أيضاً!).

السيدة الواقفة في الطابور أمام سليمان تنحني مقعية على الأرض ومعها مرافقتها الشقراء وهي تدمدم بشتيمة: «كذا اخت» هذا «الزنطاري»(*).

إذن هي لبنانية مثله. يحاول أن يكلمها ورفيقتها ليحتمي بدفء الأنس معهما. يجد صوته متجلداً وقد تحولت حنجرته إلى مغارة جليدية تنبض قربها جمرة تحوَّل إليها ضرسه المتفجر بألم كاوٍ..

يلتفت وراءه. يرى زنجياً وخلفه صف طويل من الناس الذين تقاطروا بعدهما.

يحاول أن يعود برأسه إلى الأمام. لا يقدر. ذلك الزنجي الواقف خلفه بقامة شاهقة ونحيلة مثل هيكل عظمي بجمجمة ضخمة، يحدّق فيه بعينين

(*) الزنطاري: البرد القارس باللهجة البيروتية.

طريفتين ومرعبتين في آن تشبهان كرتين نافرتين خارج محجريهما كما لو كان صاحبهما مخلوقاً فضائياً. عينان لهما شعاع مسلط عليه من ضوء سري يشله ويربكه رغم برده وألمه. يشعر بشيء استثنائي غير عادي. **(قال لي والدي: سأصطحبك إلى رجل لديه قوى خفية حقاً.**

في حضور كاشف البخت القادر حقاً على قراءة الأفكار وسواها، امتلأت بشعور يشلني ويربكني وأنا ساقط تحت حزمة من أشعة سوداء تخترقني لامرئية كأشعة اكس وتكاد تسبر غور مغاور روحي. شعرت يومها أمامه بأنني عارٍ وخفت).

إنه الشعور ذاته يغمره أمام نظرات الزنجي، وهي تنسيه البرد القارس والريح المتوحشة. **(أحب الزنوج، ربما لأن بشرتي قاتمة السمرة وأكاد أكون بهذا المعنى نصف زنجي، وربما لأنهم معذبون مثلي ـ أو أتخيلهم هكذا ـ وعوالم الثلج المرفهة لا تحبنا).**

الزنجي يحوِّل نظراته عنه إلى كلب ضخم مرعب خرج من الظلام وجاء يعوي على قافلة الأشباح المصطفة أمام الباب قبل الفجر كي تحصل على أوراق رسمية تسمح لها بالإقامة في باريس. ومن يحضر في التاسعة وقت الدوام العادي يقضي بقية يومه منتظراً دون أن تتاح له فرصة الدخول لكثرة الازدحام.

الكلب الطالع من الصقيع يعوي كأنه يطردهم. يمشي أمام قافلة المتجلدين برداً فيثير الذعر في النفوس المضطربة. يكاد سليمان يضحك بؤساً من هذا القادم الذي جاء يزيد في قهره. الكلب يخصه بعوائه وإحدى اللبنانيتين تتمسك به مرتاعة وهما تنهضان. ينصرف عنهما ليخص الزنجي بهياجه. لا يبدو الزنجي خائفاً. لا يتحرك من مكانه. يثبّت على الكلب نظراته مثل أشعة «لايزر» لامرئية. يهدأ النباح، يتراجع الكلب مذعوراً ثم يعوي فجأة عواء من نمط آخر كله ألم..

(مرة ضربت كلب أحد «أبطال الدكان» المجاورة «لدكاني» بحجر خلسة، فصار يعوي متألماً وخجلت وندمت لأنني لم أجرؤ مرة على ضرب صاحبه).

الكلب يهرب متراجعاً إلى الوراء وهو يعوي ألماً ولا يجرؤ على أن يدير ظهره للزنجي.

بالعربية، يقول سليمان للسيدة اللبنانية مستقوياً بالزنجي: لا تخافي يا أختي. في الصف رجال يحمونك!

تجيب بسخرية لم يتوقعها: لستُ بحاجة إلى حماية الرجال. أنا هنا هرباً من حمايتهم.

لا يريد شجاراً ولا شراً. يقول لها: سامحيني يا أختي. لم أقصد جرح شعورك.

تقول زميلتها بصوت عال عدواني: لقد عامَلَنا بعض ذكور بلدنا كما يعاملهم الدكتاتور. ولن نسامح أحداً من الفريقين.

ارتاع سليمان لهذه العدوانية. لقد ألف ملاطفة النساء المكسورات لكن لا يعرف كيف يكلم هذا الصنف منهن.

تتابع هي: نتّهم «المؤامرة» ونتجاهل مسؤوليتنا عن بؤسنا.

يكاد سليمان لا يصدق أذنيه. هل يمكن لأحد أن يتكلم هكذا حوالي السادسة صباحاً ودرجة الحرارة خمسة تحت الصفر؟

تتابعان تفجير همومها فيما يشبه الهذيان: الذكور هم المسؤولون. خربوا البلد.

تقول صديقتها: طبعاً لأن الرجال يحكموننا وحدهم... يهربون من ذل واحد ونحن من ذلَّين اثنين! وكلنا هارب!

- آه... لا يجمع العرب إلا نظرتهم المتخلفة إلى المرأة.

تعاود سليمان آلام ضرسه بشدة وهو يستمع إلى اللبنانيتين تصبان جام قهرهما على مسامعه، ويشعر بشيء من الخوف إذ يجدهما غير متوازنتين **(لقد جننا فيما يبدو ولكن من ليس مجنوناً منا؟ وماذا لو عرفتا أنني متزوج من امرأتين وأحلم بالثالثة؟ ستدقان عنقي الآن، هنا على الرصيف. لا. ستغرس ذات الأظافر الطويلة اصبعها حتى قلبي كالسكين. كم أخاف النساء وأحبهن..).**

يعتصم سليمان بالصمت، ما دامت شهامتـه الاستعراضيـة لم تلق عند المرأتين غير أذن التأنيب الصاغية.

يلتفت صوب الزنجي كأنه يلبي نداء بصوت خافت سمعه ولم يسمعه. أوجاع ضرسه تكاد تدفع به إلى البكاء من جديد. يسمع صوتاً بلا صوت داخل رأسه يقول له بوضوح: ضرسك يؤلمك، أليس كذلك؟

يمتلىء قلبه رعباً وذهولاً. منذ زيارته للرجل ذي القوى الخفية في بيروت لم يخاطبه أحد هكذا عبر التخاطر.

يكرر الصوت الذي لا صوت له سؤاله: ضرسك يؤلمك، أليس كذلك؟

يقول بلا صوت: أجل. آه كم يؤلمني هذا الضرس اللعين.. ولكن، كيف عرفت؟

ـ إنك تصمّ حاستي لكثرة ما صرخت ألماً بلا صوت منذ وصولي!

(هل بدأت أوجاع ضرسي تدفع بي إلى الهذيان والجنون؟).

ـ لا. أنت بخير فاطمئن. سأحاول أن أساعدك. التفت صوبي وحدِّق جيداً في عيني. استرخِ شيئاً فشيئاً ودع صرختي تدخل إليك.

يلتفت إلى الزنجي خلفه. عيناه مصباحان مشعان نائيان في آخر شارع حزين مظلم غسله المطر في المسافة بين الدهشة والحنان والبكاء. يكاد يسترخي وهو يتذكر ما يدور في وصلات التنويم المغناطيسي، ثم ينتفض مرتاعاً. **(إنني لا أسمع صوتاً لكنني في الوقت ذاته أعي أن الكلام يُقال لي داخل رأسي. ما الذي يحدث لي؟ لعلها أوجاع ضرسي وهذه الوقفة الذليلة القارسة تتحالفان وتسببان لي «الهلوسة» وتستضيفان الهذيان).**

يقول له الصوت «البلا صوت»: إنني أخاطبك بلا صوت ولا لغة فلا تخف. حدق في عينيّ. إنك لا ترى سواهما، ولا تسمع غير صوتي. هذه موجة دافئة تغمرك. أنت لم تعد على الرصيف البارد. أنت داخل موجة دفء... ضرسك لم يعد جزءاً منك. أنت تفصله عنك وتعزله. إنه لم يعد يؤلمك. لم يعد بوسعه أن يؤلمك.

يستسلم سليمان للصوت وهو يخاطبه بهدوء ودي نصف آمر.

يمر بهم شرطي متثائباً وهو يتفقد من علٍ (طابور) المنتظرين..

يقول سليمان لنفسه: إنني بالتأكيد أهذي من الوجع والبرد. يذهله في الوقت ذاته أنه لم يعد يشعر بالبرد كثيراً ولا بوجع ضرسه. **(الألم يشتد ويخفت ولعل البرد بدأ ينحسر والساعة تقارب السابعة. انقضى نصف وقت العذاب)** إنه لا يستطيع أن يصدق أن تحديق هذا الزنجي فيه هو سبب هدوء أوجاعه كما كان قبل قليل سبباً لذعر الكلب وألمه وهربه. لا. لا يمكن أن يكون ساحراً حقيقياً. يسمع الصوت البلا صوت وهو يجيبه على أفكاره:

نعم. أنا ساحر حقيقي آت من غابات السر وسليل أسرة عريقة من سحرة قبيلتنا الإفريقية الشهيرة ولست دجالاً طريفاً مثلك!

لا يدري سليمان، أهو فريسة خيالاته، وهل يتصور هذا الزنجي ساحراً لمجرد أن له نظرات يتوهمها نفاذة وأوجاع ضرسه هدأت بما يشبه التنويم المغناطيسي والكلب هرب مذعوراً لسبب مجهول، أم أن الرجل يخاطبه حقاً بالتخاطر بدل الحوار الصوتي ولديه طاقات خفية؟ **(أهو الذي جعل المرأتين اللبنانيتين الواقفتين أمامي تصمتان تماماً أم أنهما تعبتا وازدادتا التصاقاً بالجدار فيما يشبه الغيبوبة؟ إنني متعب والوقت طويل)**.

يسمع سليمان الصوت البلاصوت يقول له: لا تخف سيمر الوقت بسرعة. ستنام دون أن تنام، ولن تستيقظ إلا وقت فتح الأبواب...

ينطوي سليمان من جديد على الرصيف قرب المرأتين، ويندس بجسده في الرحم الحجري للجدار **(أهذا ساحر حقيقي؟ منذ طفولتي وأنا أحلم برؤية ساحر. تخيلته دائماً بلحية جزئية وأنيقاً بثياب علي بابا وخاتم سيدنا سليمان. لم يخطر ببالي أن يكون زنجياً طريف المظهر رثّ الثياب ألتقيه ذات فجر بائس في باريس)**.

إنها التاسعة وأبواب الفرج في جدران البوليس (البرفكتور) بالقرب من كنيسة نوتردام بدأت تنفتح. الشمس ساطعة باردة، معدنية ولئيمة، ترسل ضياء صقيعياً كله سخرية سوداء من الدفء، ولعل درجة حرارة الجو ما تزال خمسة تحت الصفر كما وعد مذيع النشرة الجوية زبائن الحزن على بوابات أسوار المدن.

يشعر سليمان أن الشمس الباردة هذه تكهرب المرئيات بتهديد سري خفي.

تتحرك قافلة المتعبين متحفزة وتدخل جسداً تلو الآخر.

يخطو سليمان أخيراً فوق العتبة المرتفعة. الشرطية تتفحص أوراقه. يمر عبر آلة اكتشاف السلاح. تصفر الماكينة. يفرغ جيوبة من القطع المعدنية ويغمره الذعر. **(كم صرت أخاف رجال الشرطة وكل من يرتدي زياً رسمياً أياً كان، ميليشياوياً أو ناصع البياض لطبيب!).**

يتابع سيره بعد أن يكرر الدخول عبر المربع الخشبي للمستطيل الهوائي ويستعيد قطعه المعدنية.

يتبع القطيع الذي يدلف إلى غرفة زجاجية صغيرة مربعة تتوسط أحد أضلاعها نافذة تجلس خلفها شرطية.

يكاد سليمان يختنق في علبة السردين البشرية الشفافة ويلتفت خلفه بحثاً عن الزنجي. يراه في موضعه وراءه ويسمع صوتاً بلا صوت: لا تخف. لن تتحطم أضلاعك. سأبعد لك الزجاج قليلاً إلى الخلف.

يشعر سليمان بهدوء نسبي والنهر البشري يجره جيئة وذهاباً حتى يصل أخيراً إلى النافذة ويحصل على رقم يؤهله للانتقال إلى قاعة الانتظار الشاسعة.

القاعة تشبه مسرحاً للعديد من الشرطيات الحاكمات بأمرهن كما يخيل إليه من جلستهن الواثقة وتعالي نظرات بعضهن. ولكل شرطية حاكمة منضدتها المرتفعة على منصة خشبية ونافذتها. وبوسعها تيسير الأمور على الغرباء اللامرغوبين أو تعسيرها.

يجلس سليمان على مقعد خشبي طويل بانتظار أن يسمع النداء على رقمه، وقلبه يرتجف خوفاً ويحاول توضيب أجوبة مقنعة للأسئلة كلها التي يتخيل أنها ستطرح عليه. إلى جانبه يجلس الزنجي، كما لو كان ملاكه الحارس أو (قرينه).

يحدق سليمان في وجوه الشرطيات متفرساً. كانت مهنته قد علّمته محاولة استشفاف بواطن الناس من ملامح وجوههم. **(هذه الشقراء تبدو متعجرفة وقاسية. الأخرى الزنجية إلى جانبها ستكون لطيفة مع الناس فهي سوداء**

وتتعرض بالتأكيد لبعض الاضطهاد. هذه الثالثة ما أجملها! ما الذي تفعله هنا؟ وهذه الرابعة والخامسة. . والتاسعة).

يضجر. يبحث بعينيه عن اللبنانيتين المتحمستين لتحرر المرأة ويجدهما واقفتين. يفكر بأن ينهض بشهامة ويعطيهما مقعده ثم يقرر أن يتركهما هكذا ما دامتا تريدان المساواة بل وخاف لو عرض عليهما الجلوس مكانه أن تشتماه وتذكِّراه بأن لهما ساقين هما أيضاً.

يظل جالساً متحفزاً خوفاً من مناداة شرطية على رقمه دون أن يسمعها.

يتأمل من جديد الشرطية الزنجية متمنياً أن يكون من نصيبه أن تنادي على رقمه. يسمع الصوت الذي لا صوت له ولا لغة يخاطبه من داخل رأسه: «لا تدع المظاهر تخدعك. حاول أن تتعلم النفاذ إلى الجوهر. أنت لست دجالاً بقدر ما تتوهم. لديك قوة ما لكنك لا تحسن استعمالها».

يلتفت سليمان إلى جاره الزنجي. وجهه شبيه بتمثال صخري من تلك التي شاهد صورها على ساحل البحر في إحدى الجزر النائية. وجه من حجر شاهق مرمي على الشاطىء الأزلي للأسرار كأنه بحّار الهذيان.

صوت الشرطية الزنجية يعلو. إنها تزجر عاملاً مغربياً يبدو وكأنه يرتجف تحت وقع كهرباء الذل والاهانة.

يقول له الصوت الذي لا صوت له: هل فهمت ما أعنيه؟ إن المنطق يحول بينك وبين الحقيقة. تتوهم الناس دمى. إنهم أكثر تعقيداً من ذلك. المُذَلّ المُهان ليس بالضرورة لطيفاً مع أمثاله بل قد يصير جلاداً كهذه الشرطية الزنجية. لمعرفة الناس عليك أن ترحل إلى ما تحت جلدهم وأضراسهم. . بالمناسبة أما زال ضرسك يؤلمك يا سليمان؟

- لا. شكراً. ولكن كيف عرفت اسمي؟

يكاد لا يصدق أن ذلك يحدث له. يشعر بالذعر **(هل بدأت أسمع أصواتاً غامضة وأصاب بالجنون؟)**.

يحدق في جاره الزنجي فيلتفت الرجل إلى الناحية الأخرى وتهب منه رائحة الغابات داكنة الأشجار المظلمة بأسرارها وخيراتها، ويسمع الصوت الذي

لا صوت له يقول له: «وأنا أدعى دونچا».

الشرطية الزنجية تزجر غريبة أخرى، وتبدو لسليمان نموذجاً لذلك الصنف من الناس الذي يحاول اذلال الآخرين دونما مبرر ويستمتع بقهرهم علناً. ولكن ها هي تتعامل مع طالب إقامة آخر غربي الشقرة والملامح بكثير من الدماثة لتعود إلى زجر رجل من العرق الأصفر رقيق الحال يبدو أنه يعمل خادماً في مطعم أو هكذا خُيّل إلى سليمان.

يسمع صوتاً داخله يقول: إنها دوماً هكذا. تداوي قهرها بقهر الآخرين. أعرفها منذ أعوام ويعرفها كل من زار هذا الجحيم الأرضي.

يخاف سليمان. إذن هذا الصوت الذي لا صوت له ليس صوته فهو يجهل هذه المعلومات عن الشرطية الزنجية، ويأتي إلى هنا للمرة الأولى، أم تراه يتخيل قصة حياتها مع قهر المقهورين مثله؟

ثمة نافذة قريبة نصف مفتوحة يتدفق منها البرد على ضرس سليمان موقظاً ألمه. يشعر بالذل لأنه لا يجرؤ على أن ينهض لإغلاقها خوفاً من غضب شرطية ما.

ـ سأغلقها لك! يحدق الزنجي في النافذة وها هي دفتها تنغلق ببطء شديد كأن ريحاً لامرئية تنفخها وتطبقها.

يُعاود طفل المرأة المجاورة بكاءه. يحدّق فيه الزنجي دونچا. يهدأ الطفل (**إنها بالتأكيد مصادفة. الريح هي التي أغلقت النافذة. أما الطفل فقد كنت أحدّق فيه أنا أيضاً وبقية الحضور. حين يبكي طفل لا يملك المرء إلا أن يحدّق. ولكن لا. إنني أعرف أن تحديق جاري الزنجي دونچا مختلف ولا أملك الدليل على ذلك. بالمقابل كيف توقف وجع ضرسي من تلقاء نفسه؟ وكيف انقضى الوقت ولم أشعر بالبرد؟ ولماذا هرب الكلب مذعوراً؟ ولماذا أعرف أن اسمه دونچا؟ إنني لا أعرف كيف أعرف ولكن هل اسمه دونچا حقاً؟**). يسمع الصوت الذي لا صوت له: «هذه هي المعرفة الحقيقية. إنها تتفجر في صدرك من ينابيعك الداخلية السرية التي تصلك بالينبوع الأول. حذار من إقامة سدود المنطق بينك واللامعقول والماوراء.. والسر..

الشرطية الزنجية تنادي على رقم غير رقم سليمان. يتنهد كمن نجا من

فخ. ولكن دونچا ينهض ويمضي نحوها. يشفق سليمان عليه **(ستسلخ جلده وتعلق جسده النحيل أمام مدخل خيمتها. ستقطع جمجمته الضخمة وتدقها على أشجار غابتها إلى جانب رؤوس آلاف الغرباء الذين قهرتهم).**

تنادي الشرطية الشقراء على رقم سليمان ويكاد لا يسمعها منشغلاً بقلقه على رفيقه الزنجي الغامض. رغم ذعره من الشرطية الخاصة به يتساءل: ترى هل سترأف الزنجية بدونچا رفيق القارة والغابات والدم.. دمها وجذورها؟

تنهال على سليمان الأسئلة بلطف ودونما عدوانية. كم معك من المال. أين ستعمل. أين تقيم. هل لديك فواتير الكهرباء لإثبات ذلك؟ وهل تحمل معك نسخة من عقد العمل. وتكتب عنه الشرطية بنداً في الاستمارة نسي أن يملأه **(هذه الشرطية الشقراء التي كنت أظنها متعجرفة كم هي لطيفة وهادئة وتتعاطف مع اللبنانيين).** تسير الأمور على ما يرام مع مستجوبته. هي تسأل بلطف واحترام وهو يتدفق بالتفاصيل.

يقول لها: أنا منجِّم. بصَّار. أعرف المستقبل وألعب بالمصائر. أعمل حالياً في الملهى العربي وأسلِّي الساهرين بسحري ريثما أرتب أموري...

تبدو بالغة الاهتمام بعمله، وشديدة الاحترام لطاقاته. يكاد يرتبك أمام جمالها وطيبتها وجوعها للمجهول الغامض.

يعرض عليها أن يقرأ لها كفها. تبتسم قائلة: ليس هنا. إنني أعمل.

يضيف: مجاناً.

تضحك بعذوبة.

صراخ إلى جانبه. إنها الشرطية الزنجية تزجر دونچا. تناديه كما تقضي الأصول: السيد دونچا. إذن هذا اسمه. يرتجف سليمان متسائلاً **(كيف عرفتُ اسمه؟ إذن حدث ما حدث حقاً. ولكن لو كان ساحراً قادراً لمنع هذه الشرطية من إذلاله علناً هكذا، ولسحرها بنظراته وعاقبها على شرورها، وهي التي تهين هكذا أبناء جلدتها).**

يلتفت سليمان إلى دونچا بشيء من الشفقة بعدما أنعش اهتمام الشرطية ولطفها غروره الخاص. صار بوسعه الآن أن يوزع حنانه على الحاضرين ككل

المحظوظين.

سليمان يرى دونچا ـ والشرطية ما تزال تناكده ـ كتلة من الضوء الأسود المشع بالغضب ولا يدري لماذا يهابه! (لا شماتة مع مخلوقات كثيفة الحضور الروحاني كهذا الزنجي اللطيف الوديع الغامض الشرس... لو كنت مكانها لخفت منه حقاً). يتأهب سليمان لمغادرة القاعة ويرى الزنجية تلملم أشياءها وتخرج مسرعة وتمر به. (إذن حان موعد غدائها بعدما مارست قسوتها والتهمت هذا الزنجي المسكين وعشرات مثله وأوجعتهم بخيانة الدم).

يغادر القاعة من الباب الآخر المخصص للخروج. يمسك بالباب الثقيل كي يمر دونچا قبله إشارة ود. يمشي إلى جانبه في تعاطف إنساني لا لغة له وهما اللذان لم يتبادلا كلمة واحدة لها صوت. يسمع سليمان الصوت الذي لا صوت له ولا لغة داخل رأسه يهمس: إني غاضب ولم يعد بوسعي تهدئة آلام ضرسك فمعذرة. إني غاضب جداً.. ولديّ الآن هاجس آخر. سأركّز طاقتي على هدف آخر.

يقول سليمان لنفسه كأي لبناني لا يريد شراً (آه متى أعود إلى غرفتي المفروشة وأنام لساعات وأتخلص من هذا الصباح الهاذي الذي انتهى «على خير» بقبول طلبي للإقامة المؤقتة؟ متى يصير دونچا الساحر والمرأتان اللبنانيتان الغاضبتان كابوساً عابراً للنسيان؟ كأس من الويسكي، حمام ساخن، وجبة دسمة، تسكع في الشانزيليزيه بين سيقان الحسناوات، وينتهي كل شيء... وغداً أفتش عن شقة لأعمالي، وتأتي المغتربات الثريات حاملات إليَّ همومهن وأرحامهن المرتبكة ـ بنت أم صبي، حمل أم لا حمل ـ وحاملات إليَّ أيضاً حليهن وثرواتهن.. وحين يتوقف القصف وتنتهي الحرب، ولكل حرب نهاية، أعود إلى بيروت وأعاود سيرتي الأولى... «الدكاكين» كلها سيتم إغلاقها ذات يوم، ووحدها «دكاني» ستزدهر.. وحدي الباقي لأنني مغروس في النفوس، فأنا قد أكون مستنقعاً لكنني أتغذى من ترسبات نبع الحقيقة، إنني «الدكان» التي تستمد الضوء من... آه ضرسي عاد يؤلمني) تتمزق أفكار سليمان وأحلامه تحت حضور ذلك الصوت الذي لا صوت له: حذار من العبث بالحقيقة لحساب جزء من الكذب. فالحقيقة موجودة حتى ولو تاجرت بها، ولم تؤمن بها.

لا يدري أهذا صوته هو أم صوت دونچا.

يلتفت سليمان إلى ذلك الزنجي،الذي ما زال يمشي بالقرب منه، مكهرباً بسيالات روحية ممغنطة تكاد تكتم أنفاسه كما لو أن ضغط انفجار استثنائي ما فـرّغ الشارع من الهـواء. (لماذا لا يـدعني وشأني؟ أهـو قريني؟) ويلحظ أن الشرطية الزنجية القاسية تمشي أمامها **(ما الذي جعلها تترك الآن مقر عملها؟ تراه موعد غدائها، أم أن شيئاً أجهله وتجهله أخرجها من مقر «سلطتها»؟ الأمر لا يخصني على أية حال).**

يتابع سليمان السير صوب محطة المترو ودونچا إلى جانبه وتيار مظلم من شلالات الطاقة يتدفق من العينين النافرتين باتجاه الشرطيـة الزنجيـة. يلحظ سليمان أنها تمشي مسرعة كأنما تسعى لميعاد مهم ولقاء لا تقدر على أن يفوتها. لكن هدير الشلالات المائية المظلمة المتدفقة من كيان دونچا سيالات روحية يكاد يصمّ أذنيه.

يخيل إليه أنـه يسمع أيضـاً قرع الـطبول الغـاضبة وأغـاني «التام تـام» والتعاويذ السرية البدائية للقبيلة ويرى دونچـا في ثياب سـاحر القبيلة بقـامته المهيبة. وكأن الشرطية الزنجية تسمع الأصوات ذاتها مثل سليمان ممتزجة مـع هدير الشلالات المظلمة في جغرافيا لامرئية لتضاريس روحية يتحرك ثلاثتهم في ربوعها إذ تلتفت إلى الوراء وتنظر إلى دونچا عارية من منصبها ومنصتها وكأنها تراه جيداً للمرة الأولى، ويخيل إلى سليـمان أنه يشـاهد في عينيهـا نظرة ذعـر حقيقية.. وثمة سيارة تتحرك في الشارع دونما سائق متجهة صوبها، كأنما تمشي الزنجية إلى ملاقاتها بنفسها نصف منومة. يتراجع سليمان إلى الوراء هارباً منها ومعه دونچا.

تظل السيارة تتحرك متسارعة، ويحاول سليمان أن يحذر الشرطية الزنجية ويصرخ، لكن يداً لامرئية تسد فمـه وتشلّ حنجـرته ويلحظ، وهلع حقيقي يجتاح أوصاله، أنه لم يكن واهماً، وليس للسيارة قائد ولكنها تتجه صوب الزنجية كما لو أن قوة خفية تحركها بالتحكم عن بعد (ريموت كونترول)، ويخيل إليه أيضاً أن السيارة تتسارع بطريقة غير منطقية وبصمت وبلا محرك كالأشباح، وها هي تجتاح الشرطية الزنجية وتصدمها في ضربة قوية سريعة شرسة كالبرق وتطيح بها

في الفضاء مثل ذبيحة يُرمى بها في الغابات البدائية إلى إله العقاب، وتطير حقيبة يدها وتبدو في ثانية خرافية كمن تصعد في الفضاء مقذوفة بفعل قوة جبارة لتتلقى طعنة مرصودة، إذ تستقر بعد طيرانها السريع فوق المسننات الحديدية الحادة المدببة كالرماح لجرافة كانت تعمل على إعادة تعبيد الشارع بالقرب من سوق الأزهار المجاورة التي لا تخلو من الورود الاستوائية آكلة اللحم.

يتأمل سليمان برعب مذهول جسدها معلقاً فوق الأنياب المعدنية للجرافة وقد انبثقت الدماء منها وتحجرت عيناها على نظرة ذعر.

حدث ذلك كله في غمضة عين. مثل ومضة فلاش التصوير. ذلك التيار المظلم من الشلالات والطاقات الخفية التي تحرك الأشياء صار يتدفق على غير هدى ويغطيه ويصمّه ويعميه ثم يتلاشى ببطء كما تتراجع المياه إلى مجراها الأصلي بعد الطوفان.

الذهول يغمر سليمان. يتوقف قريباً من جثة الزنجية المعلقة على أنياب الجرافة مثل الأسنان المعدنية لتمساح خرافي.

يركض شرطي صارخاً: سأطلب سيارة اسعاف.

يقول الشرطي الآخر: سأناديهم من مستشفى سان لوي على الرصيف الآخر.

يقول الشرطي الذي يحرس مدخل مبنى الشرطة (البرفكتور) وهو ينظر إلى (الكابح اليدوي) في السيارة الصادمة: ما أغرب هذا الحادث، لقد دهستها سيارتها. صحيح أنها نسيت شد الكابح اليدوي فيما يبدو حين أوقفتها صباحاً، ولكن السيارة كانت متوقفة منذ الصباح، فما الذي جعلها تتدحرج الآن؟

يتفحص آخر السيارة ـ والناس يتقاطرون ـ ويقول غير مصدق أنه رأى ما رأى: (تحليلك) صحيح. إن الكابح اليدوي غير مشدود. ولكن، ما الذي حرك السيارة الآن بالذات؟ ولماذا لم تتحرك قبل ذلك؟ ولماذا تدحرجت بهذه السرعة التي لا تصدق والأرض هنا شبه مستوية؟

يجيب عابر سبيل: ربما زلزلتها ارتجاجات قطار الأنفاق(المترو) المجاور، لحظة بعد أخرى حتى تحركت الآن مصادفة.

تفسير لم يقنع الكثيرين، ولكن لا يبدو أن لدى عابري السبيل أي تفسير آخر أفضل وأكثر اقناعاً.

يشتهي سليمان أن يقول لهم الحقيقة كما يراها، وهي أن دونچا ساحر حقيقي يتقن التخاطر ويحرك الأشياء بنظرات لعلها (رِخت) كابح اليد دافعة بالسيارة في سرعة خارقة مما يفسر حركتها السريعة رغم الاستواء النسبي للأرض. لكنه لا يجرؤ. يخاف أن يُرمى بالجنون ويُحرم من بطاقة الإقامة الموعودة!

لذا يقول سليمان بفرنسية بيروتية اللكنة دون أن يسأله أحد رأيه: «لعلها مصادفة لا أكثر. الصدفة اله العالم». . ويدهش حين يلقى تفسيره هذا تأييداً، بل ويكرر البعض وراءه حقاً. يا لها من مصادفة غريبة.

يلتفت سليمان إلى (قرينه) الزنجي دونچا ليخاطبه للمرة الأولى بصوت، وليسأله رأيه فيما حدث فلا يجده قربه لكنه يسمع الصوت الذي لا صوت له ولا لغة يقول له داخل رأسه: «أجل قتلتها. كانت تستحق ذلك. هذا عقاب أمثالها عندنا».

ويلمحه سليمان وهو يختفي عند المنعطف بقامته الشاهقة وثيابه الرثة وجمجمته الضخمة وعينيه الطريفتين النافرتين من محجريهما. ولا يدري لماذا تسري في جسده رعدة خوف كما لو كان قد التقى بساحر حقيقي!

١٩٩٤/٩/٦
الساعة ١,١٧ ليلاً

المؤامرة على بديع!

ألستَ أنتَ مستقبـل الذكـريات
المختزنة في أعماقك؟
أليس المستقبل هو الماضي؟
ڤاليري ـ ١٩٤٢

عشق المرء لذاتـه بدايـةُ حكايـة
حب تدوم العمر.
اوسكار وايلد

إذا كان ثمة بديل عن الحب فهو
الذاكرة. أن نتذكر إذن يعني استعادة
الحميمية.
جوزف برودسكي

المؤامرة على بديع!

ـ أنت تعرف يا بديع أنك في خطر وقد حضرت لمساعدتك. النساء. دوماً النساء. إنهن دائماً مصابك ولعنتك وسبب خرابك.

ـ انتظرني قليلاً يا عيدب. دعني أنجز الآن هذه الحسابات، وسنتحدث طويلاً بعد ذلك.

ـ هل تظن أن بوسعك أن تهرب إلى العمل هكذا لتنجو، دافناً رأسك بين الأرقام إلى هذه الساعة المتأخرة؟

ـ هذه ليست أول مرة أبقى فيها للعمل وحيداً بعد انصراف الموظفين. لو لم أكن هكذا لما احتفظتْ بي المؤسسة حين انتقلتْ من بيروت إلى لندن.

ـ المهم أن تحفظ رأسك قبل أن تحفظ عملك يا بديع.

ـ سألاقيك يا عيدب في البار المجاور.. لا أريد أن يسمعنا أحد في المكتب أو يرانا معاً. عاملة التنظيفات سمعتنا نتحاور معاً في زيارتك الأخيرة لي ولم ترك، فأشاعت بين الموظفين أنني أتحدث مع نفسي حين أبقى وحيداً في المكتب ليلاً.

ـ لا تقلق يا بديع. سأقنعها بالسكوت ولن تزعجك بعد الآن.

ـ ربما كان من الأفضل أن تدعها وشأنها. الثرثرة هي كل ما تقدر عليه وقد آذتني وانتهى الأمر يا عيدب.

ـ أنا شقيقك التوأم يا بديع. قد أغيب طويلاً لكنني أحضر دوماً لمساعدتك. وأنت تعرف أنني لم أتخل يوماً عنك، ولم تكن يوماً في خطر إلا ووجدتني جاهزاً لخدمتك. سأنتظرك في الحانة.

ـ هل تعرف عنوانها؟

ـ أعرف كل مكان تذهب إليه. إنني ألازمك كظلك في أيام اضطرابك. إنني قوي وبوسعي أن أحميك من عالم كله غدر. والحب هو الغدر الأول، وأنا

أعني اليزابيث.

- أرجوك أن لا تلفظ هذا الاسم. إنني أحاول أن أتحاشاها قدر الإمكان فقد أنساها.

- مع النساء، الاهمال لا يجدي. إنهن يزددن تعلقاً بك وحقداً عليك في آن. إنها تعرف عنك أكثر مما ينبغي.. سنتحدث عنها في (البار)..

- لماذا لا نذهب إلى البيت ونتحدث هناك في أمان طوال الليل دون أن يرانا أحد معاً أو يسمعنا؟

- لأن علينا أن نقوم بزيارة إلى اليزابيث قبل الذهاب إلى البيت. علينا أن نقنعها بالسكوت ونسيان كل ما تعرفه عنك وهو كثير. لقد ضعفتَ أمامها وبحت لها بأسرارك، وهي على وشك استغلالها ضدك.

- آه كم تألمت منها ومن سواها ومن المؤامرات التي تحاك ضدي. أشعر أنني قضيت عمري وأنا أقفز من فخ إلى آخر، وحيداً ومجروحاً، وما أكاد أرمم جرحاً حتى ينزف آخر.. إنني مكسور القلب والروح لا ملاذ لي.. وحدك تحس بعذاباتي وتأتي لمساعدني...

- إلى اللقاء في (البار)..

- سألحق بك.

بعد نصف ساعة، يغادر بديع مقر الشركة بعدما جمع أوراقه بعناية خاصة ووضع كل ورقة في مكانها ومسح الغبار عن طاولته للمرة العاشرة ذلك المساء.

التقى بعاملة التنظيف فلم يلق عليها تحية المساء. يشعر بأنها تراقبه ويتضايق منها. في المصعد الفارغ يمسح بمنديله بعضاً من الغبار عن المرآة وهو يتحاشى النظر إلى صورته في قعرها.

يغادر المبنى ويمشي صوب الحانة. إنه الغروب. اللحظة التي يخافها ويختنق فيها. **(أمي كانت تخاف الغروب أيضاً. حين كنت أعود من المدرسة وقت الغروب كانت تضمني إلى صدرها الدافىء ونحن نحدِّق في البحر ولا تزجرني كعادتها لأني وسَّخت ثيابي بالطين وأنا ألعب، وتفوح من رقبتها البيضاء النظيفة رائحة الصابون وكولونيا «جان ماري فارينا». وأنا سعيد باحتضانها لي**

وقد تلاشت غيرتي من عمو أبو رمزي وعمو أبو مروان وعمو أبو طانيوس وغيرهم من أعمامي الذين لم أسمع بهم لكنهم ظهروا بعد موت أبي وصاروا ينامون عند أمي لحراستنا كل بدوره. أما أعمامي الحقيقيون فلم يأت منهم أحد وقالت أمي إن الحرب تطحن الجميع وعلى كل واحد تحصيل رزقه بشطارته ولا أحد يساعد الآخر في أيام كهذه، وصار أولاد الحي يسخرون مني في المدرسة ومن ثيابي الفاخرة ويلمّحون إلى أشياء يدّعون كاذبين أن أمي تقوم بها.

قال لي ماهر: أمك... «كذا».. لو كنت مكانك لقتلتها.

عدت إلى البيت ولم أجدها. كان الوقت غروباً. اختنقت وصرت أبكي، لكن قطتها الصغيرة لم تتوقف عن المواء فأمسكت بها وأنا أحاول اسكاتها. جاء عيدب وقال إنه سيفعل ذلك عني وأحاط عنقها بيديه وشد عليه طويلاً فسكتت، ولا أدري لماذا أخفاها في البراد داخل طنجرة الطعام التي أعدتها أمي في النهار لعمنا الآتي في الليل.

حين شاهدتها أمي صرخت مذعورة وكان دور عمي أبو رائف للنوم عندنا فاتهمني أمام أمي بأنني قتلت القطة وكدت أقول لها إن «عيدب» فعل ذلك لكنني لم أجد صوتي، وغضبتْ هي ودافعت عني صارخة: طفل في العاشرة وتتهمه بقتل قطة؟

قلت لها وأنا أبكي إنه يداعبني في غيابها فصارت نمرة واستشاطت غضباً وطردتْه. كدت أبكي فرحاً لطرده لكنها ذهبت بي غروب الأسبوع التالي إلى مدرسة داخلية وجيهة في الجبل وقالت لي إنني هناك في أمان من الحرب وألسنة السوء التي تروي الأكاذيب عنها، وإنها لا تفعل شراً بل تؤجر غرفة والدي مفروشة لتجمع المال ولتعلمني في أفضل الجامعات بعدما كانت تركة الوالد بعض الديون.

كانت تحدثني في التاكسي هامسة كعادتها وحين اختنقت الشمس وغطست رأسها تحت الماء دفعتها بيدي أكثر تحت الماء أكثر وأكثر، وسكين حادة تمزق قلبي.

صرت أبكي. خجلت لأنني أبكي. كرهت ذلّي أمام سائق التاكسي وأمام

الغروب والبحر البعيد والغيوم والسيارات وقطط الشوارع. وكلما ازددت خجلاً من بكائي بكيت أكثر.

تمنيت أن أكون وحيداً مع أمي في جزيرة لتخفيني في صدرها اللطيف الحنون الذي تفوح منه رائحة العطر وتحميني من قسوة الناس ولكنني دفعتها عني حين حاولت ضمّي إليها وقلت بلا صوت: أتمنى أن تموتي. وحين ودّعتها بتلويحة من يدي وهي ترجع في الظلام إلى بيروت وشاهدتها تجلس قرب سائق التاكسي كررت: أتمنى أن تموتي.

صرت كلما تذكرتها وكدت أنتحب شوقاً لحنانها أتمنى أن تموت وأتخيل نفسي وأنا أدفنها عارية في حفرة وأهيل عليها التراب حتى أطمرها ثم أبكي طويلاً وأنا أحن إلى ضوء القمر الذي كان يهطل من عينيها حتى قاع روحي.

حين جاءت الناظرة وقالت لي وهي تضمني إلى صدرها على غير عادتها إن أمي ماتت برصاصة قناص دفعتها وانطلقت هارباً وأنا أبكي: لقد قتلتها. أنا الذي قتلتها حين تمنيت بإخلاص موتها ولم أصدق بالطبع ما زعموه من قتل أحد عشاقها لها. لم يكن لها عشاق وأنا قاتلها).

يمسح بديع الدموع عن عينيه. يدخل إلى الحانة. يجلس إلى مائدة منعزلة في شبه ظلمة منسدلة من مصابيح بخيلة.

يطلب كأسين من (الكونياك). يتعجب النادل لأن الرجل وحيد وطلب (الكونياك) لشخصين في كوبين مختلفين.

يدمدم بما معناه أنه شاهد الألوان كلها في هذه الحانة.

بعد وصول (الكونياك)، ينضم عيدب إلى بديع.

- إنك تبكي يا بديع. كان جرحك بأمك نائماً وجاءت اليزابيث اللعينة وأيقظته.

- لعلك تتحامل عليها يا عيدب. لقد أحببتُها لجمالها وبراءتها واحتميت بضوء شقرتها من لحظات الغروب الموحشة. كالفراشة المشعة كانت تتنقل في المكتب وتنقل إليّ الأوامر والاستفسارات كأية سكرتيرة إدارة جادة.

- منذ البداية كانت تتآمر عليك. ألم تتساءل لماذا اصطفتك وحدك من بين

الموظفين الوسيمين كلهم وخصّتك باهتمامها؟

ـ أحبّتْ ملامحي العربية ولفتها أنني لم أتحرش يوماً بها عكس الشائع في لندن عن الرجال العرب. هذا ما قالته لي على الأقل.

ـ ولكنك تعرف جيداً أنها صارت تتجسس عليك بعدما وثقتَ بها. تتنصّت إلى مكالماتك الهاتفية بمعونة صديقتها عاملة الهاتف، وتحصل على عنوان بيتك بصفتها سكرتيرة المدير، بل وتأتي إلى منزلك دونما سابق إنذار ليلاً لكشف أسرارك.

ـ صحيح. تلك الزيارة أثارت شكوكي.

ـ كانت حياتك يا بديع قبلها تكاد تبدو عادية. عمل عمل ثم هدوء في بيت منعزل وعلاقات مع عاهرات جميلات في أوقات متباعدة وفي ظل صمت متبادل لا يتهدد أسرارك، وصلات أخرى مع ذكور الحانات الخاصة بذلك دون أن تلتقي بأحد مرتين كي لا تترك للخصم فرصة التسلل إلى أسرارك.

حتى تقاذفتك رياح اليزابيث حين تورطت في لحظة وجد، وقلت لها إنك لا تريد أن تمتلكها إلا بعد الزواج وتريدها أن تبقى عذراء... فأفهمتك أنها ليست عذراء وأنها سيدة محترمة بمقاييس مجتمعها وليست عاهرة لكنها أيضاً ليست عذراء.

ـ أجل. ضحكتْ من سذاجتي يا عيدب وأفهمتني أنه ليس من السهل أن أجد في لندن شابة في سنها وعذراء إلا إذا كانت مريضة أو بحاجة للعلاج عند طبيب نفساني. وأردفتْ بفخر أنها ليست كذلك وإلا لتعالجت عند ابن عمها ادوارد الطبيب النفساني!

ـ وحين رفضتَ يا بديع أن تمتلكها صارت تتصرف وكأنها تمتلك روحك وتحصي عليك أنفاسك وتحاول اكتشاف أسرارك. أثار فضولها رفضك لجسدها رغم معرفتها بأنك تتردد على بائعات اللذة. أنت تعرف أنها صارت تحاصرك وتراقبك.

ـ هذا صحيح وقد أثار ذلك مخاوفي. كانت تحاول سبر أسرار أعماقي، وتتجسس حتى على أخبارك يا عيدب بعدما حدستْ حضورك في حياتي أو هكذا

خيل إليّ. . . صارت تدس وجهها في منعطفات روحي وتحاول فتح الغرف المعتمة المقفلة في دهاليز قلبي. وكنت أريد أن تظل حياتي سراً في زواج يقوم كل منه فيه بمهمته: هي تنجب الأولاد وتتفرغ لهم وللطبخ وللجارات والتفاصيل النسائية وأنا أعيش حياتي الرجولية بلا رقيب.

ـ كان بوسعك ذلك لو تزوجت شرقية تمَّ ترويضها من أسرة محافظة تحسن تربيتها. الخطأ بدأ حين حاولت أن تعامل اليزابيث كما لو كانت فطومة بنت الجيران البيروتية الصغيرة الخجول.

ـ بدت لي بوجهها البريء الساذج شبيهة بفطومة، ولعلي كنت سعيداً بحبي العذري الكبير لها ورفضت أن أفهم شيئاً آخر.

ـ إنها اليوم تشكل خطراً على سلامتك يا بديع ولا بد من التخلص منها. صارت تعرف عاداتك الصغيرة كلها ولن ينقضي وقت طويل إلا وتصير تلك المعلومات مثار تندُّر في المكتب وقد تفقد عملك بسببها وتضطر للعودة إلى بيروت بل وإلى المصح ويسخر منك أصدقاء الطفولة من جديد بسبب أمك. الناس في بيروت لا تنسى، بل تستعمل الذاكرة أداة أذى حين يكون الأمر مناسباً لمصالحها. . .

ـ ولكن ما الذي تستطيع اليزابيث أن تقوله عني؟

ـ حسناً إنها لا تعرف أدق التفاصيل. لا تعرف مثلاً أن مؤامرة كبيرة تتهددك وتضطر معها للحذر. وأنك لا تأكل المعلبات خوفاً من تسميمها خصيصاً لقتلك. وتشتري خضرتك بنفسك وتعقمها مرات ثم تغسلها جيداً. وأنك لا تأكل في المطعم ذاته مرتين ولا تشرب في الحانة نفسها أكثر من مرة في الشهر، كي لا يرشو أعداؤك الكثر النادل ويسممك. فأنت عظيم وهم يتآمرون عليك لأنك كذلك ويضطهدونك. حتى ثيابك الجديدة تغسلها قبل ارتدائها خوفاً من أن تكون مسممة بيد الأعداء.

ـ . . . . .

ـ لعلها تعرف مثلاً أنك تخاف النمل والصراصير وتحرص على إبادتها في بيتك وتخزن الطعام والماء كأنك محاصر وتكره أن يلتقط لك أحد صورة أو يحتفظ أحد بصورتك وتجفل كلما رنَّ الهاتف في بيتك. تعرف أيضاً أنك حريص على

النظافة. تغسل يديك عشرات المرات في اليوم وتحتفظ بزجاجة الكحول الطبي في مكتبك لتعقيمهما كلما سنحت الفرصة أو صافحك مخلوق. تمسح غبار طاولتك عشرات المرات في اليوم وغبار مكتبها أيضاً دونما انتباه وأنت تحدثها. تعرف أنك بلا أصدقاء إلا التلفزيون ولعلها تجدك زوجا مثاليا بسبب ذلك.

ولكنها لا تعرف أنك تخلصت من سيارتك لا لأنها تعطلت وتكاليف تصليحها تكاد تفوق ثمنها كما ادعيت أمامها بل لأن الأعداء قاموا بتخريبها خوفاً من عظمتك.

- ......

- إنهم يضطهدونك لأنك أفضل منهم، ويعرفون أن المجد ينتظرك. وحسناً تفعل حين تجمع في بيتك كل ورقة بخط يدك، أو وصلتك، فكلها ستصير ذات يوم في متحف.

- ......

- اليزابيث لا تعرف ذلك كله، لكنها تجسست على أشيائك في البيت وأنت تعدّ لها القهوة، وشاهدت الحقيبة الصغيرة التي تحتفظ بها دائماً إلى جانب سريرك وفيها جواز سفرك ونقودك وبطاقات الائتمان وبعض الثياب للهرب سريعاً إذا داهمك الأعداء وحاولوا إحراق بيتك، أو حدستَ أنهم قادمون لاغتيالك.

- ......

- بوقاحة متناهية فتحت الحقيبة وسألتك هل أنت مسافر واضطررت للادعاء بأنك ذاهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في برايتون، وعرضَتْ مرافقتك وزادت من حصارها عليك مدعية حبك فضاق صدرك وكدت تختنق وشعرت بالصداع، الذي لم تشعر به منذ أيام المصح في لبنان، يشطر رأسك من جديد إلى نصفين.

لكنك لم تقل لها شيئاً وتابعت هي الثرثرة وسألتكَ عن سر الضريح في الغرفة المحرمة وشعرتَ برغبة في خنقها كي تصمت ولم تجرؤ وكان عليَّ أن أكون إلى جانبك لأساعدك على الخلاص منها، واعترف أنني كنت حائراً ليلتها لا أدري ما سأفعله في مأزقك هذا. لم أقتلها إذ خفت أن يكون أحد على علم

بزيارتها لك.

- . . . .

ـ كان من الخطأ أن تصطحبها إلى قلعتك يا بديع أو تفتح لها الباب حين داهمتك وجاءت بلا موعد.

ـ لم يكن بوسعي أن أقول لها إنني مرضت، قبل حضوري إلى لندن، بالأوجاع ذاتها وكل ذلك لأنني قبلتُ يومها فكرة الزواج من إحدى قريباتي إذعاناً لرغبة جدتي وهي المقيمة معي منذ موت أمي وسفرك الطويل. كم توجست شراً من تلك الزيجة وخفت من «المؤسسة المخابراتية» الملقبة بالزواج. وحين زرتني بعد طول غياب وحذرتني من الخطبة لأن جدتي لا تعرف أن قريبتي هذه تم تجنيدها ضدي، صرت أحلم كل ليلة أنني أخنقُ تلك الخطيبة كما خنقْتَ أنت القطة.

وحين داهمني الصداع المؤلم ذهبت وشكوت أمري إلى جارنا الدكتور الراجاك، وكان حنوناً وطيباً وقال لي إنني مريض وبحاجة إلى الراحة في المستشفى ونصحتني جدتي بأن لا أقول لأحد إنني ذاهب إلى المصح لأرتاح قليلاً. فالناس في حيِّنا البيروتي قساة وسيقولون إنني مجنون ويشيعون الأقاويل عني. هناك في المصح تركني أشارك في زراعة الأزهار والرسم. كنت أقضي معه جلسات علاجية لطيفة بعد أن يحقنني بإبرة خاصة، وقال لي مرة: أنت محظوظ يا ابني لأنك صارحتني بأوجاعك. أنت مكسور الروح وهذه ترجمة عبارة «شيزوفرانيا». لست مجنوناً ولكن بوسعك أن تكون عنيفاً. لا أنصحك بالزواج الآن، ريثما يكتمل علاجك.

فارقتني أوجاعي وكنت على وشك العودة إلى عملي كما وعدني الدكتور الراجاك حين مات الرجل فجأة بالسكتة وأنا اعتقدت أن أعدائي قتلوه لأنه صديقي وجعلوا الأمر يبدو موتاً طبيعياً. وساءت معاملة الممرضين لنا وحاصرت الحرب المصح فتركونا نهرب لأن أرملته كانت تريد بيع المبنى والسفر، فلم أتابع علاجي بعدها وهربت من المصح.

ـ لم تكن تريد الهرب يا بديع. . أنا ساعدتك على الهرب وجررتك مرغماً من سريرك. هل تذكر؟ جئت فوجدتك تبكي حزناً على الدكتور وتجهل أنه جزء

من المؤامرة على عظمتك حيث قام بترويضك بالمحبة والخبث كما فعلت اليزابيث بك. أعداؤك قتلوا الدكتور الراجاك فيما بعد كي لا يبوح لأحد بسر المؤامرة عليك.

ـ . . . .

ـ لم تكن يا بديع بحاجة إلى علاج . .

ـ . . . .

ـ كنت بحاجة إلى السفر والحرية وتبديل مناخ لبنان إلى مدينة لا يراقب الناس فيها بعضهم بعضاً ويقومون بعمليات الخنق تحت ستار المحبة، وهو ما تفعله اليزابيث بك الآن.

ـ لقد استجوبتني عن سر الضريح يا عيدب . . وارتبكت ثم قلت لها إن فناناً كان يقطن البيت قبلي هو الذي شيده في غرفة أمه بعد موتها، لكي يُخرج الضريح من قلبه . . وكانت هذه الغرفة مرسمه . . ولم أقل لها شيئاً عن مهندس الديكور الذي تعجب من رغبتي في النوم على سرير مشيَّد بهيئة قبر.

ـ وادعيتَ أن الصورة المعلقة على الجدار لأمنا هي لأم ذلك الفنان، وأنك تأثرت بوفائه وأحببت أن تترك كل شيء على حاله في الغرفة وتتخذها مرسماً حين تجد الوقت لذلك وتستوحي بعض الرسوم من ذلك الوفاء النادر.

ـ لم أدر ماذا أقول لها. لكن إسكاتها بخنقها وإخفائها في البراد كما اقترحتَ لم يكن ممكناً، كما فعلتَ أنت مرة بقطة أمي.

يقهقهان للذكرى ويتابع عيدب: لم تصدقك اليزابيث تماماً. لقد تركها ذلك حائرة، ولم تعد تضايقك بأسئلتها. تركتك تتنفس وكدت يا بديع ـ وقد عذّبك إعراضها المهذب عنك ـ تعترف لها بالحقيقة وبأنك جئت إلى لندن ونصف الثياب في حقيبتك يخص أمك.

يقهقه بديع بصوت عال ويقول: ليتك كنت معي يومئذ لترى وجه ضابط الجمارك الذي فتش حقيبتي فوجد نصفها مليئاً بالثياب النسائية. ظن الملابس لي ولم يعرف أنها لأمنا لكنه لم يقل شيئاً فهو يرى الكثير من الحقائب وليس في القانون البريطاني ما يمنع رجلاً من حمل صورة قديمة لامرأة جميلة وملابس نسائية

عتيقة مع ثيابه! أريته عقد العمل وبقية الأوراق الرسمية فتركني أمر.

ـ ولكنه لم يكن مخطئاً في حدسه فأنت ترتدي هـذه الملابس بـين حين وآخر. . .

ـ ما تزال رائحة أمنا فيها.

ـ وتشتري المزيد منها.

ـ أشتريها لأمنا وليس لي.

ينادي بديع النادل. يطلب منه كأسين جديدين من الكونياك.

ـ . . وكعادتك كلما اشتهيت اليزابيث ولم تقربها، ذهبْتَ في اليوم التالي إلى عاهرة. عرّضت سرك للخطر لو لم أتدخل في الوقت المناسب وأنقذك. .

ـ يخلعن ثيابهن عادة بصمت، ومثلي يرغبن في الانتهاء من الأمر بأسرع وقت. لا أدري لماذا كانت تلك الوغدة تريد الحوار. سألتني عن حياتي العاطفية وهل أنا متزوج أم لا، ثم وعيت أنها جاسوسة من أعدائي تريد هلاكي. وحين سألتني عن أمي أردت فقط إسكاتها وحشوت فمها بمنديلي وضربتها. لم أكن أريد أن تتحدث امرأة كهذه عن أمنـا. . أردت ارتداء ثيـابي بسرعة ولكنهـا انتزعت المنديل ورفعت سماعة الهاتف لتكلّم البوليس وتشكوني. . .

ـ لو لم أتدخل يا بديع لوجدْت نفسك في ورطة. لكنني دوماً أحضر في الوقت المناسب. تركتك تدخل إلى الحمام لتغتسل تحت الدوش ولففت هذه المرة ربطة عنقك حول عنقها ولم أتركها إلا حين لم يعد بوسعها أن تقول كلمة ثانية عن أمنا. . . أو أسرارنا. .

ـ لقد ذهلتُ حين غادرتُ الحمام ووجدتها مخنوقة. والغريب أنني كنت أحلم وأنـا أستحم بأن شخصـاً يخنقها كـما لـو كنت معهـما وشـاهـدت أدق التفاصيل. وضحكت طويلاً في اليوم التالي وأنا أقرأ في الصحف دهشة المحقق لأن القاتل اغتسل بعدما قتل العاهرة كما استدل من آثار الحادث!. . لم يخطر بباله أننا اثنان!. .

يصمت بديع حين يضع النادل كأسيْ الكونياك، ويراه وهو يحـدِّق فيه بذهول ثم يمضي كما لو لم يعد ثمة ما يدهشه.

يشعر بالخطر وبأنه بحاجة إلى حسم الموقف ومغادرة الحانة ويقول: ماذا تريد مني الآن يا عيدب؟

ـ أعتقد أنه لا بد من اسكات اليزابيث؟

يفكر بديع طويلاً ويقول: بل المهم أولاً إسكات الطبيب ادوارد، ابن عمها الذي استطاعت توريطي معه.

ـ لا بد من إسكاتها معاً يا بديع. وسنبدأ باليزابيث قبل أن يتصل بها ادوارد محذراً إياها منك بحجة طلب معلومات عنك.

ـ أجل. سمعت بأذني أنه سيفعل ذلك. ولكن الذنب ليس ذنب اليزابيث. لقد بدأ الخطأ حين خنقتَ أنت يا عيدب تلك العاهرة في اليوم التالي لغارة اليزابيث على بيتي. لقد أُصبتُ بعد قتلك لها بوجع يشطر رأسي إلى نصفين، وصرت أسمع أصواتاً تتشاجر داخله وتكاد تمزقني كلي إلى اثنين. غيبوبة. دوار. قيء. انهاك، وبكاء مفاجىء في قطار الأنفاق رغم أنني أقيم قرب المكتب خوفاً من وسائل المواصلات ومن الاغتيالات...

قال الطبيب الأول أن لا مرض عضوياً عندي وأحالني إلى الثاني للأعصاب الذي أحالني إلى ثالث نفساني.

اعترفتُ بذلك لاليزابيث في لحظة هناءة ضاحكة وكنت قد دعوتها لنتناول العشاء معاً في مطعم (تورنر). وبعد أن دفعتْ هي ثمن ما أكلته وتقاسمنا الفاتورة بحت لها بأوجاعي مبرراً فتورنا السابق وعلاقتنا المتأرجحة بين مد وجزر واقترحت عليَّ الذهاب إلى ابن عمها الطبيب النفساني الذي سيعتني بي ولن يجعلني أنفق الكثير ما دمت مُرسلاً من قبلها.

أغراني ذلك وأنت تعرف مدى حرصي على مالي حتى إنني لا أصادق أحداً كي لا أنفق جنيهاً على سواي وذهبت.

بعد امتحانات غامضة طويلة عجيبة غريبة لم أمر بمثلها عند الدكتور الراجاك ورسوم عليَّ القول بماذا توحي لي دونما أية أسئلة مباشرة، وحقن علاجية تسبق جلسات عديدة كنت أتحدث خلالها عن نفسي بسرور حتى دون أن يطرح عليَّ الأسئلة، ودَعني الطبيب قائلاً إنه سيتصل بي ثانية ورفض أن يتقاضى أجراً

وفرحت حتى إنني نسيت منديلي على طاولته وكنت أمسح عنها الغبار من وقت إلى آخر ونحن نتحدث.

في المصعد تذكرت ذلك. عدت إليه لاحضار منديلي ويا هول ما سمعت...

يقطع بديع حديثه وينادي النادل طالباً كوبين آخرين من الكونياك المزدوج. ثم يتابع بصوت ارتفع قليلاً: حين عدت وجدت الوغد يتحدث عني مع زميل له.

- اخفض صوتك قليلاً يا بديع...

- يا عيدب.. لم يكن الوغد يتوقع عودتي وغياب سكرتيرته - ربما في الحمام - فسمعته يقول لزميله عني: هذا مريض بانفصام الشخصية بوسعه أن يكون عنيفاً جداً. لولا السر المهني لاتصلت الآن بابنة عمي اليزابيث أحذرها منه فهي في خطر. الحمقاء قالت إنها سترسل لي خطيب المستقبل، ولكنه قد يكون قاتل المستقبل. إنه بحاجة إلى علاج.

أجابه زميله: «ليس بمقدورك أن تفعل أي شيء. القانون لا يبيح لك إدخال شخص في المصح دون إرادته ولا إفشاء السر المهني حتى لابنة عمك».

يضع النادل كأسي الكونياك. يطلب من بديع تسديد الفاتورة. يفعل دونما تردد ويترك بخشيشاً كبيراً على غير عادته. يريد التخلص من النادل ليتابع حواره المهم مع عيدب... يريد أن يخبره بكل ما قاله الطبيب (اللعين) ادوارد عنه حين كان يسترق السمع.

يقاطعه عيدب: أعرف ما حدث. كنتُ إلى جانبك ومنعتك من البكاء على السلم. هل تذكر؟ أنت تبكي كثيراً. تبكي أمام النساء وهن يتوهمن ذلك ضعفاً فيشددن من قبضتهن على قلبك ويغرسن فيه أظافرهن الخناجر. هيا بنا نخرج من هنا، فالنادل يحوم أكثر مما ينبغي حولنا وقد يكون جاسوساً آخر.. يجب أن نأخذ حذرنا..

- ولكنني متعب. لم يعد بمقدوري الوقوف. رأسي يتمزقِ إلى نصفين. وثمة من حمل فأساً وهو يضربني به ليشطرني بلا رحمة...

ـ لا تقلق يا بديع. سنصلح معاً العالم ونخلّصه من شرور النساء. . . ولكن لا تدع ضعفك بعد اليوم يودي بنا. . . علينا أن نصير واحداً متماسكاً. . . لا تتنصل مني بعد الآن ولا تهرب، قدرنا أن نكون واحداً. .

ـ سأحاول. . لكنني متوجع ضعيف ومتعب. . .

ـ كل شيء يخون المرء حتى جسده. . هيا جرّه خلفك ودعنا نغادر هذا المكان.

يخرج بديع من الحانة. يقول النادل لزميله: إنه هنا منذ ساعة يبتلع الكونياك ويثرثر مع نفسه!. . .

يجيبه الآخر: أهذه أول مرة ترى فيها رجلاً يتحدث مع نفسه يا رجل؟ ألا تفعل ذلك بنفسك مرات؟

يمشي بديع صوب بيت اليزابيث. . ينهار على المقعد العمومي المقابل لنافذتها في ساحة تتوسط الشارع.

ـ يجب أن تصعد إليها يا بديع وتسكتها تماماً لمرة واحدة.

ـ لا أستطيع. إنني متعب ومريض والعالم يتآمر عليَّ ويذلني ويهينني منذ كنت محشوراً في جسد طفل.

ـ حسناً. دعني أتولى الأمر. أنت تثق بي، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد.

ـ إذن نم على المقعد هنا، ودعني أقنعها بالصمت بالنيابة عنك.

يتمدد بديع على المقعد العمومي في الساحة التي تتوسط الشارع والغروب يسقط فوق صدره بلا رحمة. يتذكر أمه والتاكسي في الطريق إلى المدرسة الداخلية. . . يتذكر أشياء كثيرة غامضة مشوشة موجعة ثم يغمض عينيه وينام.

يحلم بأن عيدب ينهض عن المقعد ويقول له إنه سيفعل ما عليه أن يفعله، ويمشي صوب غرفة الهاتف العمومي في الشارع. ويتصل هاتفياً باليزابيث التي تقول له بصوتها العذب: أهلاً بك. سأفتح الباب. ولكن ابن عمي الطبيب

ادوارد سيحضر أيضاً بعد قليل. قال إنه يريد أن يتحدث معي عنك. يريد أن يسألني عن أشياء تخصك. لماذا لا تجيبه بنفسك؟

ـ سأفعل يا حبيبتي. وسأطلب يدك منه. عندنا لا بد من طلب الإذن من ذكور الأسرة قبل مضاجعة الحبيبة وامتلاكها.

تكرر ضاحكة: ستضاجعني ولن تمتلكني! الأمور هنا تجري على نحو آخر. هيا اصعد. سأفتح لك الباب.

يستيقظ بديع في سريره، في بيته، تغمره السعادة. يقول: إذن كان ذلك كله حلماً مزعجاً؟

يجيبه عيدب بل كان كله حقيقياً.

فتحت لي اليزابيث الباب . ظنتني أنت ولم يدهشني ذلك إذ إنني شقيقك التوأم وصورتي نسخة عنك في المرآة كما تعرف.

قبلتها طويلاً طويلاً بعنف وشدة لا برقّة كما تفعل أنت حين تضطرك لذلك.

التهبتْ شهوةً وحلّت لي ربطة عنقي وبدأت ترغمني على خلع قميصي وقفازي ورفضت امتلاكها. كنا نتعارك وهي تضحك حين سمعت الجرس يرن وصوت ابن عمها الطبيب يكلمها عبر «الانترفون».

تركتها تجيب بأنها ستفتح له الباب ثم فعلتُ ما يجب أن أفعله بسرعة وقمت بإسكاتها جيداً كما فعلتُ مرة بالقطة. وبعدما خنقتها استعدت من عنقها ربطة عنقي وجررتها إلى المطبخ ولم يتسع الوقت لي لأضعها في البراد إذ قرع الباب ابن عمها ادوارد.

تركتها مكانها. فتحت له الباب. دخل. فوجىء بحضوري وغيابها. خاف. حاول إلهائي بحوار مصطنع وهو يقترب من الباب مضمراً الهرب.

صرتُ أقترب منه وهو يرتجف لكنه يحدثني بصوت هادىء قائلاً إنه يريد أن يساعدني وإن بوسعي الخلاص من عيدب الذي يضايقني. ويبدو أنك قلت له ما لا تعنيه تحت تأثير حقنته حين كان يسرق أسرار روحك ثم يقوّلك ما لم تقله.

قلت له إنني لا أريد الخلاص من عيدب لأنني عيدب، فأعطاني ملفاً كان يحمله بيده وقال إنه ملفي الطبي وبوسعي أن آخذه وأنسى كل شيء عن الأمر.

غضبت من انضمامه إلى أعدائنا وفوجئت بمسدس في يده وبحركة سريعة حوّلته عني وألصقت فوهته برأسه وانطلقت رصاصة. سقط على الأرض ميتاً. بسرعة حللت ربطة عنقه قبل أن تتلطخ بدمه وأخذتها وأحطت بها عنق اليزابيث كما لو خُنقت بها، وضحكت طويلاً وأنا أغادر المكان وأتخيل ما يمكن للبوليس أن يستنتجه!.. سيظنونه قتلها وانتحر. خنقها بربطة عنقه ثم أطلق الرصاص على رأسه. ولم لا؟

لم أترك بصمات خلفي فقد كنت أرتدي قفازاً أشكرك لأنك اشتريته خصيصاً لي. المهم، أنني هبطت بسرعة على سلم الحريق الداخلي في المبنى كي لا التقي بأحد في المصعد وغادرت المبنى الكبير وعدت بك وبالملف الطبي إلى البيت. وعليك الآن أن تذهب إلى المكتب وتتلقى التعازي في خطيبتك اليزابيث.

ألم تكن تدعي أمام الجميع أنك خطيبها كوسيلة للسيطرة عليك وإبعاد النساء اللطيفات عنك؟ كن هادئاً. وبعد فترة مناسبة تُبدّل المدينة..

بديع لا يجيب ولا يسمع جيداً ما يقوله عيدب إذ يتابع ركضه داخل دهاليز رمادية كالغروب تفوح منها رائحة كولونيا غابرة.

يرتدي عيدب البزّة السوداء المفضلة للحداد لدى بديع، ثم يبدلها إلى أخرى رمادية. من المهم له أن يلعب دور من فوجىء بالنبأ المؤسف.

في طريقه إلى المكتب يشتري صحيفة الصباح ولا يرى صورة اليزابيث في صفحة الجرائم. يغيظه ذلك!

تأتي زميلة وتقدم إليه التعازي وتناديه باسم بديع. يكاد يقول لها إنه عيدب وليس بديع ولكنه لن يتخلى عن شقيقه التوأم الذي يرتجف في فراشه حزناً وذعراً. يسمع همسات عن صلة اليزابيث بابن عمها الطبيب وكيف وجد البوليس جثتيهما معاً. يعزيه آخرون. وحتى ابنة المديرة الوحيدة التي لم يتنبه إليها من قبل تعزيه بكل جمالها وخواتمها الماسية. يهمس عيدب لنفسه: كم هي فاتنة!

ها هم الأعداء يحاولون دس عميلة جديدة في حياة بديع، لكنني لن أدعها توقع به ولن تنجح في التسلل تحت جلده وخلخلته حتى ولو قبل الزواج منها للسيطرة على الشركة بعد موت والدها. يكيد الأعداء لبديع ولكنني دوماً أكيد لهم أيضاً منتصراً بعظمتي على اضطهادهم.

حين يغادر عيدب المكتب يمر ببائع الأزهار، ويرسل اكليلاً لمأتم اليزابيث باسم بديع. ثم يمر ببائع آخر ويرسل اكليلاً ثانياً للمأتم باسم عيدب. يبتسم بخبث لهذا الخاطر: «لن يلحظ أحد ـ حتى البوليس المحقق ـ أن اسم عيدب بالعربية هو اسم بديع مقلوباً، لأنه يُكتب بالانكليزية على نحو آخر». يغمره سرور هائل لأن المحقق سيكون عاجزاً عن حل اللغز، فهو أكثر ذكاءً منهم جميعاً، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم!...

١٩٩٤/٨/٢٨
الساعة ٢,٢١ ليلاً

سجّل: أنا لست عربية

الموتى أحياء غالباً في نظرنا كبقية الأحياء، كل ما في الأمر أنه ليس بوسعنا اقناعهم بذلك. بوسعهم أن يأتوا إلينا، ولكن - ريثما نموت - ليس بوسعنا الذهاب إليهم.

أن يكون المرء ميتاً يعني عجزه عن استيعاب معنى أن يكون المرء حياً.

صموئيل باتلر - ١٩١٢

كل ما ينساه المرء يصرخ في نومه: النجدة!

الياس كانيتي

أنهض من نومي وأقول وداعاً للناس الذين لن ألتقيهم ثانيةً.

بيتر بورتر

سجّل: أنا لست عربية!

يوقظني الرنين الملحاح لجرس الباب.

أضيء النور. أجد الساعة تشير إلى الثالثة والثلث فجراً.

لا أحد يزورني عادةً في هذا الوقت المتأخر من الليل. أنهض نصف مذعورة، فأنا أعيش وحيدة. أحدّق عبر منظار الباب. أرى غلوريا. تبدو خائفة. تقرع بيدها على حديد بابي المصفح دون أن ترفع اصبع يدها الثانية عن زرّ الجرس.

أفتح الباب قفلاً بعد آخر. تدخل مذعورة. ترتمي على أقرب مقعد إلى الباب وهي تسألني: هل تؤمنين يا سيدتي بوجود الأشباح؟

كانت مفاجأة حقيقية.

أن توقظني عاملتي المنزلية التي تزورني مرتين في الأسبوع لتنظيف البيت لتسألني في الثالثة والثلث فجراً إن كنت أؤمن بالأشباح أم لا. لم أدر ماذا أقول لها بعدما استقرت هكذا على أحد المقاعد منهكة دون أن تنتظر أن يأذن لها أحدٌ بذلك في مدينة لا تعتبر رفع الكلفة عادةً مألوفة!

أقطّب وجهي وأحاول أن أعبّر بصمتي عن أقصى حالات الاستنكار. يبدو أنها لا تراني إذ تكرر سؤالها بنبرة محمومة ودموع بدأت تتدفق من عينيها وتغطي وجهها: أرجوك أن تقولي لي يا سيدتي. هل تؤمنين بوجود الأشباح؟

ـ هل أيقظتني في هذا الوقت لنتحدث عن الأشباح؟

ـ سامحيني يا سيدتي. أنا خائفة..

ترتجف.. ترتجف..

أقترح عليها أن نبحث في الأمر صباح اليوم التالي على أن تعود إلى شقتها (الاستديو) في الدور الخاص بالعاملين في ناطحة السحاب التي أقيم فيها وتنام. تبكي متوسلة كي أدعها تقضي هذه الليلة فقط على الأرض الخشبية للمدخل

(الباركيه) لأنها مذعورة ولا تجرؤ على العودة إلى شقتها المسكونة بشبح.

تبدي دهشتها من وجود شبح في (الاستديو) وتقول إنها كانت تظن الأشباح لا تسكن إلا القصور الأثرية ولا تأتي إلا للناس المهمين. لم أقل لها إن الأدب والسينما الأميركية والتلفزيون تروج هذه الأكاذيب عن أشباح عنصرية طبقية، وكأن للأثرياء والأميرات والنبلاء وحدهم أشباحاً أما البسطاء فلا.. إذ قدّرت أن الوقت غير ملائم لمحاضرة عن الأشباح التي تقيم حتماً في الخيام أيضاً.

أسألها نصف ساخرة: هل تتحدثين عن شبح يخرج من صندوق عتيق مثلاً ولا يأتي إلا في الظلام ويرتدي الملاءات البيض أو أغطية السرير ويكمن لك تحتها أو ينوح في الدهليز ويحاول قتلك أحياناً كاشفاً عن هيكل عظمي تتوجه جمجمة ناطقة مقهقهة بصوت كالرعد، ويهرب مع صياح الديك؟ منتحبة تجيب: أتحدث عن شبح أسمع صوته داخلي. شبح كان الليلة هائجاً وأخافني!.. أنصت إليها وقد استيقظ اهتمامي بشبحها مرة واحدة.. لو قالت إنه من النمط الذي يرتدي الملاءات البيض لسخرت منها، ولكنها فيما يبدو تتحدث عن شبح حقيقي أليف تعرفه ما دامت تسمع صوته داخلها.

ها أنا أدفع ضريبة أن أكون كاتبة. إنني أستدرج الناس عادةً ليتحدثوا عن أنفسهم وأنصت إليهم باهتمام على أمل سرقة روحهم في قصة أو رواية. ولكنهم يعتبرون أن اهتمامي بحكاياهم يعطيهم حقوقاً مكتسبة على حياتي فيعاملونني مثل ساحر القرية أو الطبيب النفساني، وعليَّ فيما بعد أن أنصت إلى همومهم حين يختارون حتى ولو كان ذلك في الثالثة والثلث فجراً وعليَّ أن أجد لها حلولاً حتى ولو كانت تتعلق بالأشباح.

صحيح أنني لم أنشر في حياتي كلها سطراً واحدة في الصحف أو الكتب ولا أحد غيري يعرف أنني كاتبة، لكن انصاتي الفضولي إلى حكايا غلوريا على طول أعوام يمنحها حقاً مكتسباً في نظرها (قال لي الحارس الفرنسي لناطحة السحاب التي استأجرت وزوجي شقة للإقامة فيها: سأرسل لك غلوريا لتنظف لك البيت. إنها تعمل في المبنى على تنظيف السلالم والمصاعد وتقيم في الدور الرابع المخصص لنا عمالاً وعاملات.

جاءت غلوريا، صبية جميلة في الثامنة عشرة من عمرها، يتفجر بياض بشرتها جمالاً وحيوية وترقص الشمس في شعرها الأشقر. وديعة. رقيقة. ممتلئة بالأنس الودي. لم تكن متحفظة كمعظم الفرنسيات في اللقاء الأول بل متدفقة بحرارة القلب. . وكادت تذكرني بدفء قلب ابنتي. في البداية أحبتْ كثيراً بيتي الخاوي من الأثاث، وشهقت ذهولاً أمام المنظر البديع لباريس من علٍ كما لو كانت تراها للمرة الأولى، ببرج ايفل الذي يتوسط نوافذي الشاسعة كأن جدراني كلها من الزجاج، وحين تمطر باريس يتحول المكان إلى غواصة جوية شفافة تعوم في الفضاء المائي وتبدو تحتها المدينة وديعة وهي تستحم بالضوء الشتائي الخافت.

صادقتْ غلوريا فيما بعد أثاث بيتي، واحتفت بكل قطعة جديدة تصل منه، وكانت تخاطب الأثاث الذي يعجبها برهافة كما لو كان حياً يسمع ويفرح ويحزن كالنباتات التي تدللها كثيراً. كسرَتْ وحشة الأثاث وأبهجت حياته الداخلية السرية التي قد تكون موجودة كما تظن غلوريا، كما كسرت بعضاً من وحشتي في الغربة، وصارت خلال عملها تضحك من أخطائي وأنا ارطن بالفرنسية حين اؤنث المذكر وأقول لها مثلاً: امسحي هذه المرآة. فتصحح لي: قولي «هذا» المرآة فالمرآة في اللغة الفرنسية مذكر. وأسألها: لماذا؟ فتبدو على وجهها الدهشة والحيرة. وهكذا توثقت صلتنا عاماً بعد آخر من التعاطف، وأهديتها الكثير من ثيابي المرفهة، وأنصتُّ إليها كثيراً وصمتُ كثيراً كلما حاولتْ استدراجي للحديث عن نفسي).

صوتها ما يزال ينوح: أرجوك يا سيدتي. دعيني أبقى هنا الليلة. (حسناً. ليس بوسعي طردها، لا أقوى على ذلك).

أجيب: سأعطيك غطاء. نامي على المقعد في غرفة الاستقبال وغداً نتحدث عن ذلك كله. (إنها لا تعرف بعد أننا نحمل معنا أشباحنا أينما ذهبنا، وأنها ليست حقاً آمنة أينما ذهبت وأياً كان من تحتمي به).

أتحاشى المزيد من الحوار معها. أعطيها غطاءً دافئاً.

أعود إلى غرفتي. أطفىء النور وعبثاً أعود إلى النوم.

أكاد أقهقه في الظلام. هذه المسكينة الهاربة من شبح، ألم تجد غير «بيت الأشباح» هذا الذي أقطنه للجوء إليه؟ (رن جرس الهاتف ليلة رأس السنة الأولى لوصولنا إلى باريس من بيروت، ولم تكن أسابيع قد انقضت على ذلك. جاءني صوت صديقتي الحميمة انطوانيت: ماذا تفعلان أنت وزوجك في البيت؟ تعالا للسهر عندنا.

كنا قد هجرنا بيروت معاً، ولكن صوتها بدا لي سعيداً ومستثاراً، ولذا شعرت بالغربة عنها وبالسرور من أجلها في آن.

كنت وزوجي حزينين حتى الموت، لا لأننا في باريس أجمل منفى في العالم، بل لأنه كان ما كان في لبنان... قصتنا طويلة مع الحرب قضاها زوجي بين سجن وآخر من سجون أصدقاء أنفق عليهم جزءاً من ثروته فقد ظل مؤمناً بحرية الفكر حتى في الحرب الأهلية، ولم نغادر بيروت إلا حين انتهت الحرب وانتهينا معها. كان زوجي محظوظاً لأن أحداً لم يقتله مكتفين بتعذيبه، ولكن قُتلت وحيدتنا برصاصة ابتهاج أطلقها أحدهم بمناسبة انتهاء الحرب!

لم أقل لأنطوانيت أنني وزوجي سنسهر مع شبح ابنتنا وأشباح الماضي الذي لا نعرف بعد كيف نقتلع أشجاره من حدائق قلبينا.

ادعيت أننا مدعوان للسهر في أحد الفنادق الفخمة. هكذا تقضي الأصول البورجوازية التي تربيت عليها: أن لا أشكو إلى مخلوق ولا أتذمر ولا أفسر!...).

أسمع غلوريا تتأوه في نومها. يأتيني صوتها عبر الباب تئن بصوت متقطع كمن يرى كابوساً بلا نهاية. إنها ما تزال في بداية الدرب إلى التعارف والأشباح.

في الأيام الأولى لاكتشاف وجودهم حولنا، نرفضهم، تغلبنا النظرة المتوارثة، الكارهة لهم وبالتالي الخائفة والراغبة في إنكار هذا الحضور. نظرة قد لا نتخلص منها أبداً. وهكذا نتمرد على لحظة التعارف الأولى وترعبنا فكرة الصلة الودية بيننا وبينهم.

مع الزمن نرضى بالاعتراف بحقائق كثيرة تبدو للوهلة الأولى غير عقلانية وغير مريحة منها مشاركتهم لنا حياتنا.

صلتنا بهم تشبه تلك التي قد نعقدها مع سكان الكواكب الأخرى: مليئة بمشاعر متضاربة كالخشية والعدوانية والفضول، والغيرة لأننا لسنا وحدنا في ملعب الكون، وربما الرغبة في التعارف والصداقة.

إنها الصلة مع المجهول ولكل أسلوبه في ممارستها إذا شاء الاعتراف بالآخر...

تتابع غلوريا أنينها في الغرفة المجاورة. ستتعذب طويلاً ريثما تصادق أشباحها أو ترفضهم.

أتمنى أن أنقل إليها خبرتي الطويلة في هذا المجال لكنني أعرف أن زرع أعضاء الخبرات ونقلها غير ممكن.

قد يمر وقت طويل قبل أن تكتشف مثلي أن الأشباح تملأ حياتنا عاماً بعد آخر حتى يأتي وقت يصير فيه عدد الأشباح الذين نعايشهم أكبر من عدد الأحياء حولنا.

يوم توفي زوجي قبل أشهر لم أحزن كثيراً، فقد كنت أعرف أنه سيبقى معي بعد أن يصير شبحاً، ولن يتبدل الشيء الكثير فقد كنا قد بدأنا نتحول بهدوء إلى شبحين منذ غادرنا بيروت. وربما قبل ذلك. فبموت ابنتي برصاص الابتهاج قتلوا بيتي وبقي شبحها فيه. توهمنا أن السفر سيحررنا ويحررها.. ولكن باريس كانت مكاناً مثالياً لشبحين (لطيفين) مثلنا لا يرغبان في ايذاء أحد ويريدان العيش بسلام مع شبح ابنتهما وبقية الأشباح الأخرى.

فوجئنا بباريس الجميلة مسكونة بأشباح آخرين تعذبوا مثلنا قبل موتهم وبعضهم فارق الوطن لأنه عاشق كبير من عشاق الحرية وجاء ينشد العزاء في باريس ـ الحرية.

وهكذا كنا كثيراً ما نزور البيوت التي سبق وسكنها الفنانون المنفيون إلى باريس أو الذين نفوا أنفسهم إليها ثم أحبوها كما لو كانت وطنهم الأصلي، كما نزور قبورهم لنؤنسهم.

صرنا نسمع عزف المنفيّ شوبان كما لو كان موسيقى أحزان الغرباء في المدينة...

منذ وصولنا إلى باريس قلنا إننا في إجازة للراحة ولم نكن نكذب. وبقينا سنوات وطالت الإجازة ولم نشعر بالراحة! ولكننا ظللنا نزور البيوت التي سبق وأقام فيها المبدعون الراحلون على اختلاف مشاربهم ونحب الجلوس في المقاهي التي طالما جلسوا فيها والأحياء التي تحركوا بين جدرانها.

أشباحهم ما تزال هناك تقطن نقوش الأحجار والجسور والتماثيل. صادقناها، ومع الزمن اتسعت قدرتنا كشبحين على المحبة، فصرنا نزور دورياً بيوت أولئك المبدعين كلهم الذين تعذبوا بالتأكيد وعذّبوا من حولهم وصارت لأشباحهم كثافة حضور روحي نادرة... كحضور ابنتنا!

ولكن مكان نزهتنا المفضل هو في حديقة البيرلاشيز (أعني مقبرة بيرلاشيز) الجميلة بأشجارها وتماثيلها البديعة وسكانها من أشباح المبدعين حيث كنا نجلس طويلاً على قبر شوبان ونحن ننصت إلى عزفه على البيانو اللامرئي خصيصاً لنا وبعدها يروي لنا حكاياه مع جورج صاند وضيقه من السياح الفضوليين.

وعيت أن الحالة المادية الحسنة لزوجي تسهِّل لنا مهمة التحوّل إلى شبحين بسرعة.

خفت من ذلك وقررت العمل ولم يكن ذلك صعباً، فأنا كزوجي خريجة إحدى جامعات بيروت، حيث التقينا وعشنا أنضر أحلامنا التي تكسرت كلها مع حربٍ كل منا يتنصل منها رفضاً لتلاوة فعل الندامة وعقد صلح مع ذاته، ومع رفاقٍ مات معظمهم وتشرد الآخرون.

ثم إنه ليس من الصعب أن يجد المرء عملاً إذا رضي بعدم تقاضي أي راتب وتلك حالي.

وصرت أعود من عملي كمدرّسة متطوعة لتعليم العربية لأبناء المغتربين في إحدى المدارس لأجد زوجي يتابع تحوله إلى شبح بأسرع مني. وهكذا تخلى ذات يوم عن جسده المادي ودفنته له في حديقة «البيرلاشيز» بعدما دفعت ثروة صغيرة (كخلو) قبر.

لم أشعر كثيراً بالوحشة بعد موته فقد ظل كابنتنا معي، حتى إنني ما زالت أقرع باب غرفة مكتبته قبل الدخول إليها كما كنت أفعل خلال حياته، وما زال

يرافقني في نزهاتنا المألوفة وابنتنا ويحدثني وأحدثه، بل ويداعبني أحياناً حين يفاجئني بموسيقى شوبان وهي تصدح من تلقاء نفسها من آلة التسجيل، أو يحتل في شاشة التلفزيون مكان المذيع ويداعبني بنكاته الذكية فأضحك طويلاً ثم أغير القنال، أو يستقبلني بعد عودتي من العمل برائحة عطره «آراميس» التي تفوح في غرفة نومي من تلقاء نفسها، أو يقطف لي زهرة «وزال» صفراء صغيرة رقيقة ويتركها لي على طاولة الكتابة حيث أجدها وأكاد أتهم الريح بأنها حملتها ولكنني أعرف أنها منه، فقد كان يشجعني كثيراً على الكتابة والنشر ربما لأنه يعرف حياتي الداخلية ويعرف أن كتابة القصص هي في جوهرها حياة مع الأشباح الذين نستدعيهم أو نخترعهم أو نعرفهم.

وفي نظري، الفارق ليس كبيراً حقاً بين كتابة القصص وتحضير الأرواح. لكنني لم أشعر يوماً بالرغبة في النشر وظللت أكتب قصصي بصمت داخل رأسي كالأشباح، وصرت أول كاتبة أشباح عربية. فالذين أكتب لهم يطالعونني حتى ولو لم تُنشر كتبي: إنهم ببساطة يقرأون بالتخاطر كل ما لا أكتبه على ورق!

وكنت قبل ذهابي إلى العمل أترك له ولابنتنا شبحي في البيت يسامرهما.

أليس لي أنا أيضاً شبح لعله في هذه اللحظة بالذات يطارد شخصاً ما في قارة أخرى ويمتعه ويؤلمه في آن كما تعذبني وتفرحني أشباح كثيرين أحببتهم أو كرهتهم (أو أحببتهم وكرهتهم في آن) ولم أعد أدري هل ماتوا في منافيهم أم ما زالوا أحياء؟

إن كوني حية لا يحرمني من حقي في أن يكون لي شبح. أليست للأحياء أشباح؟ أليست حياتي مسكونة أيضاً بشبحي نفسه (**الذي يقطنني ويحدثني ويتشاجر مع جسدي**) وبأشباحٍ بعضها مات، وبعضها ما زال حياً ولكن طواه الزمان واحتفظت به الذاكرة؟ أليست أعماقي متحف أشباح، تهيم في مدن توقف فيها الزمان من زمان...

أشباح المدن. أشباح الشوارع. أشباح اللحظات الهاربة. عمر أقضيه مع الأشباح، (**قال لي نواف: ما رأيك بالعشاء معي الليلة. كفاك حداداً وحزناً على ابنتك فزوجك، لماذا لا تفكرين بالحياة من جديد؟**

قلت له: لا أريد أن أتناول العشاء معك لأنك لست أصلع وليس لك شبح. لا أستطيع أن أحب رجلاً إلا إذا كان أصلع وله شبح.

كنت أعني ما أقول لكنه لم يصدقني. ظنني أتدلل.

كان ثرياً وصديق صبا لم يتح له أن يستولي على جسدي في غابر أيامنا، ولعله يريد قتل شبحي ـ في حياته ـ بالاستيلاء عليَّ، ارضاء لوجع في أناه.

ولعله يحبني حقاً كما يدعي فالحب ولد مجنون أرعن ولا منطق له. وفي باريس المزروعة بأحلى الصبايا ليس ثمة ما يمنع كهلاً ثرياً مثله من حب أربعينية (أنيقة) مثلي لا تبدو من الخارج شبحاً.

ولأنه يعرف أنني بلا أولاد عرض عليَّ مساعدته المالية ما دام لا يحق لي في قوانين ملتي أن أرث من زوجي الثري إلا بعض ماله، فطمأنته إلى أن زوجي كان إنساناً رائعاً يمارس قناعاته عملياً (وذلك سبب مصائبه وتنقله من سجن صديق إلى آخر)، وأنه أهداني كل ما يملك خلال حياته (كي لا تهاجمني غربان الهياكل بعد موته وتأكل لحمي حية لمجرد أنني امرأة ولم تنجب صبياً يحتكر ثروة والده بأكملها، وبالتالي يذهب معظم ما تعبنا في جمعه معاً من مال إلى الشقيق الذكر لزوجي)! . . . فاحتفظْ بمالك يا نواف ودعني أحتفظ بجسدي ولنظل صديقين لا أكثر!

قال لي: كيف أستطيع أن أتحول إلى «شبح» أصلع لنكون أكثر من صديقين؟

قلت له: ليس سهلاً أن يصير المرء أصلع إذا لم يكن محظوظاً بذلك إذ لا علاج حتى الآن لكثافة الشعر وليس ثمة من يحاول اختراع دواء ليصير المرء أصلع رغم جمال ذلك، ولذا لا علاج لك أيها العزيز كث الشعر!

أما كيف تصير شبحاً، فأنا أعمل على كتاب عنوانه «كيف تصير شبحاً لطيفاً».

ضحك طويلاً وقال إنني خفيفة الظل ولم أكن كذلك. كنت أعني ما أقول. حين نقول الصدق المطلق لا أحد يريد أن يصدقنا!!). . .

عبثاً أعود إلى النوم.

غلوريا تصرخ بهلع كمن أوجعه كابوس. أنهض وأمضي إليها. أشعل نور الردهة المجاورة، (لعلها تتوهم كالناس جميعاً أن الظلام هو سبب خوفها وتجهل أن دهاليزها الداخلية المعتمة هي المقر لأشباحها. لعلها تتعرف الآن عليها شبحاً شبحاً. لن يكون بوسعها مصادقتها إذا لم تعرفها. اعرف شبحك تعرف نفسك. إنها القاعدة الذهبية في نظري المكملة لـ «اعرف نفسك»!).

تئن من جديد دون أن تفتح عينيها.

أتأملها في النور الخافت. الدموع تسيل على وجهها كمن يمشي في كوكب الأحزان مغمض العينين ليرى جيداً في الظلام بعيني الروح وجسده مرمي كالخرقة في كوكبنا الرث: كوكب الظاهر الترابي العابر. . .

أتقدم منها على رؤوس أصابعي. تفتح عينيها وقد أجفلت مذعورة. أحنو عليها وأعطيها منديلاً ورقياً لتمسح به الدموع عن وجهها وأدمدم بعبارات تطمئنها وتساعدها على زيارة ولو قصيرة إلى جزيرة النسيان والسكينة.

أتأمل وجهها الذي يكاد يبدو مسناً وهي تحاول النوم من جديد وقد أغمضت عينيها. كم تبدل ذلك الوجه ولم يعد مشعاً بالصبا والأمل والفرح (عادت ذلك اليوم من إجازتها في شمال افريقيا وقد ازدهر جمالها كما لم يزدهر من قبل وقالت لي بالعربية ببساطة: لقد تزوجت من الصافي! . . . ذهلت لا لأنها تزوجت فهذا يحدث كل يوم ولكن لأنها تتكلم العربية، وأنا التي كنت أظنها فرنسية أباً عن جد.

فوجئت أيضاً بأن شعرها الذي طال يبدو عند منبته فاحم السواد كشعر العربيات وكنت أظنها شقراء.

لم تنتظر مني استفساراً بل سارعت تشرح الأمر: أنا عربية الجنسية ولدت في فرنسا وأمي فرنسية. اسمي الحقيقي زكية. أمي تناديني غلوريا وأبي يناديني زكية فهو عامل منجم في شمال فرنسا واسمي كما سجلوه يوم ولادتي زكية/غلوريا.

أمي تكلمني بالفرنسية وأبي يكلمني أنا واخوتي بالعربية. تقاعد أبي بعد إغلاق المنجم ولكن أمي رفضت أن ترافقه إلى بلده في شمال أفريقيا كما رفض

هو دائماً التقدم بطلب لنيل الجنسية الفرنسية.

تذكرت أنني كنت قد شاهدت أمها التي ما زالت جميلة وأنيقة برفقتها في مدخل المبنى، ولمحت معهما يومئذ عجوزاً داكن الملامح نخرته الأيام. لاكته كحفنة من التبغ وبصقته نحيلاً ذابلاً متآكلاً كنفاية بشرية في ثياب رثة وهو يدخن ويسعل برئة تصفّر كأنها مثقوبة. بدا لي رجلاً محنطاً منذ عصور ولكن بعينين تشعان ضوءاً مظلماً.

ذلك اليوم بدت غلوريا فخورة بأمها وحين سألتها عن العجوز تجاهلت سؤالي وتابعت تقديم أمها لي.

سألتها: هل كان ذلك الرجل المتعب الذي شاهدتُه ذات يوم برفقتك وأمك هو والدك؟

هزت رأسها بالايجاب وقالت: عمله في المنجم منذ صغره أحرق رئتيه. إنه مريض جداً وبالغ العناد ورفضه لطلب الجنسية الفرنسية جعلني أقاسي واخوتي السبعة من وضعنا كمهاجرين، ولو رضي من زمان بأن يصير فرنسياً لوفر علينا الكثير من المشقات.. وقد تقدمت شخصياً بطلب خاص بي لأنال الجنسية الفرنسية ومن ثمة لينالها الصافي فهو راغب في ذلك أيضاً. لقد رافقني إلى باريس ويقيم معي الآن في شقتي. لديه الكثير من الصلات والأصدقاء في فرنسا وسيتدبر عملاً بسهولة وهو ميسور الحال مادياً كما قال لي.

ـ كيف التقيتِ به؟

ـ في العرس. كان الصافي يدق على (الطبلة) في الحفل القروي الجميل على شاطىء البحر الدافىء. وحولي وجوه مرسومة بالكحل والحناء والوشم والابتسامات والألوان والقبلات وحرارة القلب. وقعت في غرامهم مرة واحدة ولم يحدث لي شيء كهذا من قبل... يا لها من قرية... انظري كيف (حمصت) بشرتي...

ـ أية قرية؟ أي بحر؟

ـ قالت لي أمي رافقيني يا غلوريا إلى خالاتك في دوڤيل لقضاء إجازتك على الشاطىء. قال لي أبي رافقيني يا زكية إلى قريتي لقضاء إجازتك على

الشاطىء الدافىء.

رافقت أبي فقد أغراني بالدفء والشمس. أقمنا عند عمتي ورافقتها إلى العرس.

لم يحدث من قبل أن اشتعلت بالسعادة هكذا، واستخف بي الطرب فدفعت بي عمتي إلى الرقص العربي مع البنات، ولم أكن قد شاهدته من قبل إلا على شاشة التلفزيون في أفلام ألف ليلة وليلة. . .

دللني الجميع وصفقوا لي وشعرت أنني مهمة في قرية أبي لا مجرد رقم لخادمة إضافية في باريس. . .

كانت تلهث سعادةً وتتحدث بسرعة خارقة بلهجة عربية عامية ذات لكنة لا تشبه العامية اللبنانية وكنت أفهم بصعوبة ما تقوله. . .

أضافت: لاحقني الصافي وقد ظنني في البداية فرنسية. انسحبنا إلى الشاطىء للحظات بعيداً عن الأعين، وكدت أمنحه نفسي كما أفعل في باريس حين أقع في الحب دونما تعقيدات، لكن عمتي لحقت بنا وكانت بالمرصاد. . .

وضع أبي يده على الحكاية وزوّجنا على يدي الشيخ! وها أنا عاشقة ومتزوجة وسعيدة. . وأبي أكثر سعادة مني وهذا يفرحني. . . يبدو أنني كنت أحب أبي أكثر مما أظن. . .

ـ ما الذي تعرفينه عن الصافي؟

ـ لا شيء غير أنني أحبه. . وأنه يفتش عن عمل. وأنه يغني أيضاً بصوت جميل ويردد باستمرار أغنية «سجِّل أنا عربي» وقد تعلمتها منه. .

وقبل أن أقول لها إن أغنية «سجِّل أنا عربي» هي قصيدة شعرية جميلة لشاعر مقيم في باريس، قاطعتني وهي تفيض سعادة كجدول وصارت تنشد: سجِّل أنا عربية. . سجِّل أنا عربية. . . واسمي ليس غلوريا بل زكية. . . أرجو أن تناديني من الآن فصاعداً باسم زكية. . .

ـ حاضر يا زكية يا عربية!. . .

تمسح رخام الحمام وهي تنشد: سجل أنا عربية).

أنهض للعودة إلى النوم. تعود زكية/غلوريا إلى أنينها. ما الذي يوجعها؟ أي شبح تحاول عبثاً ارضاءه أو التخلص منه؟ أهو شبح الصافي بعدما انكسرت حكاية الحب سريعاً كسقوط شهاب عابر. . . (جاءت ذلك المساء الشتائي للعمل وبدت منهارة. قلت لها: ماذا بك يا زكية. أجابت بالفرنسية: «اسمي غلوريا».

أدركت أن كارثة ما حلّت عندها.

قلت لها إن البيت نظيف ودعوتها لشرب القهوة. جلست شبه عدوانية كما لو كان كل عربي حليفاً غير مباشر للصافي تماماً مثلما زاد حبها لي دونما مبرر منطقي أيام التهاب غرامها به.

استدرجتها بود غير مصطنع ولكنها رفضت أن تجيبني بالعربية على سؤالي عما دهاها وقالت لي بالفرنسية: إنني حامل. الصافي يضربني. نلت الجنسية الفرنسية. الصافي رفضوا اعطاءه إذناً بالإقامة لأكثر من عام لأن الكثيرين من العرب يتزوجون من فرنسيات بهدف الإقامة لا أكثر. ما زال بلا عمل يقضي وقته في إنفاق راتبي على الخمرة وتدخين الحشيشة في شقتي كالثور الهائج. يلعن باريس ويبذل كل ما بوسعه للبقاء فيها. لا أصدقاء له هنا وليس ميسور الحال كما ادعى. إنه هارب من الفقر ولكنه لا يرحمني ولا يرحم نفسه. يضربني، ثم يثمل ويغني: سجِّل أنا عربي. إنني نادمة على الزواج الذي فرضه الوالد والقبيلة وأريد الطلاق. ليتني لم أخالف إرادة أمي.

ـ ولكنك أحببته.

ـ أجل! لكنني لم أكن مضطرة لهذا الزواج لولا رغبة الوالد. . .

كانت تتكلم وتنتحب وقد انتشرت في وجهها الجميل بقع زرق داكنة كما على ذراعيها، ودم لما يجف يظلل فتحة أنفها، ولذا لم أجرؤ على أن أقول لها إن بعض الرجال ما زالوا يضربون نساءهم في كل مكان وإن ذلك لا يقتصر على الرجال العرب.

تركتها تفرغ جعبة ألمها: إنه يستولي على راتبي لكنه يتقدمني بخطوة حين نمشي معاً! يشتمني لأنني فرنسية ويقتل نفسه للبقاء هنا. بعدما ضربني طردته

من البيت.. إنه متناقض، متسلط معي وذليل مع من لا يحبه! وفوق ذلك رفض مغادرة بيتي حين طردته، وقال إن أمري لم يعد في يدي والرجل في بلادنا يقرر وحده متى يطلق المرأة ومتى يهجرها. لقد تحول هذا الزواج إلى إهانات واذلال وضرب يومي لي وارغام على العمل في بيوت أكبر عدد من الناس لأعود إليه بالمال وهو يحشش ويذّلني وينشد: سجِّل أنا عربي.. كم صرت أمقت هذه الأغنية... أنا فرنسية ولا أريد أن أكون امرأة عربية ولا أريد الزواج عند الشيخ، وكلما أهانني غنيت لأغيظه: سجِّل أنا لست عربية.

تأملت يديها. كانت آثار الحنة قد تلاشت. كم كانت المسكينة سعيدة بالحنة يوم عودتها من هناك وروت لي بفخر أن صبايا القرية زينّ بها قدميها ويديها نقطة نقطة كمن يرسم لوحة ورششنها بماء الورد وغطينها بالحرير وزففنها بدفء القلب والأغاني والفرح، «كمن يرقص في جنازة» على حد تعبيرها!!

تتابع: يريدني الآن أن أضع (الفولار)(*) الإسلامي على رأسي وأنا أريد الطلاق والخلاص منه. (ذهبت حناء الفرح وأحلام الصافي بالجنسية الفرنسية والمال والمجد فتساقطت قشرة الفنان اللطيف وظهرت مستنقعات التناقضات والاحتقار الضمني للمرأة، وانقضى صيف الأماني وجاء خريف الحقائق والوحشة،) هكذا قلت لنفسي صامتة كي لا أزيد في ايلامها.

أخرجتْ من حقيبتها فاتورة هاتفها وأرتني إياها وإذا بهم يطالبونها بمبلغ يوازي راتبها لثلاثة أشهر عليها أن تدفعه أجرة مكالمات هاتفية أجراها الصافي مع أهله لأنه يشعر بالوحشة!

سألتها: ووالدك؟

قالت: والدي المسكين مريض جداً... وعنيد كعادته ويريد لهذا الزواج البائس أن يستمر. طلب مني الصبر. مهمة المرأة في نظره أن تتحمل من زوجها كل شيء. إنه زواج حتى القبر!

ثم سألتني متهمة كما لو كنت ممثلة للأمة العربية: لماذا تعاملون المرأة

(*) الفولار: تسمية لغطاء الرأس (الإسلامي) في فرنسا.

هكذا؟

كنت أعرف أنها تحب والدها وتخجل به في آن، ولكن ارتباطها به حقيقي وإن كان متناقضاً. تركتها تثرثر وحدها وكانت في جلستنا تلك تتحدث بالفرنسية وتنفر إذا طرحت سؤالاً بالعربية وتتظاهر بعدم الفهم وترغمني على تكرار السؤال بالفرنسية.

بدت متألمة ومعذبة.

بعد ذهابها كان عليَّ أن أنظف البيت بنفسي بمساعدة شبحي اللطيف زوجي الذي لم يكن بعد قد هجر قشرته الطينية لكن لم ينس أن يلومني لأنني دفعت لها أجرها وهي التي لم تعمل شيئاً بدلاً من اعطائها فاتورة بأتعابي كمشرفة على عيادة نفسية!).

الهدوء يخيم على بيتي. غلوريا/زكية قد غرقت في نوم عميق.

الساعة تشير إلى الرابعة والنصف. أحاول أن أغرق في النوم مثلها ريثما يأتي الصباح وتحدثني عن شبحها. أهو الصافي أم والدتها أم شخص أجهله؟ هل تحب أشباحها الموسيقى الكلاسيكية أم أن القرع على الطبلة يستدعيها؟

بالرغم من حياتي مع الأشباح أجدني أعرف القليل عنها. يدّعي البعض أنها تحب ظلام الليل والضباب والدهاليز. وهذا ليس مؤكداً. ربما ترهف هذه الأشياء مشاعرنا، ولعلنا لا نلحظ وجودها إلا ليلاً لأننا ننفرد بأنفسنا وبجحيمنا فنصير أكثر قدرة على ملاحظة حضورها.

أنا أدّعي أن بعض الأشباح تحب الموسيقى. حينما أنصت إلى شوبان مثلاً أعرف أن شبحه حاضر في الغرفة يرقب أثر موسيقاه على وجهي وعشرات الأشباح الأخرى التي جذبتها ألحانه.

أزعم أيضاً أن الأشباح تحب الأطفال ولكننا نخوّفهم منها. أظن أن للأشباح أمزجة كالبشر ولكل شبح ما يحبه ويجذبه.

زوجي الحبيب مثلاً تجذبه كهارب حزني، وأحسن الآن حضوره في غرفة نومي وتهب رائحة عطره «آراميس». وإذا أضأت النور في هذه اللحظة بالذات سأجد على الوسادة الخاصة به زهرة «وزّال» أو بنفسجة أو «بانسيه» أو أية وردة

صغيرة جداً ولطيفة مثله، هائلة ومتواضعة في آن. . .

لعل الخط الفاصل بين الموتى والأحياء في قلوبنا ليس نهائياً إلى المدى الذي يحب البعض أن يتوهمه.

ثمة أحياء في قلوبنا ماتوا من زمان وأموات داخلنا ما زالوا يتحركون حولنا مثل ذكرى حزينة لما كانوا عليه ذات يوم قبل موتهم غير المعلن في أعماقنا. . .

بعد مغادرة زوجي لقشرته الطينية (ولا أقول موته) وعيت أن الخط الفاصل بين الموتى والأحياء وهمي ككل ما نحب أن ندّعيه حاسماً وقاطعاً في حياتنا. .

صرت حين أذهب إلى التدريس وأغادر مترو (جورج سانك) وأمشي في الشانزيليزيه أتساءل: كيف أميز الناس من الأشباح بعد اليوم؟

هل أولئك الذين أراهم في الشوارع وخلف نوافذ البيوت وفي المطارات والقطارات هم كلهم من الأشباح أم من البشر؟

هذه السيدة المسنة بزينة من سنوات الخمسينات، الجالسة في المقهى، هل هي حية أم ميتة؟

أهرب إلى التدريس وأعمل طوال النهار وحين أتخلص من نواف وأعود إلى وكري أنصت إلى الموسيقى وأكتب داخل رأسي رواية جديدة إلى أشباحي عن أشباحي.

وأتساءل: ألا تحوّلني الكتابة إلى مَحْضرة أرواح حيث يستولي الأشباح على حنجرتي ويقولون كلمتهم؟ أليس الأديب بهذا المعنى مجرد وسيط روحاني بين بطل القصة والقارىء؟ . .

يا إلهي كيف أنام الليلة؟ وهل كان على زكية أن تختارني من بين الناس جميعاً لتلجأ إلى «بيت أشباحي» بشبحها، موقظة عذاباتي مرة واحدة؟

عبثاً أنام. . . بينما غرقت غلوريا/زكية في النوم فيما يبدو، ها هي تدخل الآن إلى مستنقعات متحركة أشد غموضاً اسمها الأحلام والكوابيس مسكونة بأشباح الذين تعرفهم أو تجهلهم. لعلها لا تدري بعد أن كل أولئك الذين تراهم في أحلامها ولا تعرفهم هم أشباح أشخاص حقيقيين.

ها هي تئن كأن كهارب روحية سرية تلفها كضبابة وهي تتشاجر داخلها مع نفسها وأشباحها في آن.

الأنين لغة تكفيها للحوار وليست بحاجة إلى الكلام المألوف لتقول ما تريد للأرواح التي تحيط بها وتعذبها (شيئاً فشيئاً نغرق في الصمت مثل قطعة حصى تمضي حتى قاع البحر. أحياناً أكلم شبح زوجي الأصلع الرقيق العـذب لا ليسمعني بل لأسمع أنا صوتي الـذي وحده يـربطني بـدنيا الأحيـاء أو الذين يتوهمون أنفسهم كذلك).

ها أنا أنزلق تدريجياً إلى قاع البئر. أرى جرذاناً بحجم البشر في الشوارع تقرض المباني العتيقة والجديدة معاً.

أرى قطة تلد فاراً وغراً وسنجاباً وأفعى وقطاً من بطن واحد..

أستيقظ مذعورة: كيف ستتعايش معاً؟ ولكن لماذا تتعايش؟ لماذا أي شيء؟ ما جدوى أي شيء؟ ما جدوى شرح الحلم لذاتي؟ ما أصعب محاولة شرح أي شيء حتى لنفسي.

صوت غلوريا/زكية الذي يئن بصوت عال هو الذي أيقظني بالتأكيد. لا نوم الليلة فيما يبدو (جاءت غلوريا باكية: لقد ذهبتُ وأجهضتُ طفلي. لا أريد أن أرافقه إلى هناك كما يأمرني ليتابع اذلاله لي. كلما طردوه من إحدى الدوائر الرسمية هنا عاد إلى البيت ليضربني بوحشية. صار إذلالي متعته وأخشى إن أنجبت طفلاً أن يختطفه ويعود به إلى الوطن حيث كل شيء يحميه لمجرد أنه ذكر. حين تزوجت كنت خالية الذهن من ذلك كله أحلم ببلدي في حكايا أبي ووقعت في غرام الدفء والبحر والناس الطيبين والفولكلور ولم أكن أعرف أن واجباتي كامرأة أكثر من حقوقي.

إذا رافقته إلى هناك وحملت جنسية بلد والدي نهائياً سيصير قادراً على منعي من السفر ومعاشرتي مرغمة في بيت الطاعة والزواج من عديدات إلى جانبي. أمي شرحت لي وضعي القانوني وأفهمتني أن مصلحتي كامرأة تحتم علي أن أتمسك بفرنسيتي وأهرب من ذل الرضا بأن أصير عربية يـذلّني الصافي..

عُدتُ من عملية الاجهاض فوجدته مزّق لي الثياب الجميلة الملونة كلها

التي سبق وأهديتني إياها أنت وبقية السيدات في المبنى اللواتي أعمل في خدمتهن. حطّم لي الهاتف والتذكارات التي سبق أن حملناها معاً من بلدنا ومزّق لي بطاقتي الشخصية الفرنسية وصوري وكسر التلفزيون والأثاث وخلّف الأذى كله الذي يستطيع إحداثه في شقتي، عقاباً لي لأنني شكوت إلى البوليس ضربه لي ولجأت إلى القانون الفرنسي وطلبت إخراجه منها، فإيجارها باسمي وأنا هنا مواطنة لي حقوق كأي ذكر مثله.

تقدم محامي بدعوى للطلاق.. وجاءه الأمر بإخلاء شقتي فحطّم كل شيء قبل ذهابه!

قلت لها في محاولة لتذكيرها بوجهه الآخر: لكنه لطيف ودمث عادةً. لم أطلب منه مرة خدمة إلا وهبّ لتقديمها من نقل للأثاث أو تكليف بشراء الأغراض.

تجيب بحرقة: إنه هكذا مع الغرباء. لقد حطم اثاث بيتي عقاباً لي لأنني طلبت الطلاق ولجأت إلى البوليس لطرده. لو شاهدتِ وجهه حين علم أنني اجهضت قبل ساعات وورقة التجارة المسماة طفلاً تم إحراقها.

لقد جن جنونه حين أفهمته أن كل شيء قد انتهى بيننا، ولم يعد بوسعه أن يذلني بعد الآن لمجرد أنني عربية مثله.. هل أستطيع البقاء هنا قليلاً ريثما يغادر المبنى؟).

تركض حكاياها داخل رأسي.. أتعب.. أنزلق تدريجياً إلى بئر ما..

توقظني زكية/غلوريا: قهوتك يا سيدتي.

(لعلي غرقت في النوم. كم أنا مظلمة هذا الصباح. يا الهي. ما تزال الساعة الخامسة والنصف. ماذا تريد الآن مني؟).

تقول وهي ترتجف: الشبح موجود في بيتي الآن (إذن فهي تحس بكهارب حضوره وبسيالاته النفسية المتدفقة كالشلالات حتى هنا). تتابع: كنت أراه وأنا نائمة يدور في البيت غاضباً.

- شبح من؟

- لا أدري. إنه شبح غاضب هذا كل ما أعرفه.

ـ دعينا نشرب قهوتنا بهدوء أولاً. وأعدك بمرافقتك إلى شقتك لأثبت لك أن لا أحد هناك.

أتساءل: أهو شبح الصافي؟ هل هو أول أشباح حياتها وما الحب إلا للشبح الأول؟

تلح عليَّ أن أرافقها إلى غرفتها لأرى ما يدور. الحمقاء تريد شهوداً على شبحها لتصدق أنها لم تجن. إنها لا تدري أن لقاء الأشباح هو بداية الصحو.

إنها مذعورة من أجمل ما يحدث لها ريثما تألف أشباحها كأية مبتدئة. على هذا النحو تقع الأشياء لنا جميعاً فيما يبدو!

نتجرع قهوتنا معاً وأنا أكاد لا أقوى على فتح عينيَّ.

تنظر غلوريا/زكية إلى وجهها في المرآة بذعر وتقول: يا الهي! سيراني سيرج هكذا الليلة. إنني أبدو كجثة.

ـ ومن هو سيرج؟

ـ إنه حبّي الجديد ولكنني لن أتزوج منه. لن أتزوج من عربي بعد اليوم. ما زلت أدفع حتى اليوم أتعاب المحامي أقساطاً شهرية من راتبي وتكاليف دعوى الطلاق من الصافي، ناهيك عن فواتير الهاتف وثمن الأثاث الذي حطمه لي.. إنه لم يرض بتطليقي إلا بعدما دفعت له كل ما سبق واقتصدته من مال. هذا ليس عدلاً وقد ندمت لأنني سمعت رأي والدي بالزواج منه بدلاً من صلة حرة أتعرف خلالها عليه.

ـ وهل سيرج عربي؟

ـ أجل! اسمه الأصلي صلاح الدين لكنه بدّله إلى سيرج حين حصل على الجنسية الفرنسية منذ أسابيع. والده من قرية والدي وزميله في المنجم وفي رفض الجنسية الفرنسية. شقيقه متزوج من أختي الكبيرة منذ عشرة أعوام وأسرته ما تزال تقيم في الشمال في القرية ذاتها حيث ولدنا هو وأنا وظلت تقيم فيها أسرتانا حتى بعد إغلاق المنجم. هو يصغرني سناً بعامين.

ـ إذن أحببتِ عربياً للمرة الثانية؟

ـ لم يخطر ببالي أنني سأحب عربياً مرة ثانية لكننا لا نختار من نحب.

أليس كذلك؟ لست أدري ما الذي يجذبني إليه، والمهم أنني تعلمت الدرس ولن أتزوج.

سأنجب أطفالاً بلا زواج وبذلك أحتفظ بحق حضانتهم في حال الفراق.

(لا أريد التدخل في شؤونك لكنني لا أرتاح لفكرة إنجاب الأطفال دونما زواج. فالأطفال مسؤولية وتضحية أيضاً. لا مفر لنا من حل نحن النساء ضد اضطهاد بعض الذكور غير إنجاب الأطفال بلا زواج). أشعر بالحاجة لقول ذلك لها وأقرر إرجاء بحث الأمر إلى مناسبة أخرى.

بالرغم من أنني لست عنصرية، لكن كونها عربية معذبة وحائرة يقرّبها مني. لقد ذقنا غصّات مشتركة بمعنى ما!..

تتابع قائلة: كان من المفترض أن يأتي سيرج الليلة لنقيم معاً في شقتي. لم نجرؤ على ذلك أيام كان والدي حياً لأنه حين علم بما يدور غضب من صلتي به. شتمني ولعنني قبل موته منذ شهرين لأنني أعاشر سيرج (بالحرام). وحين علم أننا ننوي الإقامة معاً على الطريقة الغربية والانجاب دونما زواج هاج وماج واضطررنا للاحتفاظ بعلاقتنا سراً، لكنه كان يعرف ما يدور بيننا..

ـ وماذا قالت أمك؟

ـ حاولت اقناع أبي بأن من حقي أن أعيش كأية فرنسية أخرى من جيلي عازفة عن الزواج، وأنني لست أفضل من أميرة موناكو ستيفاني التي أنجبت طفلين من (عشيرها) كما مئات الآلاف من بنات جيلي. لم يقتنع بأن الزواج اختراع رجالي ينقرض في فرنسا..

ـ وأنت، ألم يخطر لك أن بوسعك الزواج من صلاح الدين على أن تطلبي أن تكون (العصمة) بيدك سلفاً؟

ـ ما معنى ذلك؟

ـ معناه أن بوسعك تطليقه حين تشائين مثله تماماً.

ـ لم يقل لي أحد ذلك.. لا أبي.. ولا الشيخ.

ـ إنني أقوله لك.

ـ لا أريد التفكير بالزواج من عربي. لم أنسَ بعد ما قاسيته مع الصافي.

لقد جاء ذات يوم بغانية إلى شقتي وقال إنه يريد الزواج منها وسيرغمني على الإقامة معها وهذا حقه، وإنني سأكون واحدة من أربع نساء. اتصلت ليلتها بالبوليس فجاء وطردهما. بوليس بلده لن يفعل الشيء ذاته لو كنا هناك وأنا لا أستطيع أن أقبل ذلك الإذلال ولست مضطرة فلي عملي وثمة قوانين عصرية هنا تحميني ولن أدخل متاهات قوانين غابرة لا أفهم فيها ولن أدع أحداً يدمر حياتي بعد الآن. . سجّلي: أنا لست عربية!

ـ ولماذا لم تقيمي وسيرج معاً قبل الآن بعد وفاة والدك؟

ـ لا أدري. . .

ـ هل الشبح في بيتك هو السبب؟

ـ ربما. لم أجرؤ على أن أكلم سيرج عنه. خفت أن يتوهم أنني مجنونة. . . ثمة من يعبث بأشيائي. . . يكتب لي بأصبع الشفاه عبارة «عاهرة» على المرآة بالفرنسية. يفتح غطاء زجاجة العطر التي أهداني إياها سيرج ويدلقها. يخرج معجون أسناني من أنبوبته ويوسِّخ به المكان. . يرمي بالنبيذ الأحمر على جدراني البيض فيلطخها بما يشبه الدم. . وحين ينام سيرج عندي في عطلة نهاية الأسبوع تحدث أشياء صغيرة غير سارة لأشيائه، كأن ينقطع أكثر من زر في معطفه، وتنمو الثقوب في جوربه الجديد، وتضيع مفاتيحه ويجرح نفسه أثناء الحلاقة أكثر من المعتاد ويسخن ماء الحمام بصورة مفاجئة فيحرقه رذاذ (الدوش). . . وغير ذلك من الظواهر. . .

أنصتُ إليها بهدوء (ترى هل عليَّ أن أنصحها بالذهاب إلى عيادة طبيب نفساني؟ تراها مريضة وتُقدم بنفسها على تلك الأمور كلها في نوبات غامضة ولا تتذكر ما أقدمت عليه حين تصحو؟. . **لعلها مصابة بالشعور بالذنب. . لعلها تتمزق لسبب أجهله ووحده الطبيب يستطيع اكتشافه)**

تقول لي: أقسم لك أنني لست كاذبة. أرجوك أن تصدقيني: ذلك كله يحدث في شقتي وأكثر منه. قميص النوم الجديد الذي اشتريته للاحتفال الليلة بحضور سيرج للإقامة معي وجدته البارحة مساء ممزقاً.

كان حضور الشبح كثيفاً في الغرفة، أما لوح الزجاج الذي يفترض أن

يحميني من أنبوبة مصباح «الهالوجين»(*) المضيء فقد انفجر فجأة دفعة واحدة وتطاير في جو الشقة زجاجاً مطحوناً ناعماً كأن قوة غامضة سحقته . .

ـ هذه الأمور تحدث مع ذلك النمط من المصابيح. ألم تسمعي بالتحذير من ذلك؟ هذه ظاهرة علمية لا غرائبية.

ـ أجل ولكنها حدثت دون أن يكون المصباح مضاءً!! حدثت في لحظة شعرت خلالها أن في شقتي حضوراً غاضباً مظلماً هائجاً. . لا أعرف كيف أصف لك ذلك. . إنني أعرف أنه هناك وكفى. أرجوك أن تصدقي ما أقوله لك. ثمة شبح في شقتي وهو يتعمد القيام بذلك كله ولا أدري لماذا.

ـ هل شاهدتِ وجهه؟

ـ لا. إنني أعي حضوره ولا أعرف من هو أو من هي. إنه حضور لا جنس له كالروح. . أو هكذا أزعم لنفسي. ثمة لحظات يخيل إليّ فيها أنه الصافي، لكنني لست واثقة من شيء. .

ـ ما تبرير هياجه الكبير ليلة البارحة حين عُدتِ إلى البيت في نظركِ؟

ـ لا أدري.

ـ هل تعرفين أنه لن يفارق البيت إلا حين تَعْين سبب حضوره وتحاولين تَفَهّمَ إرادته؟

ـ إذن تصدقين أنه موجود؟ أرجول أن تصدقيني.

ـ لا أصدق شيئاً ولا أنفي شيئاً. ولا تفسير نهائياً لدي لأي شيء. أعرف أن أحداً لا يدري لماذا وكيف تقع هذه الأمور. ثمة حواس كثيرة أغدقها الله علينا نجهلها ولا ندري لماذا تنشط أحياناً وتصير أكثر رهافة وقدرة على رؤية ما لا يُرى أو استشعار حضورٍ لامرئي.

أعرف أن التخاطر حقيقة. وتحريك الأشياء عن بعد بفعل قوة داخلية يتقن البعض استعمالها حقيقة أيضاً. وأعرف أن العلم أثبت وجود العديد من الظواهر الطبيعية الخارقة وما زال يفتش عن تفسير (عقلاني) لها، ضمن طاقتنا

(*) الهالوجين: نمط من مصابيح عصرية شائعة الاستعمال في باريس.

العقلية المحدودة على فهم هذا الكون الشاسع المليء بالأسرار.. التناسخ والتقمص من الظواهر المقلقة إذ أثبت العلم وجود حالات لا يمكن تفسيرها بالمنطق.. وكذلك...

تقاطعني نصف مذعورة: منذ بدأت علاقتي مع سيرج بدأ هذا الشبح يتسلل إلى حياتي. أظن أنه شبح الصافي، ولكن هل للأحياء أشباح؟ تراه مات دون أن أدري؟ كل ما أعرفه أن سيرج مثلي غير متحمس لحكاية الزواج كمعظم أبناء جيلنا، ولن أتخلى عن موقفنا هذا خوفاً من شبح، ولا أريد الزواج منه. إن العلاقة الحرة «الكونكوبيناج»(*) تمنحني حقوقاً أكثر بكثير من تلك الشرعية التي يريدها أبي. فلِمَ أتخلى عنها من أجل شبح؟

قلت لها: ولماذا لا تطلبين أن يكون حق العصمة في يدك وتتزوجينه مثلاً؟

ـ ما فائدة المكتوب على الورقة إذا عجزنا عن تنفيذه؟ أنت لم تقاسي ما قاسيته ريثما حصلت على الطلاق في باريس، والله وحده يعلم كم كنت سأقاسي لو كنت في بلده ولي طفل منه. لم يقل لي ذلك أحد في أي يوم. حلفهم هائل ضدي. وحتى لو سجلت كل ما أرغب فيه في الورقة فلن يبالي بها أحد هناك. لا يا سيدتي. سجِّلي أنا لست عربية...

غلوريا/زكية ترجوني أن أرافقها إلى شقتها لأرى بعيني أنها ليست كاذبة. يغمرني خاطر غير مبهج: ماذا لو كانت مريضة بالهلوسة، ولم أجد في شقتها شيء مما تحدثت عنه، وهدرت ليلتي مع صبية تسخر مني دون أن تدري؟

في المصعد تقول لي: ليس بوسعك اتهامي بأنني أفعل في شقتي ذلك الأذى كله، فالشبح يوسِّخ الأشياء أحياناً بأشياء غير موجودة في غرفتي كهباب الفحم الأسود على باب البراد الأبيض.

تفتح باب (الاستديو). ندخل. تتردد أمام العتبة وتقول: إنه هنا...

أشاركها الشعور ذاته. أحس بحضور غامض يجتذبني إلى الداخل.

أمشي كالمنومة. أدوس الزجاج المحطم لمصباح الهالوجين على الأرض.

(*) الكونكوبيناج: «التسريّ» على الطريقة الأوربية المعاصرة.

أسمع صوت انسحاقه تحت نعلي ولا أبالي. (القوة) تجذبني إلى الداخل، إلى الشرفة الصغيرة. لا أذهب إلى الحمام في الممشى الضيق قرب الباب لأتحقق من التفاصيل الصغيرة التي روتها. القوة تقودني إلى الشرفة بالذات، إلى الضوء وليس إلى ظلمة المطبخ الذي لا نافذة له.

على الشرفة يخيل إليَّ أنني أرى رجلاً جالساً فوق أرضها معلقاً بين خيوط الضوء والظلمة الفجرية، وأميز فيه العجوز المنخور الذي سبق أن شاهدته في مدخل المبنى: والد زكية!

أحدّق فيه وهو يرمقني بعينين تشعان ضوءاً مظلماً ولا تخلوان من التوسل الأمر.

أسمع صوت زكية يقول من الغرفة: لا أدري لماذا لا أرغب في حضور سيرج الليلة للإقامة معي.. ربما كان عليَّ تأجيل ذلك قليلاً...

الرجل ما يزال يحدّق في وجهي بعينين متعبتين مليئتين بالتوسل، ويبدو بنحوله داخل ثيابه الفضفاضة ضائعاً تحت عباءة عربية خاوية علقوا فوقها جمجمة بعينين للغضب الأسيان... أهمس سائلة: هل أنت الذي بعثت بها إليَّ؟ لماذا اخترتني؟

شفتاه شفرتان حادتان مطبقتان تلتمعان في أثير الفجر البارد.

تصل غلوريا/زكية إلى جانبي وتقول وهي تحدِّق صوبه ولا تراه فيما يبدو: أشعر أن الشبح موجود في الشقة ولكنني لا أراه...

يذهلني أنها تحدق فيه ولا تراه!...

أقول لها دونما صوت: أما أنا فأراه...

تعود إلى الداخل لتهتف إلى سيرج وهي تقول لي: إنه عامل بناء ويذهب باكراً إلى عمله. آمل أن لا يكون قد غادر غرفته... سأقول له ما اعتزمت عليه.

أهمس للشبح: أعدك بأن أحاول.. مساعدتها... على أن تراك!!

١٩٩٤/٨/١٨
الساعة ١,٤٥ ليلاً

زائرات الاحتضار

ترى ما الـذي يحدث لنـا خلال غيبوبة الاحتضار؟ إن أحداً لم يرجع ليقول لنا . . .

آزميك ايبيس

بينما كنت أظن أنني أتعلم كيف أحيا، كنت في حقيقة الأمر أتعلم كيف أموت .

ليوناردو دافنتشي ـ ١٥٠٨

لماذا لا ينتحب المحتضرون؟

ماكس فريش ـ ١٩٦٦

بوسع المرء أن يألف تحصين نفسه ضـد الألم والخـزي والأحـداث المشـابهـة. أمـا حـين يتعلق الأمـر بالموت، فليس بوسعنا تجربته إلا مرة واحدة. كلنا تلامذة (بلا خبرة) حين يتعلق الأمر بموتنا.

مونتين ـ ١٥٨٠

زائرات الاحتضار

سيارة الرولزرويس تتوقف برئيف أمام شارة المرور في جادة الشانزيليزيه الباريسية. يتأمله المارة بكثير من الحسد لكنه للمرة الأولى لا يمتلىء فخراً وتشاوفاً بلحظة طالما حلم بها من زمان في بلدته النائية في قارة أخرى حين لم يكن يملك أجرة (الباص) إلى العاصمة.

يستوي جالساً في المقعد المخملي الوثير ليجيب على رنين هاتف السيارة. يحمل بيده الأخرى كأساً من الكريستال في قعره كثير من الويسكي المعتق. سائقه يتقدمه بالقبعة الرسمية والقفازات البيض.

تتأمل رئيف سائحة حسناء بعينين فيهما نداء، فينزوي في ركن السيارة مثل محارة حية عصروا عليها قطرات من الحامض. **(ذلك الصباح الحار، قالت لي أمي بوجهها المنهك النظيف المزنّر بمنديل أبيض ناصع يغطي شعرها حتى في البيت: لم يبق لدي من حلي غير هذه الأسوارة الذهبية. سأذهب غداً لبيعها، وسأحصل لك على القسط الجامعي.**

كان أبي الفقير قد مات مبكراً. قصفته حمى إثر ليلة قيل أنه قضاها في الحقل يعمل لأنه لا يملك أجرة من يساعده. قيل أيضاً أن مرضه يدعى الهمّ. وباعت أمي ما فوقها وما تحتها وحليها الرثة ولم يبق لديها غير تلك الأسوارة الأخيرة.

قلت لها: أعطني الأسوارة. سأرهنها ولن أبيعها. وسأتدبر الأمر منذ الآن فصاعداً.

قالت مذعورة: لا تتورط في المتاعب مع رفقة السوء. لا تخالف القانون..

قلت لها: لا تخافي لن أخالفه ولكن سيأتي يوم أسّن فيه القوانين لصالحي. لم تفهم وسألتني: ماذا تقول؟

لا شيء... وكل شيء).

سيارة الرولزرويس تقطع ساحة (الايتوال) متجهة صوب (أفنو فوش) أكثر شوارع باريس ثراء وفخامة حيث يقيم أصحاب الملايين في قصور حصينة.
(«آه ما أبدع هذه التحف». . . شهقت كارولين، مطلقتي الأخيرة يوم شاهدت قصري الباريسي للمرة الأولى قبل زواجنا.

كانت شابة تنحدر من أسرة فرنسية عريقة وتعرف كيف تقدر لوحاتي وتحفي وأثاثي العريق ربما أكثر مما ينبغي، ولذا اشترطتُ في عقد زواجنا أن لا تنال شيئاً منها في حال الطلاق ناهيك عن نفقة هزيلة. ورغم ذلك كله هجرتني بدلاً من التنعم معي بذلك كله. آه النساء. لقد عشقتهن دائماً ومنحتهن كل شيء حتى أسوارة أمي، ولكنني لم أفهم يوما أسرار التعامل معهن.

في لقائنا الأخير كصديقين في (الكوت دازور) حاولت عبثاً اقناعها بإعادة أسوارة أمي لي مقابل أي مبلغ تطلبه ورفضت ومضت غاضبة وتدهورت بها السيارة المكشوفة في البحر ولم يجد أحدٌ جثتها ولا الأسوارة).

«توقف هنا» يأمر رئيف سائقه. «سأتمشى قليلاً صوب البيت».

يحتج الآخر مدمدماً ببضع كلمات حول «الاحتياطات الأمنية» في جملة غير واضحة وهو يفتح له باب السيارة ويرفع قبعته. (الذين لا يريدون قتلي يشتهون اختطافي للحصول على فدية. ليس من السهل أن يصعد المرء من «زقاق الشحار» في بلدة «الملحية» المعبد بالطين واقدام الحفاة والذباب إلى «أفنو فوش» دون أن يجمع كمية كبيرة من الأعداء، ومن أصدقاء الأمس الحسّاد الذين يرون فشلهم داخل مرآة نجاحي. ولكن أحداً لا يتوقع مني العودة إلى البيت مشياً كعبيد الله كلهم، ولذا فنزهتي محمودة على الصعيد الأمني، والبيت على بعد خطوات).

يمشي فوق أوراق الخريف التي غطت الرصيف (هذا خريف آخر أدوس أوراقه وسيأتي خريف يدوس أوراقي. . . لو كان لي ابن. . . فقط لو كان لي ابن) متمهلاً يخطو صوب أكوام ذهب الأوراق متلذذاً بصوت تهشمها تحت حذائه الفاخر. (لقد اضطررت للمشي هكذا فوق حيوات أشخاص كرهتهم وآخرين أحببتهم، عرفتهم ولم أعرفهم ونساء لعلي كنت أحبهن واحتقرهن وأخاف منهن في آن. . . نساء جميلات باكيات بدموع سوداء بالكحل. . . كنت

دائماً مقتولاً وقاتلاً في آن. . . وربما كنت قاتلاً معظم الأحيـان. لم تكن ثمة وسيلة أخرى كي لا أبيع أسوارة أمي وكي أدافع عن نفسي. . . فقيراً وهشاً كنت والكل متأهب لإيذائي أو استعمالي. وكل ما فعلته هو أنني تبادلت الأدوار معهم. لقد انحنت أمي طويلاً راكعة على ركبتيها لتنظيف بلاط الأثرياء ولم أنحن بدوري ولم أنس ذلك يوماً).

المساء يبدو له أليفاً، هادئاً، ويمر به رجل في ثياب خضراء ينظف الرصيف بنشاط بمكنسة خضراء (أهو قاتل محترف متنكر ومكنسته رشاش متطور لقتلي؟ لكثرة ما بعت من الأسلحة والمتفجرات المتنكرة في هيئة دمى و «راديوهات» وسواها صرت أتوهم كل عابر سبيل قاتلاً وكل مكنسة رشاشاً! . . . صرت مع التقدم في السن أراجع ماضيَّ وتنتابني أحياناً نوبات تأنيب ضمير تشبه الندم، لكنني لم أعلم يوماً علم اليقين متى كنت مقتولاً ومتى قاتلاً).

يلتفت وراءه ويتأمل قوس النصر الذي يتوسط ساحة الايتوال (من زمان كنت أرى هذا القوس مشيداً من أجلي حتى قبل أن أولد. أما الليلة فأشعر أنني أكثر قرباً إلى أوراق الخريف مني إلى الأنصاب. من المريح أن أحداً لا يستطيع قراءة أفكاري وإلا سخر مني. لا أحد يعرف قيمتي الحقيقية غـيري أنا، أو أمي، ولكنني في هذه الأمسية أشعر أنني غبار).

تمر به قافلة من السائحات، بينهن حسناوات (ها أنا عـار أمامهن من الرولزرويس ولن يتوقفن طويلاً أمام كرشي الذي بدأ يترهل ورأسي نصف الأصلع، وأنفي الكبير الذي ورثته عن أمي ووحده يزداد مع الأيام نمواً. ولطالما أحببت أن أصـدق أكـاذيب النسـاء عن وسـامتي البـالغـة المميـزة، وصلعتي الاستثنائية الجذابة كما يؤكدن لي دائماً. اللعنة عليهن على أية حال ـ باستثناء أمي ـ التي أعرف أنها تجدني حقاً أحلى الرجال ووحدها من دون النساء ستضع وردة على قبري إذا مت!).

بشيء من الكآبة العذبة يتأمل الأشجار. لقد هجم الخريف مبكراً (لم أعد أحب تبدلّ الفصول كما كنت أحتفي بها في شبابي. إنها تذكرني اليوم بالزمن الهارب والعمر الذي لم يعد يكفي لاستمتع بكل ما هرولت طويلاً لجمعه ولم أتوقف لحظة للاستمتاع به. لقد هرمت وصرت أفكر بالموت. . . تهاجمني أفكارٌ

من نمط: متى وكيف سأموت؟ ما الذي يحدث للمرء حين يحتضر؟ هل يسمع أصواتاً أو يرى أشباحاً لا يراها الآخرون؟) يتابع تأمل اللوحة الأليفة لذلك المساء الباريسي الجارح الهانيء. لوحة هاربة تتوسطها سيدة مرفهة المظهر جميلة. يعري المرأة من ملابسها بعينيه (إنها عادة لم تفارقني منذ مراهقتي في بلدتي، ربما لذلك اكره راقصات التعري في الملاهي الباريسية الراقية وأحب امتلاك نسائي وهن في ثيابهن لأعريهن بعد ذلك بيديّ وأعيد الكرة) يلحظ أن السيدة المرفهة تمسك بيد طفلها. تتعلق نظراته بالصبي الصغير المدلل ودبابيس لامرئية تحفر في قلبه (لم يكن لدينا من المال ما يكفي لعلاجي من مرض «أبو كعب» الذي أصابني مراهقاً، وحين استطعت أخيراً أن أصل إلى الطبيب اكتفى بالقول: فحولتك لن تتأثر لكنك لن تقدر على الانجاب!)...

باحترام مبالغ فيه يدفع ثمناً له رواتب باهظة، يستقبله حراس المدخل وسائقه الذي انضم اليهم. (ادفع لهم الرواتب مقابل هذا الاحتفاء المسرحي بمروري. يا لي من أحمق).

يتنهد بارتياح حين يجد نفسه أخيراً وحده في قصره الحصين كالمتحف، حيث لا تستطيع ذبابة أن تدخل دون المرور بحرّاسه واطلاق أجراس التنبيه، وقد تخلص من خادمه وطباخه الكهل بأن منحهما إجازة أيام يخلو خلالها إلى نفسه وتحفه. (منذ طلاقي وكارولين تخلصت من خادماتها واحدة تلو الأخرى. من زمان كنت أتباهى بخدمي وأجمعهم حولي في مؤخرة الصورة حين تلتقط الصحافيات الصور لي أمام بركة السباحة في قصري في ماربيا. منذ فترة وأنا اشتهي أن أكون وحيداً وهذه ليلتي الأولى في متحفي الخاص بلا خادم أو رقيب. سأختلي بكنوزي وأتلذذ بتحسسها وعناقها ومضاجعتها بالعين حتى أنام. سألعب طويلاً كما يحلو لي دونما رقابة زوجة أو عشيقة أو خادم. لقد بدأت أتعب من زحامي. غداً عيد ميلادي الخامس والخمسين وقد حجزت مطعم «لاسير» الشهير بأكمله لضيوفي لاستمتع بمشاهدة الحسد في عيونهم. تساقطت دول من حولي واستطعت ببعض الانعطافات الهيولية التكيف مع أزمنة صعبة. وكلما تخلى الزمن عن أحد أولياء نعمتي تخليت عنه بدوري فاضحاً انحطاطه فلكلنا أخطاء. والفضح ليس صعباً، التوقيت هو المهم. وقد اعقد

المزيد من الصفقات غداً أيضاً وأغوي بعض الجميلات فأنا ضعيف أمام الجمال النسائي، أعشقه بضعفٍ وأعجز عن الاخـلاص لامرأة زمنـاً طويـلاً وألجأ إلى الأكاذيب معهن. في الفترة الأخيرة فقدت اهتمامي بهن ـ نسبياً ـ لكنني أخشى أن اتهم بالهرم إذا توقفت عن مغازلتهن والظهور معهن. أمـا الليلة فسأرتاح منهن ومن عقاقيري ومن كل شيء «لأكون ذاتي». اسمع كثيراً هذا التعبير من أدباء السهرات ولا أدري بالضبط ما يعنيه ولا أعرف من هي ذاتي. كل ما أعرفه شهوتي الجارفة الليلة إلى مداعبة تحفي السجينة داخل الغرف المصفحة بالحديد والظلام. شهوة تتزايد كلما فتر اهتمامي بالنساء).

يخلع رئيف ثيابه ويتجول في البيت عاريـاً. يستمتع بحـمام الفقاعـات المدلّكة الساخنة التي تفور بعطرها داخل الحوض المرمريِ **(لن أبالي بنصـائح طبيبي. لن يحرمني أحد متعة الماء الحار بعدما استحممت بالماء البارد معظم طفولتي)...**

عشاء دسم يلتهمه بارداً في المطبخ قرب البراد واقفاً معظم الوقت، دونما شوكة أو سكين أو ملعقة كما يحلو له: كافيار يأكله بأصابعه كالبرغل وعشرات القطع من سمك السلمون المدخن بلا خبز وملء زجاجة من الشمبانيا النادرة، مُصدراً الأصوات الحيوانية التي تمتعـه وهو يقضـم الـدجاج أيضـاً ويمتصه عن العظام وغير ذلك مما يحرّمه (الاتيكيت) من ممارسات ويروق له منذ كان فقيراً ووحيداً وبصحة جيدة. لكم يستمتع بالطعام الدسم دونما خدم يراقبونه وزوجة تنوب عن طبيبه!.

يدور رئيف بمفاتيحه على غرف كنوزه دون أن يغسل يديه، ويفتح الأقفال كلها خزانة بعد أخرى.

حتى الواجهة الشفافة لمائدة عرض مجوهراته النـادرة المغطاة بـزجاجٍ لا يخترقه الرصاص فتحها كمن يخرج بحبيبته الجميلة المخطوفة إلى الهواء قليلاً. يتحول بين تحفه على اختلاف انواعها بسعادة بالغة وبيده كأس مليئة بالكونياك. **(لقد حرّم عليّ طبيبي أن ألتهم الدهنيات الشهية، أو أشرب أكـثر من كأس واحدة، واضاجع أكثر من مرة في الأسبوع، لكن اولئك الاطباء الحمقى لا يفهمون شيئاً عن الرجال العظام من أمثالي. إني شخص مختلف).**

يترك كأس الكونياك بين آن وآخر ليتحسس مجموعته النادرة من التماثيل الأثرية وبعضها مسروق من المتاحف تلبية لشهواته المدفوعة الثمن. يتأمل جدرانه المزنرة بلوحات نادرة لكبار الفنانين بهياج طفل يدخل إلى مخزن للألعاب للمرة الأولى. يداعب خزف «السيفر» الثمين وآنية «الجاليه» العارية وهو يرتجف كمن يتحسس جسد امرأة حلم بها منذ مراهقته وما زالت جميلة كاسطورتها. يكاد يبكي. كانت لديه موهبة البكاء الكاذب أمام نسائه في حالات الطوارىء، لكنه يبكي فرحاً هذه المرة وهو يعود لملاطفة مجموعته الخاصة من المجوهرات والتيجان. يضع تاجاً على رأسه متأملاً نفسه بغبطة في مرآة معتقة لكن فرحته تشوبها غصة (**أتمنى لو توسطت مجوهراتي اسوارة أمي الذهبية التي لا يزيد ثمنها عن الإكرامية «البخشيش» الذي أتركه مكافأة لموظف الاستقبال في فندق «الايدن روك» في «كاب دانتيب». لقد أصرت كارولين على الاحتفاظ بها بعدما أهديتها إياها، وغرقت اللعينة في البحر مع سيارتها مصطحبة معها الاسوارة إلى الأعماق. ولم يعد بوسعي مفاوضتها لاستعادتها. آه النساء. يعرفن دائماً كيف يوجعنني. أحبهن وامنحهن أغلى ما لدي: اسوارة أمي. لكن الحب يمضي دائماً ويبقى الندم والغصات. دوماً كان عليَّ أن أحاول إنقاذ نفسي من اللواتي أحببتهن. ثمة سوء تفاهم مزمن بيني وبينهن. أتحرك مذعوراً من فخاخهن وكل خطوة معهن تقود إلى خلل. مع أمي وحدها أشعر بالطمأنينة. كيف نسيت الليلة أن أمر بها كعادتي واتفقدها في «الفيلا» المجاورة؟ ولكنها ستسامحني. إنها تغفر لي كل شيء. وحدها تغفر كل شيء وتظل تغمرني بالحب. وها هي في بيتها المجاور، بصحة معتلة جعلتني أحوّل أحد اجنحته إلى مستشفى مصغرة خاصة بها. أنبوبات أوكسجين وجهاز لقياس ضربات القلب وغرفة خاصة بالعمليات وطبيب مقيم لحالات الطوارىء. اتهموني بأنني فعلت ذلك تشاوفاً لا حباً بها وأن تركها في القرية كان أفضل لها، وهذا ليس صحيحاً تماماً! وحدها لم تكن الصلة بها كمسيرة بين الكلمات المتقاطعة والألغام**).

يمسح الدموع من عينيه. يشعر بما يشبه التعب المفاجىء. يمضي إلى غرفة المكتبة بعد أن يسكب المزيد من الكونياك في كأسه. يسترخي على مقعده الجلدي الفاخر «الشسترفيلد». يجيل عينيه في كتب تحيط به على الرفوف (كنت أحلم

بقراءتها ذات يوم ولم تتح لي الفرصة لذلك. ثروتي تزداد وعمري يتناقص) ثمة ألم بدأ يسري في ذراعه اليسرى وكتفه، ممتداً إلى صدره. يفكر بالاتصال هاتفياً بأمه لترسل له طبيبها المقيم **(ولكن لا. إنه تعب عابر. لعلي أكثرت من الطعام. الكونياك يساعد على الهضم).**

يعب جرعة كبيرة منه، ويملأ كأسه من جديد بإفراط كما لو كان كأساً من البيرة **(هكذا كنت أشرب أيام الفقر حين أجد من يدعوني... أيام ضوء القمر والشعر والأحلام والبلدة النائية والعافية... أيام كُنت استحوذ على كل ما بوسعي امتلاكه من الزجاجة، اتجرعه من فوهتها بلا قطع ثلجية متجلدة داخل قوالب بشكل قلوب أو بهيئة رمز الدولار ولا مقبلات من الكافيار المطهم على ناصية الخبز المقطع. الليلة أشعر برغبة في العودة إلى البداية، والأكل والشرب كأيام زمان).**

يزداد الألم في صدره، دبيب كنملٍ لامرئي يركض في عروقه وقد اتخذ من قلبه عشاً.

جرسَ الباب يرن. يدهشه ذلك لأن أحداً لا يستطيع الوصول إليه دون المرور بحراسه وبأبواب المدخل المصفحة المقفلة. ينظر إلى إحدى شاشات التلفزيون التي يراقب منها مداخل قصره وغرف بيته. لا يرى أحداً، ولكن الجرس ما يزال يرن وشاشة التلفزيون خاوية تماماً من صورة أي شخص، كأن أصبعاً لامرئية تتابع الضغط على زره الموسيقي الرنين.

يقدر أن عطلاً طارئاً وقع له فصار يرن من تلقاء نفسه، وينهض بصعوبة ليفتح الباب في محاولة لجذب الزر إلى الخارج وإسكاته. في منتصف الطريق إلى الباب يندم لأنه لم يتصل بالحارس ليفعل ذلك عنه **(ما زلت شاباً وبوسعي أن أفعل ذلك)** تقع عينه على وجهه في المرآة. للمرة الأولى يراه بوضوح ويذهل **(من هذا العجوز الذي تعكس المرآة صورته وأنا ما زلت في مقتبل عمري؟ يا إلهي ماذا حدث لي؟).**

يلقي نظرة أخيرة على شاشة التلفزيون الخاصة بالمراقبة، المثبتة قرب الباب عاكسة عدة صور للسلم والمدخل والردهة كما باب المصعد المغلق وباب البيت

الذي لا ترتسم على الشاشة صورة أحد أمامه.

يفتح الباب ليصحح الخلل البسيط. يدهشه أن يجد امرأةً واقفة ترن الجرس بيد مغطاة بقفاز أسود وقد ارتدت ثياباً سوداء وقبعة سوداء وبدت في حداد. ترفع عن وجهها نقابها الدانتيلي الأسود وترميه فوق قبعتها إلى الوراء وتدفع نحوه بوجه نضر لشابة في العشرينات من عمرها. يصعق حين يشاهدها. يهمس بصوت ضعيف: تريسي؟ ولكن ذلك غير ممكن... يغمره هلع مفاجىء. يفكر بمناداة حراسه، بطردها، وهو يكاد لا يصدق عينيه **(ما الذي سأقوله لحراسي؟ هل سأطلب منهم الصعود لطرد زوجتي السابقة إلى الشارع وازجرهم لأنهم سمحوا لها بالصعود ولأن كاميرا المراقبة معطلة)** يشله الذهول **(من غير المعقول أن تكون هذه هي تريسي. ثلاثة عقود انقضت منذ طلاقنا، فكيف ظلت هكذا عجينة من ضوء وصبا وهرمتُ أنا؟)** يشعر بأنه عاجز عن حمل جسده. ساقاه تخونان بقية جسده. يتمدد على المقعد الوثير في المدخل الشاسع للقصر وقد عاودته أوجاع صدره. تجلس تريسي مقابله في أحد المقاعد. يخيل إليه والنور قادم من خلفها أن ثوبها الأسود الشفاف لا يعكس أي ارتسام لجسدها كأنه خاوٍ ومعلق في فضاء الغرفة فوق جوربين اسودين وحذاء عالي الكعب مدبب كرمح.

يتأمل وجهها، ومن جديد تذهله نضارتها. من غير المعقول أن تظل شابة هكذا بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الفراق. أهذه ابنتها؟ إنها كذلك بالتأكيد، ولكن ماذا تريد منه؟ تجيبه كأنها تقرأ أفكاره: جئت لوداعك. **(كيف عرفت إنني اعتزم السفر بعد يومين إلى نيويورك في رحلة عمل وحب في آن؟)** جئت أودعك ليس لأنك مسافر إلى نيويورك بل إلى مكان آخر. وأنت تحدس ذلك ولا تريد تصديقه. جئت لأقول ما وددت دوماً أن أقوله لك: أنت وغد صغير ولست فارساً شاعراً كما كنت تحب دائماً أن تقنع نفسك ومن حولك. عرفتك قادماً إلى بيروت من بلدة نائية في «قمعسان» بحثاً عن الحرية والرزق، وكنت زميلي في الصحيفة وليس في الثراء. غمرتني بأشعارك ورومانسياتك وكنت أكبرك سناً بكثير فبادلتك الحب. ورغم رفض أسرتي لهذا الزواج احتضنك والدي فيما بعد بالنفوذ والثروة ومنحتك بيروت كياناً وأنت الغريب. ولكنك طلقتني بعد

أيام من حصولك على الجنسية اللبنانية بفضل والدي بمرسوم خاص مدعياً أنني كنت أحاول إذلالك والسيطرة عليك بمالي.

يفتح رئيف فمه ليرد عليها. لكنها تتابع: خنتني مرات وكان حبي لك أكبر من كل شيء. قدرتك على الكذب كـانت مذهلة. دمـوعك. تـوبتك. ندمك. الأكاذيب عن ضرورات عملك. وغيابك عني. الأكاذيب كلها كنت أفرح بتصديقي لها لأنني إذا لم أصدقها فقدت رشدي أنا التي بدلت ملتي لأجل الزواج منك! **(من غير المعقول أن تكون هذه تريسي. تريسي، كانت تكبرني بأعوام وكانت خريجة جامعية تتدرب في واحدة من صحف والدها. . . لا بد من تفسير منطقي لما يدور. . . الحراس لم ينتبهوا لدخولها وكاميرا المراقبة معطلة وهذه ليست تريسي، لعلها ابنتها أو حفيدتها).**

تقول له وكأنها تقرأ أفكاره: إذن كنت تعرف دائماً أنني قادرة على الانجاب لا عاقر كما أوهمتني، مدعياً تارة أنك تتمسك بي رغم عجزي عن الانجاب لأنك تحبني، ومهدداً تارة أخرى بالزواج من امرأة ثانية ضرة لي كي تنجب لك طفلاً، وربما من ثلاث نساء أخريات كما تتيحه لك شريعتك.

بعدما طلقتني ظللتُ أبكيك، وأبكي ضياع أسوارة والدتك التي أهديتني إياها ذات يوم تدليلاً على مكانتي عندك أنا المرأة التي لا تنجب. ظللت دائماً أحبك بطريقة ما، وحينما أتأمل أجد سيارتي تقودني إلى مـرآب بيتنا القديم في مبنى «الهاميلتون»، وظللت أمارس تلك العادة الموجعة حتى تحول المـرآب إلى وكالة تجارية لبيـع المكانس الكهـربائيـة!. . . ولم أكنسك من حيـاتي إلا يوم اكتشفت أنني حامل بعد زواجي من بيار الذي أحبّني وقبل الارتباط بي رغم مصارحتي له بأنني عاقر. إذن كنت تكذب حين ادعيت أنك قمت بفحوصات طبية وأيدك صديقك الدكتور بسام مؤكداً أنك بأفضل حال. لم يعادل فرحتي بالحمل إلا حزني بك. قلت لنفسي: إذن كان حبك الكبير وغداً وكذاباً.

ـ لم أكن وغداً. كنت أخشى إهانة رجولتي إذا عرف الناس أني لا أنجب. كنت مذعوراً من أسرتك التي تراقبني وأنا آكل عندكم كأنني ابن الطباخة الذي استطاع أن يتربع في غفلة من الدهر بينكم وتحسب عليَّ كل غلطة. كان عليَّ أن

أكون مهذباً مرتين كي يتم قبولي في دائرتك القاسية الهازئة. كان عليَّ أن ألعب دور المهرج في السهرات كي يقال همساً: صحيح أنه من بلدة متخلفة وأصل «وضيع» ولكنه ذكي وخفيف الظل. كان بوسع بيار الذي تزوجته أن يكـون صامتاً السهرة كلها ويقول أشياء غبية دون أن يقال أنه متخلف فهو منكم. كان عليَّ أن أتعب مرتين كي أصير مقبولاً. كنتُ زنجياً سرياً كأن بشرتي البيضاء مبطنة بالأسود. . . ولم أجرؤ على أن أبوح بسري.

ـ لكن قهرك لم يجعلك تتعاطف مع مقهورة مثلي بشفقة من حولها وربما احتقارهم لها لأنها عاجزة عن الانجاب.

ـ ولكنكِ عملت ونجحت وحملت فعلامَ تلومينني؟

ـ حملت ولم تكتمل فرحتي. نزفت طويلاً ببطء ممددةً في سريري وكافحت لاحتفظ بحملي لكن تقدمي في السن جعلني أجهض. قـال لي الطبيب بعـد محاولات عديدة فاشلة أنه لم يعد بوسعي الاحتفاظ بحملي. احتفظت بي زوجةً ريثما رتبت أمورك المالية ثم طلقتني. وريثما فعلت كان الأوان قد فات بالنسبة لي وحرمتني من الأمومـة. أنت لم تحبني حقاً في أي يـوم. كنتُ خشبة خـلاص تمسكتَ بها جيداً ريثما عبرت إلى أول جزيرة. . .

ـ بـل أحببتك. لكنـك كنت تتبدلـين. تـترهلين. تسمنـين. تثملين. تتكلمين ببذاءة ولا عمل لك غير التَجسس عليَّ ومراقبتي.

ـ وأنت أيضاً سجنتني بغيرتك. وهي غيرة كانت تزداد ضراوة بعد كل خيانة لي من خياناتك. هل تظن أنني لم أكن أعرف شيئاً عن ميرنا التي سرقتَ مني اسوارة أمك لتهديها إياها وظللت تقرعني شهوراً لأنني أضعتها؟

ـ لقد تحاببنا ذات يوم وتعاركنا وافترقنا، وتظلين دائماً زوجتي الأولى الحبيبة التي علمتني كيف آكل الكركند بالشـوكة والسكـين وبقية الأدوات الجـراحية المعقدة، وكيف أميز بين العدس والكافيار وبين السردين والصومون فوميه وفي أي درجة حرارة أشرب نبيذي وكيف أرتدي ثيابي بأناقة وكيف أميز بين الجرة والسيفر والجاليه وكيف أتذوق الفن والتحف وأنا مدين لك بذلك كما أنت مدينة لي بلحظات حب خارجة عن المألوف حملتك خلالها كالمهر وركضت بك فوق

شواطىء اللذة وتوغلت بك في كثبان الرعشات الضوئية اللامتناهيـة. . . ألا تذكرين؟.

إننا نلتقي، نتبادل الحب والمصالح ـ أجل المصالح إذ لا حبٌّ مقطراً ـ ونحيا أياماً لا تخلو من المر والإساءات ثم نفترق. واعترف أنني تجاوزت المقبول حين ادعيت لك أنك عاقر ولم أقر بنقصي، لكنني كنت مضطراً للدفاع عن نفسي في وجه عالمك الذي يتأهب ليدوسني. . . وتظلين دائماً زوجتي الأولى الحبيبة.

يخيل إليه أن علامات التأثر تبدو على وجه تريسي.

جرس الباب يرن.

يحدّق في شاشة المراقبة التلفزيونية. لا أحد.

يحاول أن يمد يده ليضغط على أحد أزرار لوحة موضوعة فوق المنضدة القريبة لاستدعاء حارس يصلح الجرس أو شاشة التلفزيون، وليؤنبه لأن الناس يقرعون بابه دونما رقابة. لا يقدر. تظل يده تشد على صدره الذي يجتاحه ضيق كالألم.

تتجه تريسي صوب الباب وتفتحـه. تدخـل سيدة جميلة بثيـاب الحداد السود وشعرها الطويل يغطي كتفيها والمساحيق السميكة تكاد تخفي مـلامحها البلدية الجميلة. يحاول أن يتذكر أين شاهدها ويشعر في الوقت نفسه أنه لا يريد أن يتذكر.

تمشي صوبه كالقذيفة وهي ترعد: أيها الـوغد. . . أنـا زوجتك الأولى وليست هي فكف عن الكذب. هل نسيت «تحيات»؟

تقولها وهي تهز خصرها بأسلوبها الخاص بها الذي عرفه وأحبه مرة.

يدهش رئيف. «تحيات» أيضاً ما تزال نصف شابة في الأربعين كما كانت يوم تزوج منها. **(شاهدتها في الملهى ترقص. فقدت توازني. تبدو شهية حينما تتحرك على إيقاع الطبول. ظننتها نموذج المرأة الجذابة المستحيلة العصية على الامتـلاك بغير الـزواج. هكـذا اوهمتني وكنت طـالبـاً جـامعيـاً لا يملك مـا يسدّ رمقه ويفي بأقساطه. تزوجت منها وكنت صغيراً في التاسعة عشرة من عمري وطلقتها بعد ذلك بأشهر. ألم يعد ثمة من يغفر طيش الشباب؟).**

تجلس تحيات إلى جانب تريسي في مناخ وئام كأن كراهيتهما المشتركة نحوه تجمعهما أكثر من أي حب!

ما تكاد «تحيات» تستوي جالسة حتى تقول له وكأنها تقرأ أفكاره: لم يكن طيش الشباب بل حنكة الكهول. كنت تستولي على كل ما أربحه، لتدفع أقساطك وتفك رهن أسوارة أمك وتزودها ببعض المال وأنا أتجاهل كل شيء إلى أن صرت تضربني، تغار عليَّ وتريد مالي في آن...

ما كاد يفتح فمه مدافعاً عن نفسه حتى رنّ جرس الباب مجدداً لا يرى أحداً على الشاشة الخاصة بالمراقبة. تفتحه تريسي. تدخل ميرنا. يراها كمن يرى الأشياء في حلم. **(إنني بالتأكيد ثمل، ولعلي نائم أرى كابوساً وسأستيقظ منه بعد قليل، ولولا الألم الحاد الذي بدأ يمزق صدري لقفزت من فراشي بقوة الارادة كما أفعل حين أرى كابوساً وأقرر مغادرته وأنجح).**

تقترب ميرنا منه فيرى بوضوح ملامحها الشقراء الذهبية وتتأجج عينان من عسل كما فعلتا دائماً.

تقول: صدقتُ أنني حبك الكبير رغم أنني متزوجة يوم أهديتني أسوارة ذهبية عادية وقلت لي إنها أسوارة أمك المتوفاة! ولم يخطر لي ببال أنك تقربت مني وزوجي للتعارف مع صديقه في الجامعة، ابن الحاكم العربي. ويوم سمعت من الصحف بزيارتك له واستعدادك لاصدار مجلة ناطقة باسمه ووالده تعجبت كثيراً حتى قلت لزوجي: كان الرجل (ناصرياً) فماذا حدث؟ أجاب: مات الملك عاش الملك. ومن يدفع يتربع على عرش أبجدية أمثاله.

تسألها تريسي بلا حقد: إذن أنت السيدة التي سهر معها ليلة رأس السنة وكنا ما نزال متزوجين وادّعى أنه كان يؤسس مجلته؟

تجيب ميرنا: لا. لقد زارني بعد الظهر مدعياً أنه مضطر للسهر معك، ويبدو أنه سهر ليلتها مع امرأة ثالثة.. واختفت يومها الاسوارة وحرت هل سرقتها مني المربية أم الطباخة أم تراه ندم وقرر استعادتها!...

يرن جرس الباب. ينظر رئيف إلى الشاشة، فيرى المدخل خاوياً. يبتلع القطرة الأخيرة من كأس الكونياك ويتركه يَسقط على الأرض. الباب ينفتح من

تلقاء نفسه. تدخل سيدة متوسطة الجمال والأناقة. ولا يتذكر وجهها. تقترب فيراها بوضوح (**لا ليس بوسع أحد أن ينسى ذلك الشعر الأسود المدجج بعينين زرقاوين. إنها بالتأكيد هناء وأنا بالتأكيد ثمل**). دون أن تلقي التحية، تقول له هناء كأنها تقرأ أفكاره: كعادتك صح وخطأ في آن. نعم أنا هناء ولا، أنت لست ثملاً فحسب بل حالك أمرّ وادهى. إذا كانت ميرنا وتحيات وتريسي عرفن وجهك الشاعر والصحافي المثقف فقد اتقنت معي حياكة وجه المناضل وربحت الكثير منه ووثّقت علاقاتك التجارية عبره وأنا لا أدري. كنتُ أركض ليل نهار مغامرةً بحياتي تحت القصف لأكتب لمجلتك «الحريات» أفضل التحقيقات. وحين لا تدفع لي راتبي أشكرك لأنك (مناضل) نقي هكذا ولأن المجلة ظلت تصدر حتى خلال الحرب. كنتُ كل ليلة أحضر من بيت أمي المطلقة إلى مقر المجلة، لامبالية بالقذائف، متخمة بالكلمات الكبيرة والمثل العليا، ولم أكن أدري أنك بدأت مسيرة التخمة مع المال.

أنهارٌ من المال من هنا وهناك، وكانت مشكلتك الوحيدة أن توازن أي الفرقاء يدفع أكثر لنعوي معه، وكانت مشكلتي أنني لم أكتشف يومها استقلالية فكري عن جسدي وكان جسدي عبداً لك، حتى اكتشفت في قبو مبنى «الحريات» عشرات الذين رفضوا الانصياع لمصالحك وسجنتهم. صعقت يومها: مجلة «الحريات» تحولت إلى سجن ولبنان الثورة إلى كابوس، وأنت الذي يدّعي الدفاع عن الحريات يدافع عمن يدفع أكثر! وفهمت للمرة الأولى كيف تحدث التحولات المباغتة عن الثوابت والمعنى العملي لعبارات غائمة مثل الانتهازية والوصولية والانحطاط الميليشياوي والعفن المافياوي. لن أنسى ليلة اكتشافي لحقيقتك. ليلتها استطعت التسلل إلى مبنى المجلة، وكنتُ أتخيلك جالساً في مكتبك تحت القصف ولم أكن أدري أن مشاريعك كبرت في غفلة مني ومن أمثالي وانتقلت بها إلى لندن، أما مبنى المجلة فقد هجره حتى الحارس ذعراً من القصف، وثمة حكايا رعب تنتظرني من شفاه مساجينك المنسيين في القبو، بعد تخلف الحراس عن المجيء خوفاً من القصف. اطلقتُ سراح السجناء جميعاً بعدما صُعقت للمفارقة: مبنى «الحريات» صار سجناً!

شاب واحد لم يقدر على الهرب ولفظ أنفاسه على ساعدي وكان في

العشرين من عمره. تذكره بالتأكيد. كان سائقك أنيس. قال لي وهو يحتضر إنه عرف عنك أكثر مما ينبغي. شاهدك تحالف سفارة الكلاشنكوف وأعداءها في آن وتقبض منهما معاً، وحين رفض أن يقبض ويسكت سجنته ونسيته ونسيت قبل سفرك أن تقول لجماعتك إنه بريء فعذبوه حتى اعترف بكل ما طلبوا منه الاعتراف به. وحين عُدتَ من رحلتك بأموال جديدة وتوجيهات ومواقف جديدة (خدمة للقضية) تتطلبها (ضرورات المرحلة)، كان أنيس المسكين قد مات بين يدي.

لفظ أنفاسه الأخيرة أمامي، بعدما احتضر طويلاً قبل ذلك تحت التعذيب في قبو «الحريات».

لم أقل شيئاً حين شاهدت صورته في أحد ملصقاتك على أنه مخطوف مفقود يرجح أنه شهيد. فقد أدركت أنكم تخلصتم من الجثة وصرت أخطط لتكن لك ميتة مؤلمة تتعذب طويلاً قبلها ولم تتح لي الفرصة لأنك لم تعد من لندن منتقلاً منها إلى باريس مغلقاً دكاكين الأبجدية ومعلناً عن حقيقتك الأولى كرجل أعمال في المسافة بين بيع السلاح والعقارات والمخدرات والنساء.

يتحامل رئيف على الألم في صدره ويجيب بصوت واهن: هذا غير صحيح. أنا لم أتخل عن القضية. هي التي تخلت عن نفسها. أنا لم أهرب إلا حين وعيت أنني لست أكثر من حجر شطرنج على رقعة اللاعبين الكبار الذين يأمرون بعض اللاعبين الصغار بتحركاتهم ويضحون بالوزير والفيل والملكة ناهيك عن الحصان والفارس. كنتُ دائماً أحاول أن أنجو بنفسي واستمر. كان ذنبي الوحيد أنني أكثر ذكاء من الذين ماتوا ضحايا وهم يتوهمون أنفسهم أبطالاً وأنني وعيت الآتي قبل سواي. أما موت أنيس، فأنا فعلاً آسف لذلك، ولكن في الحرب ليس بوسع أحد أن يضمن وصول كل رصاصة إلى هدفها. الثورة تعني أيضاً الضحايا، وحين تضلّ طريقها يصير الكل ضحايا. . . وأنت ضحية نفسك. . .

تفتح فمها لترد عليه لكنه يقاطعها متابعاً: كنت تعشقين جسدي وتغطين تلك الصلة المخزية في نظرك بقشرة (عقائدية) حيث تتبنين فكري، ثم تضخمين لنفسك أخطائي لتبرير هجرك لي فكرياً بعدما هجرتك أنا! وأعترف لك بأنني

أفضل عاهرة حقيقية على مفكرة (عقائدية) هيولية تخلط بين ذروتها الجسدية وفرحتها الفكرية.

يسمع جرس الباب يرن. يراه ينفتح من تلقاء نفسه. تدخل شابة ترتدي السواد كزائراته كلهن. لا يتذكر أين شاهدها. تميل إلى السمنة ولها وجه جميل بغمازتين. تجلس دونما استئذان إلى جانب الباقيات. يراهن جالسات حوله كما لو كان في محاكمة كابوسية عجيبة وهو المتهم. ولكن من هذه القادمة الجديدة وعلام ثياب الحداد؟ تقول: أنا ناهد. سكرتيرتك. لم أخلط يوماً بين ذروتي الجنسية وفرحتي الفكرية لأن أمور الفكر لا تهمني وهو ما أعجبتَ به بشدة لكنك غدرت بي أيضاً. بين الترغيب والترهيب والقذيفة والأخرى امتلكتني على الأرض القذرة للمكتب.

يسمع صوته شبيهاً بالحشرجة وهو يدافع عن نفسه: ما ذنبي إذا كنتِ تريدين ذلك؟ فمك يقول لا وجسدك يصرخ نعم. حين تدس امرأة جسدها داخل معطفي لا أعرف كيف أقول لها: معذرة يا سيدتي، فأنا لن أتزوج منك، فاذهبي ببكارتك إلى مكان آخر.

ـ ثم هجرتني ولم تبال بتوسلاتي...

ـ لقد تعايشنا وتبادلنا اللذات والمباهج والأنانيات... فالحياة هكذا ونحن هكذا...

جرس الباب يكاد لا يتوقف عن الرنين. يشعر أنه عاجز عن الضغط بيده على الزر الأحمر لاستدعاء حراسه. الألم في صدره يمزقه. عشرات النساء يدخلن بثياب الحداد السود. وجوههن تقترب من وجهه وتبتعد متلاحقة كما في الكوابيس. يصرخن وهنَّ يقربن ملامحهن الغاضبة من عينيه دون أن يقوى على الحراك لأوجاع صدره...

ـ أنا التي انتحرتْ بسببك وتظاهرتَ بالأسف لكنك كنت فخوراً بذلك.

ـ لم تنتحري بسببي. كنتِ منهارة عصبياً تفتشين عن مشجب تحملينه مسؤولية موتك.

ـ أنا التي صدمتَها بسيارتك وما زالت مقعدة.

ـ كان الضوء أخضر ولم أرك، ولم تنتبهي حين حذرتك والمارة. . .

ـ أنا التي طاردتني أعواماً وحين حصلت عليَّ صرت تحاول إذلالي. . .

ـ مع الحب لا ضمانات. . . وأنا رجل يقطن في أعماقي صياد. . . أحب الدرب لا الوصول.

ـ وأنا التي أهديتَها قلادة ماسية ثم سرقتها وعاتبتني لأنني أضعتها.

ـ رغم ثرائي كنت أعاني من نوبات بخل تعقب نوبات كرمي. أنا بشر يا سيدتي ولست عاشقاً نموذجياً.

ـ وأنا التي اشتهيتَها حتى الجنون ولم تستطع الحصـول عليها فتعمـدتَ تلويث سمعتها.

ـ لست فخوراً بذلك. كنت أتمنى أن يدفعك ذلك للاستسلام لي!

ـ أنا التي قضيت معها وقتاً طيباً ذات أمسية حرب وبينما كنتَ تعيدني إلى بيتي رن جرس الهاتف في سيارتك. فأنزلتني في الشارع المرعب لأن اجتماعاً مهماً يناديك وقلت لي كاذباً إنني سأجد التاكسي الذي يرجعني إلى بيتي. واغتصبني بعض (مقاتليك)!

ـ أعترف أنني لست فارسـاً بالـغ الشهامـة. لم يكن بوسعي أن أخسر الصفقة وكنت سأخسرها إذا تخلفت. . . مؤسف أن يحدث ذلك لك ولكن في زمن الحرب حين نغادر بيوتنا نغامر أينما ذهبنا. . . هذا ليس ذنبي.

ـ أنا الراقصة التي أحبتك وتركتها لأحد زبائنك. . . أهديته إياها.

ـ لقد أوجعني ذلك ليلتها. لكنني كنت أعرف أنك ستتخلين عني على أية حال.

ـ أما أنا فقد هجرتكَ إلى رجل آخر قبل أن تهجرني إلى امرأة أخرى. فانتقمت مني بطردي من عملي!

ـ أنا ككل الرجال أحب أن أكون زير نساء. وقد عز عليَّ أن تسلبيني دوري وتكوني «زيرة رجال». كان لا بد من عقابك!

ما أكثرهن حوله. متوجعاً يتذكر: إن خزائن تحفه كلها مفتوحة ويخشى

عليها من السرقة.

يحاول أن ينهض لاغلاقها وإحكام إقفاله لها ولكنه يعجز عن الحركة ويتسائل: هل جئن لسرقته؟

يحدّق فيهن، جالسات حوله في حلقة السواد. **(أجل. إنني في محاكمة كالتي تقوم بها الساحرات لمن يتوهمنه جلّادهن في محرقة ما. كيف أشرح لهن أن المرء قاتل وقتيل في كل لحظة تلهو به أقداره، وأنني لست بالأبيض ولا بالأسود لكنني مجرد رجل رمادي آخر؟ كيف أشرح ذلك لقبيلة من نساء عمري اطبقن عليَّ في دائرة مغلقة لمحاسبتي، وستنضم إليهن بالتأكيد نساء ونساء فقد عرفت الكثيرات. أكاد أكون سعيداً بحضورهن هكذا مرة واحدة والحوار بلا قفازات. ما يقلقني هو ذلك الخنجر اللامرئي الذي يغوص ببطء في صدري ويؤلمني ولولاه لضحكت من هذا الكابوس).**

رنين جرس الباب يكاد لا يتوقف في أذنيه. يرى كارولين تدخل. تلتمع في عينيه أسوارة أمه الذهبية الملتفة حول معصمها ويغمره المزيد من الذهول: ولكن كارولين ميتة فكيف حضرت؟ وهل بعض الحاضرات ميتات أيضاً؟

يشعر بالذعر ويأتيه صوت كارولين: نعم أنا ميتة. ولكنني أحببتك ذات يوم قبل موتي. كنت تكبرني بعشرات السنين لكنني أحببتك حقاً. كانت لديك قدرة مذهلة على أن تتصرف كمراهق في كذبك الصادق ونزقك الطفولي. وبعدما امتلكتني زهدت بي وتحولت إلى مصباح منطفىء في سريري وهجرتني إلى نصر آخر. لم يعد ثمة ما يشعلك غير الخيانة ولم تعد تحاول امتلاكي بحرارة إلا بعد أن تخونني حيث ترجع إليَّ عاشقاً حياً. كنت أصغر سناً من أن أفهم ألاعيبك لكنني بعد طلاقنا تعلمت الكثير. ولولا شجارنا، وقيادتي لسيارتي ثملة وتدهورها بي وموتي وبقائي في قاع البحر دون أن يراني الغواصون الباحثون عن جثتي لقمت بإثبات ذلك لك!

رنين جرس الباب مستمر. يحاول رئيف أن يحدق في الشاشة التلفزيونية آملاً أن يكون القادم أحد حراسه الذين تنبهوا أخيراً إلى جلبة النساء عنده وهن يتكلمن جميعاً مرة واحدة، كما في محاكمة هذيانية.

تدخل سيدة مهترئة الجسد والثياب وتصمت الجالسات كلهن لحضورها. يحاول أن يحدِّق فيها ورعب كبير يكاد يغمره. ترتدي السواد كأنها لم تعرف سواه عمرها كله. ضئيلة الجسم، عجوز يستطيع أن يقسم أنه لم يعرفها في حياته كلها، عيناها محمرتان بجفون متآكلة من بكاء مزمن كجدران مغارة أحرقها الملح على مر العصور. وبالرغم من ذلك يبدو له وجهها مألوفاً. تقول له بمهابة جعلت الجالسات ينزلن سيقانهن المعقودة ساقاً على ساق ويجلسن كما الطالبات في مدرسة الحزن: أنا أم أنيس. إسم لا يعني لك شيئاً بالتأكيد. أنيس ابني كان سائقك الذي عُذِّب حتى الموت. وأنا مت منتحرة حزناً عليه. هل لديك ما تقوله لي قبل موتك؟

يشعر بذعر حقيقي (**هل سأستيقظ من كابوسي قبل أن يصدرن الحكم؟ هل سأنهض قبل أن أموت؟... النجدة... أين صوتي لأصرخ النجدة؟**) تكرر الأم الحزينة سؤالها: هل لديك ما تقوله لي قبل أن تموت؟

يستولي عليه شعور بائس ومرّ، لمرارته صوت كالأنين.

لم يكن لديه ما يقوله لها ثم إنها بدت له وكأنها تشبه أمه. يتساءل: هل هي والدته أم والدة الآخر؟ في تلك اللحظة بالذات يراها تستل خنجراً نحيل النصل يلتمع أمام عينيه. لا يتحرك. لا يصرخ. لا يدري لماذا يستسلم. يخترق النصل قلبه ويصلبه في لحظة ألم بالغة. ويراها تستعيده ودمه يقطر منه وترمي به على الأرض.

ذراعه الممتدة صوت الجرس لطلب النجدة ولاستدعاء حراسه تسقط على الزر الأحمر فوق اللوحة وترن الأجراس.

بهدوء تنهض زوجته الأولى الراقصة تحيات ويخيل إليه وهو يكاد يتلاشى أنها تطبع على شفتيه قبلة وداع وتمضي. تنحني عليه وجوه الباقيات ويحذين حذوها. يراهن بصعوبة وهو يشهق متوجعاً عاجزاً عن التنفس.

يغادرن البيت واحدة تلو الأخرى وكارولين تخلع أسوارة أمه وتتركها على صدره. يمضين كلهن أما العجوز أم أنيس فتبدو له وكأنها تشبه أمه أكثر وأكثر وهي تدنو منه كما في الأحلام مقربة وجهها من وجهه ويخيل إليه أنها أمه بالذات

ويناديها مستنجداً (يا أمي) لكنها تبصق في عينيه فيغمضهما وهو يهوي في بئر، ويتلاشى. . . يتلاشى. . .

يدخل الحراس والسائق وهم يركضون مرتاعين لرنين الجرس الخاص بالاستغاثة. يدهشهم أن يجدوا الباب الخارجي مفتوحاً ورئيف مرمياً على مقعد المدخل ويبدو ميتاً وعلى صدره أسوارة ذهبية عتيقة وعلى الأرض خنجر كأنه أثري. . .

البوليس يغلق أقفاص التحف. الحراس يؤكدون أنهم لم يروا أي إنسان يدخل إلى القصر المحروس جيداً بعشرات المنبهات الالكترونية. . . ولم يسمعوا رنين جرس الباب ولا تفسير لديهم لظاهرة الباب المفتوح.

المحقق يؤكد: يبدو أن شيئاً لم يسرق. لعله مات بالسكتة القلبية.

الطبيب يؤكد ذلك.

المحقق يحار في أمر ذلك الخنجر القديم الذي وجدوه إلى جانب جثة الميت.

والدة رئيف تؤكد أنها لم تره من قبل، لكنها ترجِّح أن يكون من المجموعة الأثرية لابنها.

تزداد حيرة المحقق حين يقول له الموظف الخاص برفع البصمات إن الخنجر خال من البصمات، حتى من بصمات رئيف. . .

والدة رئيف تنتحب بضعف، ورغم فجيعتها بالوفاة المفاجئة لابنها بالذبحة القلبية لا تملك إلا التساؤل: من أين جاءت أسوارتي؟ قال لي رئيف إن كارولين كانت ترتديها حين ركبت سيارتها وتدهورت بها السيارة في البحر أمام عينيه، ولم يعثروا بعدها على جثتها. . . فمن أين جاءت أسوارتي؟ وذلك الخنجر. . .

١٩٩٤/٨/٢١
الساعة ١٢,٣٩ ليلاً

جنّية البجع

لا تتحسن الحال حتى إذا حدثت الأمور للبشر على النحو الذي قد يشتهونه!

هيراقليطس

في أعماقنا عالم حي ومعقد كالذي نحيا فيه. ولكن ليس بوسعنا أن نلعب دور السياح في أعماقنا!

جوناثان ميلر

كي تعرف مشاعرك التي تحكمك، تفحّص قلاعك المشيدة في الريح.

كبير الأساقفة واتلي

جنّية البجع

ضباب. حبيبي يرتدي اليوم عباءة الضباب والرطوبة تسيل من قدميه.

أحدّق فيه عبر نافذتي كعادتي كل صباح وأنا اتجرع قهوتي قبل ذهابي إلى عملي، كمن يسترق النظر إلى عشيقه.

زوجي يغار منه. يقول لي: لو عشقتِ رجلاً لبارزته في غابة بولونيا كالفرسان، ولكن ما حيلتي مع زوجةٍ تخونني مع نهر اسمه السين؟

أتأمل النهر وهو يبدّل وجوهه وألوانه في كل لحظة... يركض أمامي مزنراً بالخضرة بجمالٍ مستحيل الاحتواء يدفع بقلبي حتى حافة البكاء... وقد سكب فيه فنان مجنون أصباغاً فضية رمادية ما كادت جنّية «جزيرة البجع»(*) تمسّه بريشتها حتى استحال إلى نهر من زئبق.

أتجرع قهوتي واحتفي بذلك البهاء كله، وبجزيرة البجع كما أحب تسمية هذه الجزيرة الممشى...

خلف نهر السين ينتصب برج ايفل بدانتيله المعدني الطريف كلعبة ميكانو لعبقري مجنون. مبنى الراديو العصري إلى يميني. وإلى يساري مبنى قصر شايو البديع بحديقته التي ترقص تماثيلها في الليل سراً وتتعرق بشرتها صيفاً.

ثوب الحدائق يموج خضرةً حتى مبنى «الايكول ميليتير» فبرج «المونبارناس» فبيوت تزدهي بخصوصيتها وعراقتها حتى كاتدرائية القلب الأقدس «الساكروكور» التي يكاد ضباب مونتمارتر يلفها تحت وشاحه.

لم أعد أشعر بالغربة في باريس. أخجل من نفسي أحياناً لأنني لم أعد أشعر بالغربة في باريس كمن خان حبيباً قديماً اسمه بيروت.

لا أحد يحب الاعتراف بحبيبين في آن وأنا تربيت على أغنية «إنت وبس اللي حبيبي» ولا تعددية في أي شيء. ولكنني أحبهما معاً وأتنهد راحةً وحريةً كلما

(*) Allée des cygnes ـ جزيرة شبيهة بممر من الخضرة تتوسط نهر السين قرب برج ايفل.

هبطت في مطار أورلي الباريسي راجعةً من زيارة إلى بيروت! أغمض عينيَّ تحت وطأة شعور خافت بالذنب نحو مدينتي الأم بيروت. عليَّ اليوم أن أختار وأنا عاجزة عن الاختيار. . . حين أكون بعيدة أشعر أنني خنت بيروت، وحين أذهب إلى هناك أشعر أن بيروت خانتني!

ثم إن الأمور أكثر تعقيداً من ذلك. . . (قال لي زوجي في الليلة الماضية قبل أن ننام: عليك أن تحزمي أمرك وتتخذي قراراً: البقاء وحدك في باريس أو العودة معي إلى بيروت.

باللغة اللبنانية، هذا الكلام يعني: الطلاق. من غير المقبول أن تعيش امرأةٌ في باريس وحيدة، وزوجها في بيروت ودونما رضاه.

ظللت صامتة.

سألني: هل ثمة رجل آخر؟

ظللت صامتة.

كيف أشرح له أنه ثمة مدينة أخرى وحياة أخرى لم أعد راغبة في مفارقتها؟

قال: ليس بوسعي أن أفهم كيف تفضلين حياة العمل والشقاء والفقر النسبي هنا، وحيدة في باريس على حياة الثراء هناك في بيروت.

ظللت صامتة لأنني أنا أيضاً لم أكن أفهم ذلك. ثمة رقعة سوداء داخلي يلفها الضباب. أعماقي ضباب. «النَعَم» ضباب و «اللا» ضباب والدروب البديلة ضباب والفراش الزوجي يغوص في الضباب.

ثم إننا قلنا كل ما يمكن أن يقال في الشهرين الأخيرين بعدما تزوجت ابنتنا من زميلها الجامعي الذي تصادف أن كان لبنانياً مثلنا وعادت معه إلى بيروت، ولحقت ابنتنا الثانية بشقيقها لمتابعة تحصيلها العالي في إحدى جامعات الولايات المتحدة.

بعد ربع قرن من الحياة المشتركة مع الزوج ذاته نصير قادرين على سماع ما لا يقوله ولكنه يضمره: أريد زوجة مرتاحة مرفهة أنيقة بالكعب العالي والعدسات البصرية اللاصقة تنتظرني في البيت وتشرف على الطباخ وبوسعها

مرافقتي إلى السهرات ورد الدعوات بأحسن منها. أريد بيتاً مفتوحاً للناس. أريدك في البيت كما كنا قبل الحرب... باختصار أريد أن تعود شهادتك الجامعية إلى المكان المناسب لها: معلقة على جدار المطبخ في (الفيلا) الزوجية!

أعرف أن المهاترات آخر الليل مع رجل أحبه (بالرغم من أنه هكذا وأنه زوجي!) أمر موجع قد يدوم حتى مطلع الفجر لخلافنا الشبيه بالهوة...

يحدث أحياناً أن نحب «الشخص الخطأ»، ولعلنا لا نحب حقاً إلا «الناس الخطأ».

لم يكن بوسعي مناقشة ذلك كله من جديد معه ولا ممارسة ترف الشجار كي أكون في عملي في الوقت المبكر المعتاد.

كرر: «لم يعد بوسعك اتخاذ دراسة الأولاد في باريس حجة للبقاء هنا كما لم يعد بوسعي البقاء هنا والانتظار. يجب أن تحسمي أمرك وتتخذي قراراً فأنا مضطر للعودة إلى مكتبي في بيروت وإدارة أملاكي وشقيقاتي كما قبل الحرب.

كدت أجيب: أنت استطعت تحجير حياتك منذ بدأت الحرب وتريد اليوم متابعتها من النقطة الغابرة التي توقفت فيها، كتمثال عاد إلى الحياة، أما أنا فقد بدأت حياتي الحقيقية بالحرب التي اطلقت سراحي... كنت حيّة أعمل طوال تلك الأعوام وتبدلت...

ولكنني ظللت صامتة إذ سبق أن قلت له ذلك مراراً)..

اشرب ما تبقى من قهوتي على عجل. ارتدي ثيابي. أصلح من زينتي. مرآتي تقول لي بقسوة إنني في الخامسة والأربعين وأبدو أكبر سناً من ذلك بعينين لم يفلح ماكياج ما تحتهما في إخفاء هالتي السواد المتورمتين. وثمة تجاعيد حول فمي وفي جبيني فشلت المعاجين الليلية في مسح شهادتها على تعبي وهمي، وركضي طوال السنوات التسع الماضية لتأمين قوت أسرتي. ولكن حين حل السلام في لبنان منذ أشهر دبت الحرب في حياتي...

أهرول صوب المترو. (ألفتُ الزحام الخانق اليومي. رائحة العرق للذين لا يملكون ثمن العطر ويجدون أنفسهم مساء أكثر تعباً من الاستمتاع بحمام. المعركة الصغيرة اليومية لاحتلال مقعد في المترو يقيني الوقوف في مداخل العربة

وممراتها معرضة للتدافع بالمناكب، حين أصير جزءاً من كتلة بشرية تحملني موجاتها وتلطمني بالجدران المعدنية وتروح بي وتجيء، نابضة بالارهاق والحيوية والزخم، وأقدام تدوس أخرى تعتذر أو لا تعتذر، ونهر يكاد يجرفني وهو يتدفق نازلاً عبر الأبواب المعدنية الآلية التي تنفتح بضغطة خفيفة دائرية على المقبض كآخر ما يميز الصلة بين الميكانيكي والبشري ولعلها آخر (تواصل) بينهما.

ويوم لا أفوز بمقعد، يكاد النهر البشري النازل من المترو في المحطات يجرفني بقامتي النحيلة وجسدي الواهن المعاند، فأتمسك بأحد الأعمدة المعدنية ريثما يصعد (الرافد) الذي كان ينتظر على رصيف المحطة ومن جديد تقذفني موجاته بعيداً عن عمود «النجاة» الذي يتوسط العربة حتى الباب الآخر للمترو المزمجر الراكض في دهاليز العتمة وذعر صغير يستولي عليَّ: ماذا لو انفتح الباب تحت ثقل النهر الهادر؟

كل صباح أحمد ربي في المترو لأنني لست محاطة بكتلة بشرية زحامية في مدينة مكبوتة وإلا لتعرضت كامرأة لإذلال اندساس الأجساد المحمومة والأصابع المشتعلة.

صحيح أنه لم يحدث أن تخلى لي رجل عن مقعده هنا، بالمقابل لم يحدث أن أهانني أحدهم مندساً في معطفي في زحام الركض وراء اللقمة، فكل امرأة خارج بيتها ليست هنا «مشروع غواية» أو «عاهرة» حتى تثبت العكس كما في بلدي.

سألت مرة صديقتي التي تحجبت: لماذا؟ فأجابت: لأرتاح من المضايقات وأصير حرة!

أشياء صغيرة تشدني إلى هذه المدينة كامرأة أريد أن أحدّث عنها زوجي لكنني أعرف أنه لن يفهمها، منها أنني لست هنا بحاجة إلى إذن منه لأحصل على جواز سفر! إني شخص مستقل هنا، مرتبط بأسرة، لكنه شخص له كيان. إنسان مقبول لذاته كأي رجل في بلادي. أشياء كثيرة تشدني إلى باريس لن يفهمها... بلى سيفهمها فهو يفوقني ذكاء لكنه سيقول لي إنني أوليها من

الاهتمام أكثر مما تستحق، وإنني لم أعد مضطرة للاحتكاك بحقائقها اليومية القاسية).

النجوم راضية عني اليوم. لقد وجدت مقعداً في المترو. استرخي قليلاً. اخرج كتابي ونظارة القراءة. هذه الجلسة أيضاً سأفتقدها حين أعود إلى بيروت (يفتح لي سائقنا المطهم الباب، فأركب سيارة المرسيدس في الطريق لأداء الأعمال الخيرية الاستعراضية ككفارة عن رغد العيش، وأنا أثرثر مع صديقاتي المدججات بالأقراط الذهبية والأساور والزينة والثياب الفاخرة في معركة مستمرة للفوز بلقب الأكثر تعبيراً عن ثراء الزوج الحي أو الميت. . . كأننا إعلانات متحركة عن البطر).

ها أنا أرتدي الآن بسيط الثياب. أهرول بحذائي ذي الكعب المنخفض في الشوارع وأزقة المترو. أطالع الكتب في قطارات الطبقة الفقيرة التي كنت جزءاً منها قبل زواجي وأحب حيوية ذلك.

في البداية بدت لي المطالعة في وسائط المواصلات العامة عادة غريبة. كنت أطالع وجوه الذين حولي من الناس.

يوماً بعد أخر اكتشفت أنني أُحسِن مطالعتها بشكل أفضل بعد مطالعتي لكل كتاب. وصرت مثلهم. أضع نظاراتي البيضاء في المترو دونما خجل من قصر بصري فالأمور هنا مختلفة (زجرتني أمي: كفّي عن القراءة. ستخسرين جمال عينيك، وارفعي هذه النظارات المرعبة عن وجهك. ماذا يقول الناس إذا شاهدوك هكذا وأي عريس سيرضى بالاقتراب منك؟

كان بوسع اشقائي الذكور الأربعة ارتداء نظاراتهم بسلام أما أنا فكان حلف أمي وخالاتي وعمّاتي يجعلني أشعر بالخجل من نظارتي وضعف بصري، فأخلعها في الشارع ولا أتعرف على بعض الاصدقاء العابرين واستمع إلى لومهم لي فيما بعد لأنني تجاهلتهم وأظل صامتة لا أجرؤ على البوح بالحقيقة المخزية لضعفي الجسدي.

أما في السينما فكان علي منذ صغري أن أضع النظارة على عينيّ سراً بعد أن تُطفأ الأنوار ويبدأ الفيلم وإلا زجرتني أمي، وأنزعها فيما بعد قبل أن تضاء

الصالة. وبقيت أفعل ذلك حتى بعدما كبرت ولم أعد أرافق أمي إلى السينما.

قلت لها: ولكن غداً الامتحان. فكيف تريدين أن (أذاكر) وأدرس بلا نظّارة؟ أريد أن أفوز بشهادة هندسة الديكور.

قالت بلا مواربة: لماذا؟ لتعليقها في مطبخ زوجك؟

قال أبي: احمدي ربك أنها هي التي اختارت الدراسة التي لا قيمة لها لا شقيقها طالب الطب أو الآخر طالب المحاماة أو الباقون. تصوري كارثتنا لو أن الصبيين لم يدرسا الطب والمحاماة وسيلحق بهما شقيقاهما. ابتسم اخوتي بزهو فالثناء ينهال عليهم باستمرار لمجرد أنهم ذكور ويدرسون فوق ذلك الطب أو المحاماة أو الهندسة المعمارية، وكل ما عدا ذلك من دراسات عصرية هراء في نظر أمي وأبي.

ولكن بوسعي أن أدرس أي هراء يناسبني ريثما يأتي العريس فدراستي تقليد جاء من الغرب وسيضع العريس حداً لمهزلته في الوقت المناسب.

وجاء العريس. كان ثرياً في الثالثة والثلاثين من عمره ومن أسرة عريقة بيروتية ووسيماً فوق كل شيء. وكنتُ في التاسعة عشرة من عمري، متوسطة الجمال ومشاكسة أتوق للخلاص من اضطهاد أخوتي لي وتدخلهم في تفاصيل لباسي ومواعيد خروجي كأنهم من جنس بشري أرقى نوعاً. لم يكن ثمة حوار بيننا بل قمع!

وقال أبي نعم للعريس، وقلت لا ريثما أنجز دراستي.

وتحمّل الجميع ما اعتبروه «غنجاً» من طرفي، فقد كنا أقرب إلى الفقر، واعتبرتني الأسرة محظوظة وأشفقت على العريس من خطبة طويلة دامت عامين لم أنجح خلالها في كرهه كما كنت اشتهي.

كنت أتمنى أن أتمرد علي هذا التخطيط المستمر لحياتي من قبل الفقر وقبلهم معاً، ولكن وفيق لم يزود محركي بوقود الكراهية، وهكذا تزوجت وانجبت صبياً وبنتين وأنا لا أعرف هل أحب زوجي أم لا.

ووسط الزغاريد علّقت أمي شهادتي في المطبخ وتم ترويضي بثلاثة أطفال وكثير من الرفاهية... وسقطت في شبكة عنكبوتية خيوطها من ذهب

وحرير).

يتوقف المترو في إحدى المحطات. أتنفس ملء صدري. إنه أقل زحاماً من المألوف، ومريح نسبياً في شهر آب حيث أتقاضى ضعف راتبي لأنني لم أذهب في إجازة كبقية أهل باريس.

حولي سواح يضحكون ويثرثرون بصوت مرتفع مهتاج لأنهم في باريس. لكنهم لا يعرفونها حقاً، فباريس تخفي في طياتها مدينة أخرى مسحورة سرية هي التي وقعتُ أسيرة غرامها، وهو غرام شحذته الأطراف القاطعة لمئات الكتب التي طالعتها في المترو على مدى أعوام، وغذّته زياراتي الأسبوعية إلى المعارض الفنية والمجادلات الأدبية والفكرية في الندوات وعلى شاشة التلفزيون ومشاهدتي للمسرح والأوبرا كلما استطعت الاقتصاد من نفقات البيت للذهاب إلى دنياهما الساحرة، وإلا فالزيارة شبه المجانية إلى أحد المتاحف يوم الأحد تروبيني... إلى جانب عشرات المعارض التاريخية الثرية بتحف تسافر إلى باريس من كل مكان وتلتقي فيها.

أغادر المترو في محطة «الايتوال» وأبدّله بمترو آخر يقلّني حتى محطة «فرانكلين - روزفلت» في الشانزيليزيه. هكذا كل صباح ومساء. (**شهقت نادية بشماتة مستثارة عام ١٩٨٦ حسن عرفت أنني تخلفت مراراً عن حضور حلقتنا النسائية لشرب الشاي في الردهة الطولانية لفندق «البلازا - أتينيه» لأنني أعمل في دار الأزياء الكبيرة كبائعة ومسؤولة عن ترتيب الواجهة.**

وقالت بإشفاق شامت: إذن صرتِ بائعة في المكان الذي كنت تشترين منه ثيابك؟ وتذهبين بواسطة «المترو» كل يوم؟ يا للهول، كم أنا آسفة من أجلك!.

كنت أعرف وقع النبأ في حلقتنا، نحن الذين طالما تزلجنا معاً في الاجازات الشتائية في شتاد وسان موريتز سويسرا وسبحنا صيفاً في «مونتي كارلو» وتناولنا العشاء في «إيز» و «أنتيب» وتجولنا في يخوت الأصحاب بين «سان تروبيه» و «كان»، وليس بين صديقاتي من جربت ركوب «المترو» لمرة واحدة، ويفضلن عليه «الرولز» أو «المرسيدس» (الكوبيه) الخاصة بهن، أو الجاكوار.

شيء ما في باريس جعلني مع الزمن لا أخجل من كوني فقيرة وأمارس أية مهنة شريفة، شيء في كبرياء عامل جمع القمامة ونادلات المطاعم وكل العاملات هنا جعلني أعود إلى حقيقتي كابنة بيت فقير وأفخر بها بعدما كنت أتستر عليها وأقرر: الإنسان إنسان والمهنة متشابهة أياً كانت، وإذا كان ذلك الاحساس الذي تبثّه باريس وتلقنه هو وحده ما تبقى من فظاعات الثورة الفرنسية فهو يكفي.

لذا قلت لنادية ببساطة وبلا مرارة: أنت تعرفين الحرب. زوجي لم يحتط للأمر ولم يهرِّب شيئاً من أمواله إلى بنوك سويسرا، وثروته كلها عقارات في بيروت وأطيان وأراضٍ . . . والبيع الآن متوقف بسبب الحرب.

حسابنا في البنك هنا كان لنفقات سياحة الصيف، وقد اشترينا بالمبلغ بيتنا وانتهى الأمر ولم نعد نملك شيئاً.

كنت أشعر بغصة لم أحدثها عنها. بل بغصات، منها أن زوجي خجل من فقرنا وانطوى على نفسه وقاطع الأصحاب، ومنها أيضاً أنه اكتشف فقرنا فجأة إذ لم يبق لدينا مال نشتري به أثاثاً بعد شرائنا للبيت الفخم في الدائرة الباريسية السادسة عشرة الأكثر وجاهة حيث يقيم الأثرياء اللبنانيون متابعين طقوسهم الفولكلورية التشاوفية، وبدلاً من إنفاق ما تبقى لنا بحكمة، اتخذ قراراته ونفذها دون أن يستشيرني أو يبالي بنصائح تبرعت بها ولم تلق صدى غير الغضب مني.

لقد كَسَرَتْهُ الضربة فانهار بلا كلمات في قعر زجاجة عرق في انتحار بطيء فولكلوري، وكان عليَّ أن أفتش عن عمل، بدأته بائعة صغيرة في «جاليري برانتان» في الفرع الصغير الخاص بدار الأزياء الكبيرة، ثم ترقيت يوماً بعد آخر. زاد راتبي ونقلتني المديرة إلى المقر الرئيسي للبيع في «أفنو مونتين» حيث يتسوق الأثرياء من الجنسيات كلها.

في اليوم التالي للقاء الشاي النسائي فوجئت بصديقات الأمس من زوجات الأثرياء اللبنانيين في باريس والعرب من معارفنا يحضرن للفرجة على فقري وقهري والاحتفاء بأن ذلك لم يحدث لهن بل لي، وذلك بحجة شراء الأزياء من المخزن.

لم يضايقني ذلك كثيراً بعدما نجحت في بيعهن العشرات منها مرة واحدة وطلبت منهن العودة وإحضار الصديقات، وربحت من زيارتهن لقهري عمولة تكفي أقساطاً لدراسة الأولاد ومالاً للاجازة المتواضعة لعامين!.

تدفقت الزبونات العربيات. كنت أختار لهن ما يناسبهن وأقوم في الوقت ذاته بترتيب ديكور واجهات المخزن في ساعات عمل إضافية.

صرت أنفق على البيت.

توجّع زوجي بصمت وهو يراني «رجل البيت»، لكنه كان عاجزاً عن القبول بأي عمل عند أحد رفاق سهرات «أيام العز» والثراء.

كان يتعذب عاجزاً عن القيام بأي شيء غير ملاحقة أخبار الوطن والخجل من حالي. وصار أولادي أكثر احتراماً لي، وصار لرأيي أهميّته عندهم وكلمتي مسموعة في البيت لأنني أنا التي تنفق.

شعرت أن ذلك يضايق زوجي رغم حبه لي. ببساطة: كنت قد تعبت من تعليق شهادتي في مطبخ زوجي والقيام بمهمة مدير الاستقبالات والعلاقات العامة الزوجية، والحرب حرّرتني!)...

يا إلهي! لقد نسيت الهبوط في محطتي اليومية (فرانكلين روزفلت) قرب «جادة مونتين»، وها هو المترو يتوقف في محطة الشاتليه!

أغادره، بعدما شردت عن عدة محطات!! (لن أنهال باللوم على نفسي كعادتي مع أتفه خطأ ارتكبه. من حقي أن أشرد لمرة فالقرار الذي عليّ اتخاذه عسير، وربما كان من الأفضل أن لا أذهب اليوم إلى عملي كالمنومة).

أهبط حتى شاطىء النهر. أتمشى على الرصيف المشبع بالضباب.

السماء تختنق بغيوم صيفية حارة مسودة، كما ردهات روحي...

أصعد ثانية إلى رصيف الشارع. أمشي بين البسطات التي أحبها وأجدها جزءاً من باريس السرية كالتماثيل والعصافير والمقاهي العتيقة وأزقة الزمن المنسي وبيوت المبدعين والفنانين.

أحبها، بسطات باعة اللوحات والكتب النادرة والتافهة والتذكارات على

شاطىء السين. معظمها اليوم مقفل ربما خوفاً من المطر أو احتراماً لشهر الإجازات آب.

أتوقف طويلاً أمام بسطة تحمل مجلات قديمة لهوات الذكريات. أتأملها. هذه مجلة «باري ماتش» الصادرة في الأسبوع الأول لوصولي إلى باريس وعلى غلافها تنتحب رومي شنايدر لمصرع ابنها.

أذكر هذا الغلاف جيداً فقد طالعت المجلة يومئذ على متن الطائرة التي أقلتنا من لارنكا إلى باريس، وتعاطفت كثيراً مع تلك المرأة بعدما عانيت طويلاً من مخاوفي على أولادي من الموت في المدرسة أو «الأوتوكار» أو في حريق بيتنا حتى بدا لي من السخف الكلام عن ضياع الكثير من أملاكنا ومالنا بعدما كفّ المستأجرون عن دفع بدلات الايجار وانهارت قيمة الليرة اللبنانية... **(كان زوجي ما يزال ينفق صيف ١٩٨٤ كعادتنا مما لدينا في بنوك سويسرا وباريس، بل إننا سافرنا من باريس للاصطياف في لوسرن فلندن فكورسيكا فالريفييرا ونحن نقيم في ڤيلا مفروشة فاخرة قرب «دراج ستور» الشانزيليزيه.**

رنّ الهاتف. جاءنا صوت صاحبه الڤيلا ترجونا اخلاءها لأنها تريد الاقامة فيها.

أجابها زوجي على الطريقة اللبنانية: نحن مرتاحون فيها وسوف اشتريها منك.

طلبت منه خمسة عشر مليون فرنك ثمناً للڤيلا.

انعقد لسانه. لم يعد بوسعه أن يتابع المكالمة. صار يرتجف والعرق يتصبب من جبينه.

تناولت سماعة الهاتف منه وقلت لها بهدوء: سنفكر بالأمر ونرد عليك يا سيدتي.

كالطفل المذعور فوجىء بحقيقة لم تخطر له ببال: لم يبق لديه غير أربعة ملايين فرنك لا أكثر، وهو مبلغ لا يكفي ولا يصلح في نظره لأكثر من شراء بيت باريسي متوسط، ولم يعد بوسعه أن يبيع عقاراً لأن حركة البيع والشراء في لبنان متوقفة والمستأجر نفسه عاجز عن الدفع ناهيك عن الشراء.

لم يواجه هذه الحقيقة بصوت عال إلا بعدما هدّأت من روعه وأعددت له صحن «تبولة» وكأس عرق، وصرت أنظر إليه للمرة الأولى عارياً من ثروته وسطوته. إنه نصف أصلع قصير القامة بكرش مستدير لطيف كاستدارة وجهه، وله عينان ضيقتان فوق أنف عريض وفم واسع.

امتلأ قلبي حناناً عليه، وحين ضممته إلى صدري كطفل خائف في الظلام خُيّل إليَّ أنني للمرة الأولى أخطو في درب حبه...

إنه مذعور كما كنت دائماً في قاعي لمجرد أنني امرأة. شعرت أن خوفه يقرّبنا من بعض كما لم يفعل يوماً ماله).

أتابع تأمل أغلفة المجلات العتيقة. هذه مجلة الفيغارو (الملحق) لعددٍ يرجع تاريخه إلى عام ١٩٨٩. التاريخ مكتوب بخط صغير... (قلت لزوجي ليلة رأس السنة عام ١٩٨٩ أحبك حقاً.

لم يكن بوسعنا أن نسهر خارج البيت طوال الأعوام الخمسة الماضية كما كنا نفعل في بيروت كل ليلة، فقربنا الفقر واغتنت حياتنا الداخلية بأولادنا. قام ابننا ليلتها بتزيين النبتة الكبيرة الشبيهة بالشجرة بأوراق الكلينكس، فبدت شجرة ميلاد سوريالية. أما ابنتنا الأولى فرسمت على شاشة الكومبيوتر عينين وشفتين ووضعت الثانية فوق سطح الكومبيوتر مكنسة تنظيف الغبار كالشعر الطريف وقالتا إنه ضيف الشرف في السهرة. تعاون الأولاد وزوجي في إعداد العشاء وشراء الحاجيات في غيابي إذ كان عملي يتضاعف في فترات الميلاد ورأس السنة. تكشفت طباع زوجي عن رقة مفرطة وقدرة على الحنان والعذوبة نحوي: يشفق عليَّ من تعبي. يساعدني في أعمال المطبخ مناصفةً ويقوم بها وحده في أيام إنهاكي. يذوي بصمت لكنه لا يبخل بدعاباته عليَّ وعلى أولاده مهتماً بشؤونهم بعيداً عن الديكتاتورية الشرقية. ولعل حرصه عليهم جعله يمتنع عن الهرب إلى زجاجة العرق.

ليلتها نقلت إلى أسرتي نبأ تعييني مشرفة على ديكورات دار الأزياء الفاخرة في العواصم الأوروبية كلها إلى جانب عملي الحالي مما يعني مضاعفة راتبي أربع مرات. صار بمقدورنا الذهاب صيفاً في إجازة تدوم شهراً كاملاً

للمرة الأولى بعد خمسة أعوام من الفقر.

صفّق أولادي وامتعض زوجي قليلاً، ولكن حناننا المتبادل على كهولتنا وأمراضنا تغلّب على معظم المشاعر السلبية. بلى، بقي بعضها: كلما نجحت في عملي كان ديكه الداخلي يتأزم ويتقزم ويصمت مكرهاً ولا خيار له فيما يحدث لأن لا مصدر ثانياً للرزق لدينا.

كان مليئاً بالأنفة والكبرياء، ولا أظنه جرب الاستدانة أو (الرهن)، ومن يرضى بتديينه مالاً حتى ولو رهن مقابله قصراً يملكه في الزلزال والحرب والنار؟ كان ثمة لا خيار. الأولاد تكيفوا سريعاً مع الافلاس وصار لهم أصدقاء مثلهم، أما زوجي فكان يهرب من آن إلى آخر إلى قاع زجاجة العرق. ولن أنسى كم غضب يوم اشتريت لوحة (ليتوغرافي) لدالي. كنت أدق مسماراً لتعليقها حين صرخ: لا تدقي مسماراً على هذا الجدار. لن نبقى هنا في الغربة!)...

أهيم طويلاً على وجهي. أقطع جسراً. أمشي، أمشي على شاطىء النهر صوب «كيه دورساي».

عاجزة اليوم عن الهرب إلى العمل. لا مناص من اتخاذ قرار. لم تعد المماطلة مجدية.

لقد واجهت الفقر بشجاعة أكبر من تلك التي أواجه بها عودتنا إلى الثراء!

(ذلك اليوم وصلت الرسالة التي كان زوجي ينتظرها طوال ستة أعوام، وكنت أعرف أنها ستصل منذ توقفت الحرب اللبنانية، وتهلل وجه زوجي وبدأ يتحدث بحماس عن العودة إلى بيروت.

منذ ذلك الحين فرحت بازدهاره وتوجست شراً من فكرة العودة!.

قلت له إننا لا نستطيع العودة قبل أن يتخرج الأولاد من الجامعة.

تخرجت ابنتي وأرسلت لنا بعدها بأسبوع برقية من بيروت: تزوجت (خطيفة) لتوفير نفقات الأعراس من نبيل الذي أعرف أنكما تحبانه وعدنا إلى بيته هنا!

شقيقتها لحقت بابننا الشاب في جامعته الاميركية. ولكن لم يتبدل الكثير

إلا يوم وصلت تلك الرسالة التي طال انتظاره لها.

يومها أدركتُ أن شيئاً استثنائياً قد حدث: فارقتْ زوجي رقته شبه الأنثوية التي قربتني منه في أيام الفقر وعاوده بريق عينيه القديم، بريق الأثرياء المنتصرين وقال لي: هذه الرسالة تخصك. فتحتها. وجدتها إشعاراً من البنك بدخول مبلغ ربع مليون دولار إلى حسابي الذي لا يتجاوز ثلاثة آلاف فرنك فرنسي (أي أقل من ألف دولار!). ذُهلت. ربع مليون دولار إلى حسابي؟

قلت له: ثمة بالتأكيد خطأ ما. ثم إنني لا أحب عادتك في فتح رسائلي حتى ولو كانت من البنك.

تجاهل ملاحظتي (الأوروبية) وهو الذي طالما سخر من باريسيتي المتأخرة، وقال: ليس ثمة خطأ. هذا المبلغ هدية مني إليك. فقد بعت أرضاً صغيرة في بيروت وأحببت أن أهديك ثمنها. وثمة هدية أخرى لك. ثم سلّمني أوراقاً قلّبتها فوجدتها ممهورة عند كاتب العدل الذي باعنا بيتنا وقال: وهذا البيت الباريسي أيضاً هدية مني إليك على ما قاسيته في الأعوام الماضية وعلى وفائك وتعبك. لقد جعلتنا كلنا في البيت نفخر بك. والآن حان وقت العودة إلى البيت في بيروت، وإلى حياتنا السابقة. ويبقى هذا المنزل الباريسي لإجازاتنا.

شعرت أنني مثل محارب أحالوه على التقاعد وجاء وقت تقليده الأوسمة تمهيداً لدفنه!

تابع: هيا ارتدي ثيابك لنخرج إلى العشاء في مطعم فاخر. تذكري أننا لم نعد فقراء وغداً أرافقك إلى مقر عملك لتقديم استقالتك وسأشتري لك من هناك بعض (التايورات) وفساتين السهرة. انتهى الزمان الذي كنتِ فيه بائعة هناك وستعودين زبونة... ولم نعد بحاجة إلى شراء الثياب من «تاتي»(*) ولم نعد بحاجة إلى عملك!...

ارتديت ثيابي المتواضعة وأنا اختنق، إذ شعرت أنه لا يرغب حقاً في

(*) تاتي: مخزن يبيع الثياب للطبقة الفقيرة في فرنسا.

إهدائي تلك الثروة بل يريد استعادة سطوته عليّ وشرائي والتأكيد لذاته قبلي إنه السيد وقد استعاد عرشه.

رافقته للسهر في مطعم «لو دوايان» وأنا مذهولة من وقع المفاجأة. كان عليَّ أن أعرف منذ توقفت الحرب أن زوجي عاد غنياً وأن أموراً كثيرة ستتبدل.

راقصته بقية السهرة عند «ريجين» وكان يحيي الأصدقاء بزهو وقد عاد السيجار الضخم إلى شفتيه وعادت الحرارة إلى مصافحتهم لنا وعتابهم لغيابنا كما تقضي الأصول.

حين عدنا إلى البيت امتلكني بفحولة نسيتها منذ أيام شهر عسلنا، وهو الذي لم يقربني منذ أعوام طويلة، منذ صرنا فقراء، ولم أشكِ أو أتذمر...

فقد حلّ الحنان في قلبي نحو حزنه محل الشهوة الجسدية، ونسيت جسدي في غمرة تحصيل الرزق والقلق على مصير الأولاد.

حين رحل في مجاهلي تلك الليلة موقظاً شياطين المغاور النائمة المهجورة وأناشيد عرائس البحر كنتُ أشعر أنه ليس أكثر قرباً مني مما كنا عليه ونحن نطعم الحمام والطيور والنوارس في «جزيرة البجع» في عطلتي الأسبوعية كل يوم أحد طوال أعوام الفقر...

ظل طوال الليل يركض بي على شواطىء حارّة منسية وهو يصهل نشوةً ثم يستحيل جواداً مسحوراً يطير بي من قمة إلى أخرى، وعند الفجر إنهار نائماً متعباً ولم أنم.

تسللت من السرير وأنا لا أدري لماذا.

غسلت بقايا ماكياج السهرة عن وجهي جيداً.

شربت قهوتي أمام النافذة. ارتديت ثياب العمل البسيطة كعادتي وحملت الرواية التي كنت اطالعها في المترو خلال الأيام الماضية ونظارتي البيضاء للقراءة ولم أنسَ حمل بطاقتي الشخصية الفرنسية في حال طلب البوليس مني إبرازها، فالغارات تتركز على المترو وأهل المترو، وكنت قد نلتها وأولادي منذ أشهر ورفض زوجي أن يتقدم بطلب الحصول عليها معنا.

تسللت من البيت بهدوء إلى قطار الانفاق في طريقي إلى العمل ككل

صباح. وكان قد استيقظ وقال لي نصف نائم وأنا أغادر السرير: يبدو أنكِ لا تفهمين ما حدث لنا.

أجبته: سأتأخر عن موعد عملي.

هرولت وحين عدت مساء كان زوجي قد أحضر طباخاً يُعدّ الطعام بعدما شاركني والأولاد أعمال المطبخ والشؤون المنزلية طوال أعوام من الفقر والعمل الكادح)...

لا مفر من اتخاذ قرار. أعرف أن صبره نفد ولا شيء بعد اليوم يمكن أن يرغمه على الإقامة في باريس.

لن أذهب الآن إلى البيت كي لا نتشاجر. ثم إنني لم أقرر شيئاً غير أني متعبة! سأجلس في صالون الشاي هذا ريثما يحين موعد لقائنا في «جزيرة البجع» تمام الثانية ظهراً. وهو المكان الذي اختاره وفيق لذلك اللقاء الحاسم حيث نتناول «الغداء الأخير» على مقعد (البلدية) الأزرق المجاني. اختيارٌ موفق، لأن البجع والعصافير والأشجار والنهر ستكون كلها حليفة حبه في قلبي، وستذكرني بأيام الفقر حين اكتشف وفيق حنان الطبيعة، أمنا المجانية، واكتشفت أنني أحبه وثمة آلاف الأشياء المشتركة التي تربطنا غير المال.

تأتي نادلة صالون الشاي. اختار ما أشاء دون أن أقوم بعمليات جمع وطرح للتوفير كما من قبل. الثراء مريح!... (اشعر بالراحة في هذه المدينة التي لا تهينني كامرأة جالسة في مقهى أشرب الشاي وحدي بهدوء. أقرأ على التمثال الأثري (السيراميك) الجميل في الفترينة الملاصقة لي: «أربعة أشياء يجب أن تتوافر في المرأة: «أن تعرف كيف تبدو كفتاة. كيف تتصرف كسيدة. كيف تفكّر كرجل. كيف تعمل ككلب». لعلي نفّذت التعاليم البالية هذه كلها، على مدى دهور في بيروت. أما الرجل فليس مطلوباً منه هناك أكثر من أن يولد رجلا!...

لقد تعبت ولم أعد قادرة على التكيف من جديد مع مجتمعات تقوم يومياً بإذلالي وباهانتي بصورة مباشرة وغير مباشرة في صغائر الحياة كلها وكبائرها. هنا ارتحت من التفاصيل الصغيرة كلها التي كانت تهينني في وطني ولا أعرف

كيف أرد عليها إذ تبدو جزءاً من العادات السائدة التي لا تتوقف عين للاحتجاج عليها. . . لم أعد أشعر أنه من العادي والمقبول أن أهان لمجرد أنني امرأة ولا يحق لي السفر إلا بإذن ذكرٍ وأنا التي حملت ذكور أسرتي كلهم في الغربة والشقاء بأسناني كما تحمل القطة صغارها. . ولم أعد راغبة في سماع الحكايا أو قراءتها في الصحف عن الرجل الذي ذبح اخته لسلوكها الذي لم يعجبه وعن الذي طلب زوجته إلى بيت الطاعة وعن الذي تزوج أكثر من امرأة وعن الذي يرفض تطليق زوجته ولقهرها يتزوج عليها وعن السخرية من النساء والأقوال المأثورة التي تتنافس الصحف على نشرها. . . وإذا أحبوا امتداح امرأة قالوا إنها «أخت الرجال» ولكنٍ أخت أي نمطٍ منهم؟ الآن، أنا امتلك بيتي وربع مليون دولار في البنك وعملاً يُكفيني ذلّ السؤال، وجنسية في دولة ستؤمّن لي شيخوختي ونفقات مرضي وتقاعدي واستطيع القول إنني امرأة حرة، وإنني بحريتي هذه قد اختار للمرة الأولى، زوجي، فيوم تزوجت منه لم اختره حقاً ولم أكن حرة حقاً لتكون لي مشيئة. . . لا أريد أن نفترق، ولا أريد أن أعود إلى بيروت، وهو لا يمكن أن يبقى هنا وأولادي لن يسكتوا عن تركي لوالدهم وبقائي هنا. لا أدري كيف أحلّ هذه المعضلة. ثم إنني في جوهر الأمر لا اختاره وحده، اختاره والوطن معاً أو أخسرهما معاً. . . فماذا أفعل؟).

إنها الواحدة ظهراً. زبائن الغداء يتدفقون على صالون الشاي وها هم يطردونني بطريقة فرنسية لبقة: هل تريدين شيئاً آخر يا سيدتي؟ هل تريدين الغداء؟

ـ لا شكراً. كم الحساب؟

(أتذكر بيروت بحنين. الطاولات عند (دبيبو) على شاطىءالبحر التي كنا نحتلها ظهراً لشرب فنجان قهوة و (نَفَس أرجيلة)(*) دون أن نطلب الغداء ودون أن يطردنا أحد.

أتذكر مدن الأساطير واللامعقول والطرافة لا القسوة وحدها. . .

أتذكر أنني كنت طرفاً فيما يدور، لا متفرجة تنتظر أن يصير الوطن مكاناً

(*) ارجيلة: نارجيلة.

صالحاً للحياة كي تحبه.

ماذا حدث؟ حدث شيء بسيط وخارق في آن: لم أعد أؤمن بالمعجزات ولا حكايا ألف ليلة وليلة).

استوقف التاكسي الأول. اطلب منه أن يذهب بي إلى منتصف جسر «بير أكيم» حيث أحد مداخل «جزيرة البجع». السماء تزداد تلبداً. زوجي يريد أن يتحداني ـ أمام نفق من الخضرة مشينا فيه وشهودنا الأشجار ـ أن أقول له على مرأى من البط والحمام والنوارس والعصافير التي طالما أطعمناها معاً: سأبقى وحدي هنا ولن أعود معك ولن أترك عملي. ولكن كيف أقول له ذلك في «جزيرة البجع»؟ التهب حبي له للمرة الأولى في هذه الجزيرة المسحورة بالجمال. يعرف أنني لم أحبه حقاً ألا بعدما عرفته وعاشرته في أيام الفقر. واكتشفت أشياء كثيرة تجمعنا منها عشق الأشجار والعصافير. لقد أنجبنا أولادنا وعشنا معاً سنوات وكل منا لا يعرف عن صاحبه غير مواضع النشوة في جسده ومواعيد الاجازات في أوروبا وأرقام هواتف الشاليه الخاص بنا في «طبرجا بيتش» وشقة برمانا وشاليه ثلوج الأرز. في «جزيرة البجع» تعارفنا حقاً. كنا نراها من نوافذ البيت: مستطيلة كالممشى تتوسط نهر السين لها عرض شارع لا أكثر وعلى جانبيها أشجار ظليلة. **(قال لي ذلك الصيف الغابر ونحن نعد طعامنا المتواضع في المطبخ للغداء ونطل من النافذة على نهر السين وجزيرة شبيهة بالممر المغطى بالأشجار تتوسطه وأولادنا في الإجازة مع رفاقهم في «الكولوني دي ڤاكونس»: هل تذكرين كيف كنا نتناول طعام الغداء كل يوم أحد في غابة بولونيا في استراحة نابليون «الجراند كاسكاد» أو عند «بريه كاتالان»؟**

كنا قد صرنا نسجّل كل فرنك ننفقه لنتعلم كيف نوفر، ولم نزر مطعماً طوال أعوام. كفقيرة قديمة، لم يكن ذلك صعباً عليَّ مثله. لذا قلت له: لا شيء يمنعنا من حمل طعامنا كما هو والنزول إلى أحد المقاعد الزرق التي تزنّر «جزيرة البجع» والأكل هناك قرب الماء والخضرة.

هذه المدينة ليست معادية للفقراء وبوسع المرء أن يتمتع فيها بالمباهج كلها وهو متوسط الحال مثلنا باستثناء مباهج التشاوف.

وهكذا رحنا نعدّ طعامنا لأول «بيكنيك» أو «سيران» لنا في باريس...

وفوجئنا بكثرة الأشياء التي ينبغي على المرء أن يتذكر حملها معه: الملح. الماء. الجعة. البندورة. الخبز. الجبن. الفوط. فتاحة زجاجات الجعة. البهار... إلى آخره. قال بضيق صدر: رحم الله أيام الخدم. هل تذكرين كيف كانت «زينب» تهب من سريرها حينما نعود من السهرة في الثالثة ليلاً وتهبط من جناح الخدم لتسألنا ما إذا كنا نريد أن تعد لنا الطعام؟ قلت له: أجل، لكنني أذكر أيضاً أننا صرنا بعدها نتسلل على رؤوس أصابعنا لنفلح في الهرب من رقابتها. ومرة توهمنا أننا فعلنا، وحين عدنا إلى غرفة النوم وجدت ثيابي التي قمت برميها على الأرض مع المجوهرات وقد تم تعليقها وأعيدت المجوهرات إلى علبها. كم ضحكنا يومها لأننا تحت المراقبة مدللان حتى الاختناق. قال بغصة: سقى الله أيام زينب، و «أيام العز»... وكل يوم بكينا منه ثم بكينا عليه!

أين زينب اليوم يا ترى؟ يوم بدأت الحرب تنذر بالانفجار رافقتها إلى القنصلية المصرية وطلبت من صديق ترتيب أمر جواز سفرها بعدما قامت بمخالفات قانونية (مسكينة)! ودعتها على المطار وقالت لي: الله لا يرميك بذل الفقر، وكيفما وقعت فلتهبطي على قدميك.

أهي دعوات زينب التي فتحت الأبواب المغلقة في وجهي؟

من يدري لعل ذلك يحدث في هذا الكون المسكون بالأسرار)..

يتوقف السائق: وصلنا يا سيدتي.

أهبط الدرجات الحجرية العديدة إلى «جزيرة البجع». ثمة شيء من السحر هنا. فجأة ينفصل المرء عن المدينة المألوفة بمعنى ما ويدخل في باريس السحرية اللامرئية. ولعل ذلك ما جعل أهل المدينة يرفعون خط المترو الحديدي فوق جسر شاهق كي لا يجرّح ضجيجه سكينة الماوراء، وربما كان بوسعهم دسه في نفق تحت سطح ماء النهر وهم الذين حفروا نفقاً تحت البحر.

ها أنا أحاول التفكير بزينب والمترو والجسر ونفق المانش وبأي شيء هرباً من اتخاذ قرار بسيط معقد: هل سأعود إلى بيروت مع زوجي أم أبقى وأعمل هنا وأعرّض نفسي لطلاق أكيد عاجل أو آجل، إذ سيثرثر الناس عن عصياني وسيضطر زوجي لتطليقي حفاظاً على كرامته وسمعته.

لقد حافظنا على تماسك بيتنا في الفقر، فهل سيفرقنا الثراء؟

منذ استعاد ثروته فقد ذلك التعبير الأنثوي الحنون في وجهه وسلوكه وعادت إليه فحولته وشهوته للامتلاك و «ديكيته» وأعرف أنه الرجلان في آن.

شيء واحد لم يتبدل فيه منذ عودته غنياً: إنه التلذذ بالفولكلور والذكريات. يحاول أن يستعيد تعابير محلية، ويمتعه الحديث عن دكاكين بيروت الغابرة ومقاهيها التي لم تعد موجودة ودمرتها الحرب وعاداتها الشعبية... وإذا حاولت مشاركته متعته تعاطفاً يـزايد عليَّ دائماً... فإذا ترحمت على مقهى «لاروندا» العتيق في وسط بيروت المهدمة، ترحّم هو على المبنى الذي كان قائماً قبل «لاروندا»!! وإذا افتقدت مقهى «الاكسبرس»، سخر مني وذكّرني بما كان هناك قبل تعمير «مبنى صباغ» حيث يقع مقهى الاكسبرس!

إنه ما يزال يعيش في بيروت طفولته، بيروت ما قبل نصف قرن.

أعرف وجهه الفولكلوري ووجه الحنين لديه ووجهه الشهواني ووجهه المكسور ولا أدّعي أنني أعرف وجوهه كلها. أتوهم أحياناً أنني أعرفه ولكنني أعي كلما مرت السنوات علينا معاً أن ثمة دهاليز تقود إلى دهاليز في أعماقه كما هي حالي. ولا أحد يعرف حقاً أي شخص آخر حتى ولو ربطت بينهما عقود من الزواج.

إنني بالتأكيد أعرف هذه الجزيرة الجميلة الشبيهة بممر مسحور بأفضل مما أعرف زوجي! أعرفها شجرة شجرة عصفوراً عصفوراً غيمة غيمة صعلوكاً صعلوكاً.

ما أسهل معرفة جزيرة وما أصعب معرفة إنسان حتى ولو عشنا معه سنوات طويلة.

إلى يساري عدة درجات تقود إلى النهر كأنها مرسى لسفنٍ لامرئية تحمل أرواحاً هائمة لمجانين مثلي، تاهوا في الزمان والمكان ولم يعودوا يدرون إلى أين ينتمون.

هذا المقعد الأزرق يحتله كل يوم صعلوك يرتدي ثياب جنرال ويزين صدره بالنياشين ويشرب النبيذ ليل نهار كلما صحا. من زمان، أيام كنت سائحة

في باريس كنت أتوهم (الكلوشارات)(*) متشردين كسالى لا أكثر. الآن أعرف أن الصعاليك غجر المدن وبعضهم اختار أن يتحرك في باريس السرية اللامرئية صرخة احتجاج وهو يسامر التماثيل والحمام والعصافير والنوارس ككل شعوب الحرية. هذا المقعد الثاني تحتله صعلوكة عجوز ترتدي باستمرار ثياب الأطفال. تبدو وكأنها لا تدري ماذا حدث فجأة، إذ ما زالت طفلة لكنها تبدو من الخارج عجوزاً، لا تفهم لماذا اهترأ جسدها وروحها ما تزال بنتاً صغيرة. وهذا صعلوك ثالث لا يرفض الصدقات لكنه يرفض أن يقدم مقابلها أية تنازلات ولن يحدثني عن حياته مقابل الصدقة. ولن يشكرني أيضاً. ويكفيني منه شرف قبوله لها.

هذا هو على الأقل السيناريو الذي وضعته وزوجي لاولئك الصعاليك وسواهم منذ تعلقنا «بجزيرة البجع»، فصارت المكان الذي نرتاده كل يوم أحد.

(انظري كم الطيور متعجرفة وغريبة الأطوار وسريعة الهرب. هكذا قال لي زوجي في (البيكنيك) الثانية لنا حين أطعمت الحمام والعصافير ما زاد عن حاجتنا من طعام.

ادّعى أنه يشعر بالرغبة في رفس حمامة، لكنه اكتفى برفس صحن طعامها القصديري الذي تركته لها.

في المرات التالية صار يطعمها بنفسه ولم ينسَ النوارس على صفحة النهر وصار يرمي لها بقطع الخبز وتعجبت من اقبالها.

كنت أظن النوارس مخلوقات متوحشة مثلي ـ أو هكذا أوحى إليَّ بذلك الكاتب باخ في روايته «جوناثان ليفنجستون النورس» وكنت قد قرأتها في المترو ـ ولكن لا، إنها كالبشر، جائعة إلى الحُب، ومستعدة للانحناء لالتقاط رزقها والهبوط من علياء تحليقها إلى أية يد موسخة عليها لقيمات خبز وحب. . .

الحب. أحببت زوجي المفلس العاطل عن العمل المريض ممزق القلب في «جزيرة البجع» كما لم أحبه قط من قبل. إنه لأمر هزلي أن يحب المرء شخصاً

(*) جمع «كلوشار» وهو الاسم الذي يطلقه الفرنسيون على الصعاليك المشردين الذين ينامون في الحدائق العامة والشوارع.

أخر من أجل عيوبه قبل فضائله. لكن ذلك حدث لي وأنا أضم إلى صدري فجيعته بوطنه وحزنه على ما آل إليه في زمن احتقار المصائر الفردية، والتقي برقّة مع صفاته (الأنثوية) الخفية من حنان بالغ على أولادنا وطيبة مفرطة في مواجهة مأساته لدرجة عجزه عن فهمها، وامتنان شفاف منه أمام تعبي في مصارعة قدري. . . قدرنا معاً. . . كان مثل تائه على مركب متوحش الأنواء، وكنت أُقبِّل صلعته الجميلة وأحنّ على وجهه الحزين الصخري ونحن نتجرع الجعة على مقعد الثراء الطبيعي الجميل في رحلاتنا الاسبوعية الفقيرة إلى «جزيرة البجع». وتعارفنا مع مخلوقاتها. نصفها الأول من طرف جسر «بير أكيم» مفروز (للشقق) الدائمة: أي يقطن مقاعدها الموسخة الزرق صعاليك دائمون. النصف الآخر لناحية مبنى الراديو مكرس لضيوف الأحد مثلنا. اخترنا لأنفسنا مقعداً في منتصف الجزيرة قبل الجسر الذي يعبره مترو الضواحي(R.E.R). نفرح حين نجد مقعدنا فارغاً لم يحتله أحد باطلالته الحلوة على الدائرة الخامسة عشرة الباريسية بناطحات سحاب حي «فرونت دوسين».

قبل أن يجلس وفيق يخرج زجاجات الجعة، وعلى مقعد الضفة الأخرى الذي ادار ظهره لنا مطلاً على الدائرة السادسة عشرة الباريسية يجلس دائماً الصعلوك ذو اللحية الطويلة والقبعة كاليهودي التائه الذي يتحدث بصوت مرتفع مع النوارس والطيور ويحيي بعض المارة ويدلل أطفالهم.

هكذا كنا نجلس ظهراً لظهر، «اليهودي التائه» من جانب و «اللبناني التائه» من الطرف الآخر والحمام والنوارس والطيور تركض جيئة وذهاباً ملاحقة رزقها.

هناك أيام الفقر اكتشفت متعة عطلة نهاية الأسبوع بعد اسبوع شاق أعيشه إنساناً عاملاً خارج إطار اللعبة الإجتماعية الهزلية البورجوازية. . . ولم يعد وفيق يتحسر على أيام المطاعم الفخمة ظهر الأحد «كالجراند كاسكاد».

حين انقضى الصيف وتعرّت الأشجار ظللنا نزور «جزيرة البجع» في البرد القارس فقط لإطعام العصافير والحمام وكان ذلك يشكل اعترافاً بشرعية العلاقة بيننا، وكنا نحار دوماً: لماذا تُدعى «جزيرة البجع» وليس على شواطئها بجعة واحدة؟ نأتي بالطعام، في البداية تهجم أسراب الحمام. ثم يأتي ذلك

العصفور النحيل الطريف، الغريب بريش أبيض كالتاج في رأسه يميزه إلى جانب قدرته الخارقة على الهرب: يلتقط قطعة الخبز من بين عشرات الحمام ويطير بها هارباً ليأكلها بهدوء في مكان آخر تتجمع عليه عصافير أخرى تنازعه إياها. كنت أراه عصفوراً استثنائياً لا أدري لماذا يذكرني بطباعه الطريفة ببيروت وأميزه من بين العصافير كلها وزوجي يقول ساخراً مني إنه دائماً عصفور آخر. وأنا لا أصدق ذلك.

إننا دوماً بحاجة إلى تمييز عصفور ما كي نخترع الحب. وهكذا اخترعت له اسماً من حكايا جدتي الأسطورية: الشاطر حسن).

إنها الثانية إلا ربع، والسحب تجمعت في السماء حتى الزمجرة الرمادية الغاضبة. هذا هو مقعدنا المألوف.

أجلس عليه، وعليَّ اتخاذ قرار! وأنا أفكر بكل شيء وأي شيء، بالعصافير والصعاليك والذكريات وتسمية «جزيرة البجع» التي لم أر فيها مرة بجعة واحدة، باستثناء اتخاذ قرار. وها هو العصفور برأسه المتوّج بالأبيض يقترب مني بمشيته الطريفة قفزة إثر أخرى وقلبي يفيض نحوه بالمحبة وأسأله: كيف حالك يا شاطر حسن؟.

ينهمر المطر فجأة في عاصفة رعدية تتأجج برقاً ويهرب العصفور.

أناديه: لا تذهب يا شاطر حسن. سأخفيك من العاصفة داخل معطفي.
يشتعل البرق شجرة ضوئية كثيرة الأغصان شاهقة حتى قبة السماء، وتهبط عن هذه الشجرة العالية بجعة بيضاء طويلة العنق هائلة الحجم وتقول لي كما في الأساطير العربية وحكايا جدتي: شبيك لبيك عبدك بين يديك... تقولها بلا صوت لكنني أسمعها داخل أذني كما لو كان صوتها الرعد... انسى المطر الذي بدأ يبللني. أرتجف خوفاً وأنا أتأمل جسدها الكبير كطائر الرخ، وريشها الأبيض الذي تمشح أطرافه ألون قوس قزح كأنها خارجة للتو من حكايا ألف ليلة وليلة.

تقول لي أنا جنّية البجع. اهديك أمنيتين احققهما لك. أنا مدينة لك بذلك. ماذا تريدين؟

مزيج من الذهول والذعر يخنقني. حين أجد صوتي أسمعه يقول: إنني

أحلم بالتأكيد. . .

تقول جنّية البجع: ما الفرق بين الحلم والحقيقة؟ أهديك أمنيتين. ماذا تريدين؟

ـ قبل أن أقول لك ما أريد، من أنتِ وما حكايتك؟ أما زال ذلك يحدث في هذا الزمان؟

ـ لا شيء يتبدل حقاً. ولا أستطيع أن أقول لك حكايتي لأنني أموت إذا بحت بسري.

ـ قولي لي الجزء المباح لك قوله.

ـ أحببت مرة عصفوراً وخالفت تقاليد البجع فعاقبني ملك الجان بـأن رُزقت بعصفور بدلاً من بجعة هو ذلك العصفور الضال المختل الـذي طالمـا حنوتِ عليه ودعوته الشاطر حسن وأطعمته وأنقذت بذلك حياته مرات إذ كان يرفض أن يأكل من منقاري ربما كجزء من عقابي. لهذا أهديك أمنيتين.

أقول لها: ولماذا أمنيتين لا ثلاثاً كما في الأساطير كلها؟ (إنني بالتأكيد أحلم وفي الحلم كل شيء مباح حتى الطمع مع جنية البجع).

تجيب البجعة: أمنيتان بدلاً من ثلاث أمنيات لأنكم معشر البشر حمقى. نمنحكم ثلاث فرص وفي الثالثة دوماً مقتلكم، فأنتم تجهلون ماذا تريدون حقاً! وقد قررنا منذ ألف عام وعام أن فرصتين تكفيان. والآن ماذا تريدين؟

ـ أريد ثلاث أمنيات!

ـ حسناً. فليكن.

ـ أريد أن أرى مستقبلي إذا بقيت هنا وحدي! تشـير البجعة بمنقـارها الذهبي إلى عجوز جالسة على أحد المقاعد تحت مظلتها تطعم الحمام بالرغم من انهمار المطر، فتتحول المرأة إلى تمثال من الحجر وتقول البجعة: هذا مستقبلك وحيدة هنا.

يبدو لي التمثال نصباً للوحشة والكآبة.

أقول لجنية البجع: أريد أن تساعديني في اتخاذ قرار غير خاطىء: هل

أعود مع زوجي إلى الوطن أم أبقى هنا وحدي لأن «الهُنا» صار وطن قناعاتي لا «الهناك» حيث وطن عواطفي. كيف اتخذ قراراً غير خاطىء. ساعديني. لا أريد معجزات.

تجيب: كل شيء خاطىء، وبوسعي أن أحقق لك المستحيل لا الممكن.

اتخاذ القرار مهمة تقع عليك. أما الأسهل، أي المستحيل، فعليَّ تحقيقه. تحقيق المعجزات أسهل من اتخاذ قرار غير خاطىء.

قُلت: أحب زوجي ولا أريد الافتراق عنه ولكن ضمن شروطي: أريد أن نبقى معاً هنا إلى الأبد... أجل... هذا ما أريده...

وكان زوجي يتقدم مني والساعة الضوئية العملاقة خلفه في قمة مبنى الراديو تشير إلى الثانية.

تقول جنية البجع: سأحولكما إلى تمثالين يبقيان هنا إلى الأبد! وقبل أن أناقش الفكرة تتحقق الأمنية إذ ما كاد وفيق يصل إليَّ باسماً تحت المطر ونهمّ بالعناق بعفوية متبادلة حتى ترمي جنية البجع بتعويذتها السحرية فنتحول إلى تمثال ولا يلحظ أحد ما حدث لأن الممر يكاد يخلو من الناس في مثل هذا الطقس الماطر...

ينهمر المطر.

ها أنا تمثال ككل التماثيل التي طالما أحببتها، وها هو وفيق إلى جانبي إلى الأبد ولم يعد بوسعه مغادرتي والعودة... صرنا تمثالاً واحداً حجرياً أحدّق في وجهه المتحجر الذي لم يعد قادراً على أن يهجرني أو يرغمني على شيء.

أُدرك أخيراً سر التماثيل التي لا يعرف أحدٌ من الذي نحتها: إنها حيَّة مثلي! تُرى هل معظم التماثيل مجهولة النحاتين في المتاحف لبشر مثلي ووفيق، لا تعرف كيف تقول لا أو نعم ولذا لا تقول شيئاً؟

يهدأ المطر والبرق. تطلع الشمس. تختفي جنية البجع كأنها لا تستطيع المجيء إلا على شجرة البرق. مرت العاصفة الصيفية العابرة، ونحن متحجران في لحظة ترحاب يهمّ بعناق.

أحدّق في وجهه. إنه تمثال سعيد. لا يدري ماذا حدث ولا يريد أن

يدري. إنه الآن كما كانت حاله طوال أعوام الغربة حتى استيقظ من كابوسه ثرياً. طوال هذا الوقت كنت صاحية كما أنا الآن، أعيش وأتعذب وأحار وأتبدل، ويريد مني أن ألغي مثله كل كل الأعوام التي عشتها في باريس.

هو لم يفعل خلالها شيئاً غير الانتظار أما أنا فكنت أحيا وأعمل كأي كائن حي غير ناقص.

كانت أعواماً غنية باكتشافي لذاتي ولطاقاتي ولعشقي للعمل والتحدي.

من غير المقبول أن يكون مسموحاً لي بالعمل حين يحتاج الآخرون إلى ذلك وأحرم أنا منه حين أحتاج إليه لتحقيق إنسانيتي.

تعبت من الاحساس باستمرار أنني شيء ناقص. دولاب احتياط في أفضل الحالات ولا أريد العودة إلى وطن أحبه ولا يحبني إلا داجنة، ولم يعد بمقدوري احتمال الذل اليومي الصغير هناك المكرّس لتدجيني.

لم أعد امرأة عربية ولست امرأة غربية بعد. فمن أنا؟

وهل سأرضى بالعودة من جديد امرأة مرفهة ثرثارة مغطاة بالذهب غارقة في حياة مجردة من المعنى، أفقها لا يتجاوز مربع ضيق كطابع بريد. أم أنه من الأفضل لي ولزوجي أن نبقى هكذا معاً تمثالين متحجرين لأنه لم يعد بوسعي أن أتكيف على مقاس راحته كحذاء منزلي؟

يطير العصفور اللطيف ذو التاج الأبيض حولي. يقف فوق رأسي. والآن ماذا بعد أيها الشاطر حسن؟ ما الذي سنفعله. هل سنبقى هكذا تمثالين في «جزيرة البجع»؟

يقترب منا صبي يقفز في البرك الموحلة بحيوية وأمه تجرّ عربة لطفل رضيع. يتأملنا ويحاول عبثاً لفت نظر أمه إلينا. تبدو مهمومة بشأن آخر ومشغولة برضيع العربة. الصبي يعبث بطرف ثوبي المتحجر، ثم ينجح في قصف طرف منديلي الحجري الرقيق حول عنقي بعدما ضربه بمثابرة بحجر وها هو يحاول أن ينتزع ربطة عنق وفيق الحجرية ويفشل في ما عدا كسر طرفها الرقيق الأسفل، بحجره. لم أكن أدري أن الصبيان أعداء التماثيل. ها هو الآن يلتقط مسماراً ويحاول أن يحفر على ساقي حرفاً لعله الحرف الأول من اسمه.

لم يخطر لي من قبل المصير البائس لتمثال مثلي ما زال صاحياً. ترى هل يعي زوجي ما يحدث له أم أنه دخل في الحالة الحجرية؟ وأنا، لماذا ما زلت صاحيةً؟ ألأنه ما زال لي الحق في أمنية ثالثة؟ وإذا عادت جنّية البجع ما الذي سأطلبه منها؟ أن تحولني إلى تمثال لا يعي شيئاً؟ وكيفَ أعرف بعدها أنني ووفيق معاً؟ أليس ذلك شبيهاً بانتحار اثنين كي يبقيا معاً؟ ترى هل تصدر الصحف غداً وفيها خبر حول اختفاء زوجين لبنانيين، السيدة في الخامسة والأربعين من العمر والرجل في الستين، وفي الصفحة ذاتها خبر عن تمثال جديد في «جزيرة البجع» غامض الأصل؟ ومن سيلحظ تمثالاً إضافياً في مدينة نصف سكانها من التماثيل؟!

هل سنبقى هكذا إلى الأبد كقوم لوط الذين لـووا رؤوسهم إلى الوراء وصاروا تماثيل من الملح؟

لماذا لم تقل الأسطورة: إن من ينظر إلى الوراء يتحجر كزوجي ومن لا يفعل يتحجر مثلي؟ وإننا جميعاً محكومون باللعنة أمام أقدار تعبث بنا، وتتقن كشف هشاشتنا وأنانيتنا فتحولها إلى فخ لنا؟

متى تعود جنّية البجع، وماذا أقول لها إذا عادت وأنا لا أدري؟ ما هي امنيتي الثالثة؟ ما الذي يعذبني؟ أهو الحب لهذا الرجل الذي أعرف نقاط ضعفه أنا التي تعلمت منذ نعومة أظفاري أن الرجل الذي تحبه المرأة الشرقية يجب أن يكون نصف إله وأكثر قوة وباساً وقادراً وحده على حمل المسؤوليـة. هو رأس الأسرة وهو... وهو...

هل يربكني أنني أحب أنسياً مثلي، مليئاً بالأخطاء والضعف مثلي، يحـار كيف يتخذ قراراً مثلي، ولا شيء نهائياً في حياته مثلي، لـديه نوبات رفض مثلي ولحظات ندم وحيرة مثلي؟

أعيب عليه أن يقفز فـوق تسعة أعـوام من عمره في بـاريس ويلغيها، بالمقابل كيف ألغي أنا حوالي ثلاثين عاماً من عمري عشتها مع الأحبـاب في بيروت وعاليه وبرمانا وجزين وصيدا وشتورا وإهدن وعشرات الأماكن المزروعة في قلبي من غابات ومغاور وشواطىء وجبال تكللها أشجار الأرز والثلوج؟

غيم يتجمع. آه المطر. أين أنتِ يا جنّية البجع؟

يشتعل الأفق ببرق شجرة ضوئية عملاقة كثيرة الأغصان، وتطير عنها جنّية البجع.

تجدني أبكي بلا دمع والمطر يغسلني من جديد عاجزة عن مسح وجهي فأنا تمثال.

تقول لي: اعتدتُ عليكم معشر البشر. لا يقرّ لكم حال كالأمطار الصيفية. ماذا تريدين الآن؟

أقول: لا أدري ماذا أريد، لذا من الأفضل أن نعود كما كنا!!.

تقول بصمت وبصوت كالرعد داخل رأسي: كنت أعرف ذلك منذ البداية. فأنتم البشر تجهلون التعامل مع الأعجوبة ولا تعرفون ماذا تريدون وتخسرون فرصتكم معها... حسناً فليكن... عودا إلى هيئتكما البشرية.

يقول وفيق كأن شيئاً من ذلك كله لم يكن، وهو يضمني إليه: إنها الثانية تماماً ولم أتأخر. أنظر إلى ساعتي فأجدها الثانية حقاً وأُذْهَل. ماذا عن تلك الساعات التي مرت ونحن تمثال مسحور تحت الشمس والمطر.

لا يبدو وفيق واعياً ذلك كله... وأكاد لا أصدق أن ذلك كله حدث أصلاً... ولا اجرؤ على أن أقول له شيئاً عن تلك الأوهام و (الهلوسة).

لا نبالي بالمقعد المبتل ونجلس معاً تحت مظلته بعد أن يحاول تجفيف جزء منه لي بمنديله. الجعة أولاً، ثم نلتهم الشطائر كعادتنا مع البندورة التي قطّعها بيديه.

لا يسألني شيئاً عن قراري. يأتي الحمام والعصافير والنوارس تهبط من عليائها إلى الشاطىء. نطعمها. أتفقد العصفور الطريف ذا التاج الأبيض ولا أجده. يسألني عنه زوجي ضاحكاً. لا أجرؤ على أن أروي له الهلوسات التي عشتها لحظة حضوره أو قبلها.

سعيدان معاً كأن فراقنا غير ممكن شئنا أم أبينا، وبوسعنا أن نتشاجر ويمزق كلٌّ صاحبه ولكن استمرارنا معاً محتوم...

أفرح لأنه لم يسألني: ما هو قرارك. لو سأل لقلت له إنني لن أترك عملي

ولن أتخلى عن نمط حياتي هنا، ولن أتخلى عنه ولا أعرف كيف أجمع هذه المتناقضات التي أصرّ عليها كلها!

زجاجة جعة ثانية وثالثة. نضحك معاً طويلاً. . .

يقول وفيق: غداً في بيروت سنقوم دائماً بنزهات كهذه، حين تجدين وقتاً لذلك. ستكونين مشغولة بالتأكيد في عملك حين تفتحين فرعاً في بيروت لدار الأزيار التي تعملين فيها. . . أليس كذلك؟

- هل سأفتح فرعاً وأصير ربة عمل؟

- بالتأكيد. وهذا أمر مني!

- هل من أوامر أخرى مفرحة يا مولاي؟ لا يجيب لكنه يدندن بأغنية. . . لا تتركيني(*). . .

أوامر عربية وأغانٍ فرنسية!. . . أتأمل طويلاً وجهه الشرقي الذي لا بد له من توجيه «أوامر» لي حتى في حالة الاستسلام! وجهه الذي شاهدته في ذروة ضعفه وفي حضيض قوته وأحببته في الحالتين. عارياً بلا أقنعة.

أظل صامتة. أتدفق وداً نحوه. وأكاد أحدثه عن هلوسات ما قبل وصوله بلحظات.

أشعر بألم بسيط في ساقي وأمدها إلى الأمام لأرى موضع الألم.

يسألني وفيق: ما هذا الخدش في ساقك؟

ألحظ الخدش في الموضع الذي حاول الصبي أن يحفر عليه بمسمار. . . هل يعقل ذلك؟ بالتأكيد لا. لعلي خدشتها حين دست على ذلك الغصن المقصوف فصار الخدش جزءاً من «هلوستي» الهذيانية، كما يصير النور المضاء فجأة في غرفة النائم جزءاً من حلمه. . . لكل شيء تفسير منطقي.

أشرد وأنا أعبث بمنديلي الحريري المحيط بعنقي. يدهشني أن قطعة صغيرة من طرفه ناقصة كما لو قصها أحدهم. لعلها علقت في باب المترو وأنا

(*) لا تتركيني: اغنية فرنسية شهيرة.

أصعد إليه هذا الصباح. هذه الأمور تحدث كل يوم ولا نلحظها.

نعـود إلى البيت. يقول لي وفيق وهـو يخلع ربطة عنقـه: هل في بيتنـا جرذان؟

ـ بالتأكيد لا. لماذا؟

ـ من الذي قرض ربطة عنقي هكذا إذن؟ ثمة قطعة ناقصـة منها... انظري كم ذلك غريب!

أتذكر الصبي العابث بنا حين كنا تمثالين ولا أجيب.

أحدّق عبر النافذة في «جزيرة البجع»، والسُحُب الصيفية تتجمـع من جديد منذرة بعاصفة، وحين يشتعل البرق شجرةً ضوئية أسارع مـذعورة إلى إسدال الستائر جيداً!

١٩٩٤/٨/٢٣

ثلاثون عاما من النحل

من الأسهل علينا معرفة البشر بوجه عام من معرفة شخص واحد بوجه خاص.

لاروشفوكو

الحياة تشبه الروايات أكثر مما تشبه الروايات الحياة.

جورج صاند

تستطيع أن تغلق عينيك عن الحقيقة لا عن الذكريات.

ستانسلاو ليك

إنها تطن حول أذنيك، توقظك وترفض أن تُقتل كي يكون بوسعك العودة للنوم.

داڤيد كرونبرغ

ثلاثون عاما من النحل

تحدق ريم عبر نافذة السيارة وصدرها يغلي بفوران محتقن كخلية نحـل أحكموا إغلاق منافذها.

ثمة هياج ساكن يختنق حراً ورطوبة يجثم فوق صدر باريس وشوارعها وأبنيتها والمرئيات كلها كما يُخيّل إليها.

السيارة تغادر المدينة في الزحام كمركب يحاول بصعوبة أن يشق دربه في مياه لزجة معتمة غامضة.

يقول الدكتور صدوق لضيفه شبه معتذر، ملتفتاً صوبه إلى اليمين نصف التفاتة وهو يتابع قيادة السيارة: قلما يهبط حر كهذا على باريس وضواحيها، ولذا فالمركز الثقافي ليس مزوداً بجهاز للتبريد فمعذرة يا استاذ رضا.

تتأمله ريم من موضعها في المعقد الخلفي حيث أجلسها الدكتور صدوق **(اصطحب زوجي إلى المقعد الأمامي غير مبال باللياقات الفرنسية وهو الذي يصرّ على التحدث بالفرنسية لتأكيـد «رقيه»)** تتـابع ريم تحـديقها الشرس في جمجمة صدوق من الخلف **(جاء للمرة الأولى منذ حوالي ربع قرن إلى مكتب المجلة الفكرية التي أتعاون وزوجي على إصدارها وهـو يكاد يـرتجف خوفـاً وأملاً. كان قد أرسل العديد من مقالاته إلينا ولم تلفت زوجي فأهملها، وصار صدوق يكتب كل أسبوع رسالة رجاء متسائلاً عن مصير دراساته. أشفقـت على إلحاحه وتوسلاته وهو الطالب الجـامعي الشاب، فقـرأتها رغم مشـاغلي الكثيرة ووجدتها جيدة.**

فيها رؤيا جديدة ولكن غير مألوفة. كذبت على صدوق ولم أقل له إن زوجي لا يتوسم الخير فيه ككاتب وينصحه بالعمل في التجارة، بل كتبت له انه لم يطالعها بعد وستتصل به حين يفعل.

دافعت عن حرفه يومئذ حتى داعبني رضا متسائـلاً: هل بـدأتِ تحبين الشبان الصغار؟

ابتسمت للدعابة. كنت يومها أرضع صغيري بينما ابني الأكبر سناً منه يتسلى بتخريب مخطوط أحد الكتّاب وبعثرة صفحاته وزوجي يطارده ضاحكاً ثم يعود إليَّ بعد انقاذ المخطوط قائلاً بدعابته الحلوة: فليكن صدوق في حمايتك. انشري له بل واصدري له كتاباً. لن أتدخل. لكنني أراهنك على فشله.

وصدر الكتاب ونجح نجاحاً كبيراً فتباهى زوجي باكتشافه له وتعززت صداقتهما حين نال صدوق الدكتوراه وصار استاذاً جامعياً في فرنسا).

يتحاور رضا وصدوق بكثير من الود الحميم الذي تراه ريم يربط الرجال «المهمين» بعضهم ببعض. تحاول مغادرة اختناقها وعزلتها الصغيرة مكررة لنفسها (كوني إيجابية وشاركيهما الحوار) تدلي برأيها في الموضوع الذي يتحاوران حوله. يصمتان كما لو قطع ولد مناكد حديثاً للكبار.

تسمع صدى صوتها مسكيناً مثل جورب مثقوب لمتسول شتائي ولا أحد يرد عليها سلباً أو إيجاباً.

يتابع الاستاذ رضا كلامه والدكتور صدوق يشاركه الحماس (كأن صوتي لم يكن ووجهة نظري ثرثرة نساء). يقهقهان معاً. لا تعود تسمع شيئاً.

السيارة ما زالت تركض في الدروب (قلبي يركض دوماً وحده في دروب أخرى وزمان آخر... أتذكر يوم صار صدوق يرتجف أمامي فرحاً ـ مثل كلب لطيف صغير يهز ذيله ـ شاكراً قرار دارنا بإصدار كتابه الأول.

كان يعرف أنني حليفته ويحدس بنفور زوجي من حرفه وتهربه من لقائه، ويعي معنى صدور كتاب له عن منشوراتنا في مدينتنا بشمال إفريقيا، تلك المنشورات التي استطاعت عاماً بعد آخر بكتبها ومجلتها الفكرية منافسة مجلات أخرى مشرقية معروفة من وزن مجلة الأداب والأديب ودراسات عربية والعربي وشعر وحوار ومواقف والكاتب والطليعة وسواها...

قال لي يومها بالفرنسية: لن أنسى جميلك إلى الأبد يا سيدتي المفكرة الكبيرة. وتقبلت امتنانه المتملق على أنه نوبة فرح تفيض إلى الخارج بكلمات لطيفة لا يعنيها المرء كلها. فرحت بشكره وحزنت، لأن التملق الكاذب أكثر مما

ينبغي يوجع أحياناً ويشبه الهجاء أو السخرية. فأنا لم أكن يوماً «مفكرة» بل كنت شاعرة.

بداياتي كانت كبدايات زوجي، ولكنني أُصبت بالسكتة الشعرية الزوجية، ولم يعد بوسعي أن أكتب الشعر بين صفير طنجرة البخار وجرس منبه الفرن وبكاء الأولاد و. . . و. . . لا لم أصب بالسكتة الأدبية الزوجية مرة واحدة بل كان احتضاري طويلاً ومؤلماً على مدى ثلاثين عاماً من القهر البطيء الصامت الشبيه بالتعذيب بنقطة الماء على الطريقة الصينية، ريثما تنجح القطرة مع الزمن في ثقب الجمجمة. . . وهي طريقة يتقنها زوجي بالفطرة كبقية الرجال العرب. . .

المحبة هي التي جمدتني في موضعي تحت قطرة التعذيب بشيء من قيود التعلّق بالأولاد والأسرة والمجتمع، ومديح زوجي لطبخي كلما عرضت عليه قصيدة جديدة وتسليطه ولدينا عليّ بتشجيعهما على السخرية من (عبقريتي) الأدبية. لا. . . ليست المحبة وحدها بل مزيج من الترغيب والاحباط والترهيب وأوامر أمي لي بالطاعة وسخرية أبي من أية فعالية أمارسها غير الأمومة ودعواته ـ كلما قلت كلمة شعر ـ بأن يهديني الرب وهو الذي رباني وأخوتي على موسيقى المارشات العسكرية.

في لحظاتي الحلوة النادرة مع رضا صار قلبي يحار أهذه لسعة سوط مدرب في السيرك يدجّن لبوة أم فرقعة قبلة زوجية؟).

تدوي قهقهات د. صدوق واستاذ رضا. يصمتان قليلاً.

يسأله صدوق: هل تحب أن نتوقف قليلاً في هذه الاستراحة لنشرب فنجاناً من القهوة؟

يجيبه الاستاذ رضا بصوت يبدو لريم متلهفاً للوصول إلى حفل تكريمه: لا. اشكرك لست متعباً. دعنا نواصل السير.

تقول ريم بصوت بدا لها متأزماً دونما مبرر: أنا بحاجة للدخول قليلاً إلى الإستراحة.

يجيب رضا بهدوئه المعروف: سننتظرك في السيارة لا تتأخري.

تهبط بقدمين ثقيلتين متورمتين (لست بحاجة ملحة للذهاب إلى الحمام فلماذا أتصرف كالأطفال؟ حسناً. أعترف. إنني أحاول تذكيرهما بحضوري!).

تدخل إلى الحمام بركبتين منهكتين. تغسل وجهها الخالي دائماً من الأصباغ. تتأمله بدهشة كأنما تراه للمرة الأولى بتجاعيده كلها وتطن داخل جمجمتها أصوات كهدير النحل (كنتُ جميلة ونضرة يوم ذهبتُ إليه للمرة الأولى. لم أكن أبحث عن زوج بل عن منبر لنشر قصائدي.

رحب بي بحرارة فهو يعرف العديد من أفراد أسرتي العريقة المتدينة.

قال لي أنه لا يتوسم خيراً كثيراً بجرأتي اسوة بكاتبات «وقحات» بدأن معي، لكنه امتدح حمرة الخجل التي غزت وجهي كعادتي يومئذ.

في لقائنا الأول ذاك كان معجباً جداً بقصائدي وقرأها مراراً بصوت عال ووعدني بأن يقذفني إلى المجد على حد تعبيره.

في فترة غزل العيون قبل الخطبة قال لي ذات يوم مداعباً: من لها مثل هذا الشَعر تكتب بالتأكيد أجمل الشِعر. طربت يومها لهذا الغزل من الأستاذ الكبير، فقد كانت مجلته على حداثة عهدها قد نجحت في فرض نفسها في الأوساط الفكرية والثقافية. وسررت لرفضه نشر شيء لمنافساتي الجريئات «الوقحات» ولكنني شعرت بضيق في الوقت ذاته لهذا «النقد الأدبي» العاطفي.

كانت قصائدي تعني لي الشيء الكثير ولم يبدُ يوماً بعد آخر أنها تعني الشيء ذاته لرضا.

أصررت على أن يطالع يومها ما حملته إليه. امتدحه كثيراً وحين ناقشته في بعضه لاحظت أنه لم يقرأ جيداً سطوري وقال: قرأت قدر الإمكان وهو صالح للنشر. معذرة فقد انشغلت بقراءة كتاب وجهك، وتقليب صفحات عينيك. كيف رضيت يومئذ بهذا الهراء اللزج، ولماذا تصورته لحظتها أجمل ما قيل منذ المعلقات السبع؟.

تابع هو: كتاب عينيك ليس بوسع المرء أن ينجز قراءته طوال عمره! لكنه فيما يبدو انجز قراءته بعد ليلة العرس ورماه من النافذة مع صراخ طفلنا الأول.

أجل. لقد أحببته من اللسعة الأولى!... منذ قال لي أن شَعري أجمل من شِعري ولم أفهم جيداً أن تلك العبارة التي أفرحتني مقدمة لذلك العمل الرتيب المخدر المنزلي الذي يختزنه لي دونما رحمة، وفي اللحظات النادرة التي أحاول خلالها تنظيم وقتي يتولى خلخلة روحي ويجعلني أشك في قدراتي الكتابية.

افهمني منذ البداية بصورة غير مباشرة أن عليَّ الغاء نفسي وأنني محرومة من حقوق «الأنا الفنية» لأنني امرأة عربية... بوسعي بالطبع أن أعمل كمعاونة له لا أن استقل برغباتي الأدبية. وحين يغيب مسافراً في الندوات عليَّ أن أقوم بعمله وعملي معاً، وحين يعود ويمرض طفلنا ينام هو وأسهر أنا.

وليلة قررت الهرب في لحظة صحو كانت أحمالي ثقيلة: طفل في بطني وآخر على ذراعي... واستيقظت صباح اليوم التالي وقد تحولت من عصفور إلى خروف ونحلة لامرئية صارت تطن في صدري).

تتابع ريم غسل وجهها بالماء البارد. تمشط شعرها فتتساقط عشرات الشعرات بين أسنان الفرشاة. تتنهد بأسى. تعود إلى السيارة. تسمع د. صدوق يقول لزوجها رضا: لا تكفي حفلات التكريم المحلية لك بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيس المنشورات وأكثر من ثلاثة عقود على تأسيس المجلة. كان لا بد من تكريمك خارج بلدك، فاشعاع مجلتك وكتبك قد امتد من المركز في شمال إفريقيا على طول قارات. ثم إننا بتكريمك في باريس نعزز الفكر الوطني الذي قامت عليه دارك التي اعتز بها. وأنا مسرور لأنها ستنشر لي كتابي الجديد و...
و...

يعاود ريم الإحساس بفوران مختنق في صدرها مثل خلية نحل سدوا منافذها كلها (ها قد بدأ خطاب التكريم في السيارة ولكل شيء مقابل. وأنا عدت نقطة سوداء مهملة. امرأة مكممة محشوة في كيس أسود يغطيها من الرأس حتى أخمص القدمين).

يصمت د. صدوق. تدهش ريم فقد كانت تتوقع أن يلقي كلمته بأكملها في السيارة. يبدو مشغولاً بطرد نحلة من النافذة (ولكن ما الذي جعله يقطع «بروفة» محاضرته؟ النحلة؟ لقد اكتشفت متأخرة بعدما اشتد ساعده

ورماني أن هذا النمط من الناس ما أن يستلم الكلام حتى يمتطيه ويظل يصول ويجول وهو يدوس رأس الحقيقة ويصيبها بالكدمات والناس تصفق وما أكثر أمثاله في حفلات التكريم. وآه من حفلات التكريم!

لم أفعل شيئاً في الأسابيع الأخيرة غير مرافقة زوجي إلى حفلات التكريم، ولكن أحداً لم يذكرني بكلمة شكر إلا بصفتي المرأة التي تقف وراء العظيم! نسوا كلهم أننا وقفنا رضا وأنا جنباً لجنب دائماً. وكم حنوت على حروفهم وغسلتها بزيت المحبة.

كنت حمقاء يوم عاديت الكاتبات المتحررات اللواتي يلقبهن زوجي بالوقحات. كنت أغار منهن عليه. أعمل في الظل ككل نساء بلادي. أعمل ليل نهار كالنحلة. أقوم بعملي كأم وزوجة وأشارك زوجي العمل مناصفة في المؤسسة والمجلة. كلهم يعرف هذه الحقيقة. ولكن أحداً لم يتذكر ذلك كله في حفلات التكريم، حيث تم دفني بالصمت والإهمال إذعاناً للرياء الاجتماعي فالرجل هو المحور وموضع التكريم... حفلات تكريم يستحيل صدري خلالها إلى خلية نحل تضج بالغضب، فقد كنت دائماً نحلة تصنع العسل للجميع. نحلة ملدوغة).

تشعر ريم بالندم لأنها رافقت زوجها إلى باريس. (في الفندق تمددت على السرير لاستريح قليلاً وفكرت بطلب فنجان قهوة.

أكره حفلات التكريم هذه؟ حسناً. ولكنني أحب الفنادق حيث أصير مساوية لزوجي. فلأحاول الاستمتاع بأيام بلا واجبات بيتية. في الفنادق وحدها يصير بوسعي أن أريح جسدي لأطلق سراح أفكاري.

فتح زوجي الخزانة وإذا به يهلل. لقد وجد غرفة الفندق مزودة بمكواة خاصة بالزبائن.

طلب مني أن أكوي له الطقم الخاص بندوة التكريم. هل كان يريد حقاً ذلك، أم أنه أحب أن يذكرني بمن أنا، ويضعني في «مكاني» الخاص بي كعادته كلما سنحت فرصة ما؟

امسكت بالمكواة ونقمة جارفة تفور في صدري. وجدتها معطلة. جاءت

العاملة المختصة وأبدت دهشتها لأن المكواة تعطلت، وقالت إنها جربتها قبل حضورنا وتفقدتها مع بقية الأدوات الكهربائية كعادتها كلما مضى نزيل!

غادرنا الفندق بعد الظهر للتسكع. شاهدت سيارة بديعة، لم أر لها مثيلاً من قبل. صرت أحدِّق فيها وكلي شهوة لامتلاكها وقد استيقظ حلم مراهقتي بقيادة سيارة مكشوفة عارية القدمين على شاطىء البحر في ضوء القمر وحيدة مع الموسيقى. تسمرت أمام السيارة وأنا أفتح بابها في خيالي برغبة سرية جارفة وذهلت حين سمعت صفارة الإنذار ضد السرقة تنطلق منها في تلك اللحظة دون أن أمسها أو يعالجها أحد!).

تتوقف السيارة. يقول صدوق: يا لهذه النحلة اللعينة! يؤكد للاستاذ رضا متباهياً برجاحة عقله أنه رجل حذر ويفضل التوقف لقتلها بدلاً من الاستمرار والتعرض لخطر وقوع حادث.

تقول له ريم: لا تقتلها. دعها تذهب وشأنها.

يؤكد أنها نحلة كبيرة مرعبة يجب قتلها.

يقهقه وهو يسحقها فوق الزجاج.

تسأله ريم مناكدة: لعلها ملكة النحل والخلية بحاجة إليها.

يجيب: ليس ثمة ما لا يمكن الاستغناء عنه (بلى. كان ثمة ما لا يمكنني الاستغناء عنه حتى من أجل قصائدي. رضا الذي أحببت وكرهت في آن. والطفلان؟ لم تكن كلمات المعجم بكافية لوصف فرحتي بهما، إلى أن كبرا وصارا غريبين عني كبقية ذكور القبيلة، يحدثانني بنبرة تشبه نبرة أبي. يحرصان عليَّ ولكن لا حوار بيننا إلا عن الطعام. في القضايا الأساسية يدور الحوار مع جدهما ووالدهما. وهكذا هاجر أحدهما إلى كندا، وهاجر الآخر إلى الهجر المهذب والصمت ولم أعد أراه إلا في المناسبات الاجتماعية اللائقة بسلوكه اللائق تجاهي.

بلى. ثمة ما لا يمكن الاستغناء عنه كالشعر مثلاً. ثلاثون عاماً من التدجين وأنا ما زلت أكتب الشعر سراً أو داخل رأسي. قصائد تطن في فضاء جمجمتي كالنحل، قصيدة بعد أخرى نحلة بعد أخرى. ثمة قصائد كثيرة كتبتها

في أحلامي وعجزت صباحاً عن تسطيرها على الورق. فقد كان رضا منذ البداية يحسن تقسيم أوقاتي لي، وإذا لمحني أعاقر قلماً وورقة اخترع مناسبة اجتماعية تشغلني لأيام - ريثما تمر نوبة الجنون الشعري - مختاراً هدفه بذكاء وعناية بحيث يصيب مني مقتلاً، مثل وليمة لأسرتي أو لأسرته أو لأي عابر سبيل. ماذا تفعلين؟ أتكتبين قصيدة؟ ولكن علينا دعوة وكيلنا في لبنان إلى العشاء الليلة فهو يزور مدينتنا. يتم استنفاري إلى المطبخ، لكني أظل أكتب قصائدي الصامتة داخل رأسي طوال السهرة، نحلة تطن ولا تسكت.

أهرول بين المكتب والمطبخ وأشرف على التصليحات وتجديد الديكور الذي لا بد منه كلما حدّثت زوجي عن اشتعال شعري جديد في أصابعي...

وحين أتمدد منهكة لاستريح بين اللطمة بالمحبة والأخرى أرى العنكبوت يحيك خيوطه بين أصابعي يوماً بعد يوم قهراً بعد قهر عاماً بعد عام... عنكبوت ينسج شباكه بخيوط من الحرير وضوء القمر ولكنها تقيد يدي بأقسى مما تفعل قيود الحديد... والنحل يتكاثر في صدري يوماً بعد آخر)...

يسأل الدكتور صدوق الأستاذ رضا: ثمة العديد من الخطب التكريمية التي ستلقى الليلة، فهل تحب أن تعقّب عليها أم لا؟

يجيب رضا بتواضع: سأحاول ولكنني سأكون أكثر خجلاً من قول أي شيء! (ولكنه لا يخجل من المشاركة في التكتم على حقيقة يعرفها الجميع وهي أنني قمت بنصف العمل في دار النشر والمجلة بالاضافة إلى عملي في البيت: ثمة تواطؤ مشترك على إخفاء ما تقدر المرأة على اجتراعه، وهو تواطؤ صامت يشبه مؤامرة تاريخية! وإذا كان زوجي يتباهى بأنه قارع السلطة الغاشمة هنا وهناك من أجل رأيه، وقُهر مرات، فإنني شاركته مقارعتها ومقارعة قدري كأنثى عربية في آن.

إذا كان مقهوراً فأنا مقهورة مرتين، مرة معه ومرة به! ولم يحدث مرة في ندوة تكريم ما، في لحظة صدق، أن وقف وقال شهادة حق: هذه المرأة قامت بنصف العمل الذي أديته، وتستحق نصف المجد الذي نلته. لا. لم يقل يوماً شيئاً. فللرجل مثل حظ الانثيين حتى من عملٍ اشتركا في أدائه معاً مناصفة!...

آه صدري يغلي بالقهر، مثل خلية مزدحمة بالنحل، وأكاد أنفجر، ونحلة جديدة تنضم كل لحظة إلى قلبي، ويعلو الطنين فأزداد صمتاً وأبدو من الخارج وكأنني أغوص داخل جسدي الذي صار كتلة من اللحم المترهل وتغيب فيه تضاريس روحي المتوجعة التي ما زالت مرهفة ومقهورة ومطمورة تحت مظهرٍ أشبهُ فيه الملايين من نساء بلادي: أمّ بدينة استسلمت لقَدَر الترهل...).

يقهقه د. صدوق واستاذ رضا. يتسامران ويتابعان حواراً لم تسمع ريم بداياته... (كلما غضبت وفكرت بهجره كان يحدس بذكائه بما أضمر كأنه يقرأ أفكاري. لا يقول لي شيئاً. يتجاهلني. يُخرج من مكان خاص في طاولته الرسائل الغرامية للشاعرة الكبيرة ديانا والتي كانت قد بعثت بعشرات منها إليه تبثه فيها لواعج قلبها، فرسائل غاضبة بعد إعلان خطبتنا تحذره فيها من الزواج من «البقرة» وتعنيني باللقب، فرسائل تلعنه بعدما تم الزواج، وتقاطعه وتسحب ديوانها المهم منه إلى ناشر آخر لتكيد لي وله!...

كلما غضبتُ يقلّب الرسائل فيستيقظ غروري.

كانت مجرد فكرة أنني انتزعته منها تسعدني. مع الزمن وعيت الفخ: إنه لم يتخلَ عنها حقاً من أجلي بل من أجل نفسه، ليظل رجل الواجهة والملك المتوج وأنا الظلّ.

ما كانت ديانا لترضى بأن تكون ظلاً. ما كانت ستهجر محبرتها إكراماً لطنجرتها...).

يتوقف د. صدوق بالسيارة ويقتل رضا بنفسه نحلة أخرى متسللة.

يخيل إلى ريم أنها شاهدت النحلة تخرج من فمها المطبق على صمته.

تقهقه بصوت عال دفعاً لهذا الخاطر اللامعقول.

يقول د. صدوق: إن الأمر لا يدعو إلى الضحك وثمة مشكلة حقيقية تتعلق بالنحل في تلك الضاحية (أشعر أحياناً بالخجل من نفسي حينما أنقم على رضا. ثمة لحظات لا أشعر فيها أنه المسؤول عن تدجيني بل العالم كله. وثمة لحظات أتساءل فيها: إذا لم يساهم هو في التبديل، من سيفعل وما جدوى الهراء الذي ننشره في مجلتنا ويناقشونه في الندوات ما دام البعض يعود بعد ذلك

إلى بيته شهرياراً يقفل على عقل نسائه؟).

يتابع د. صدوق : قبل أعوام، أحضر مختبر في المنطقة المجاورة الآلاف من النحل الافريقي. استوردها لتربيتها وإجراء التجارب عليها، ولكنها هربت من المختبر منذ أشهر ولا أحد يدري أين عمّرت أعشاشها من جديد، ولكن من المؤكد أنها لم تبتعد كثيراً لأن العديد منها ما يزال يزور المنطقة ويزعج الناس كما حدث لنا في السيارة هذه العشية بين فينة وأخرى. . .

الأستاذ رضا يسأل لامبالياً بمشاكل النحل والمختبرات: هل سيحضر رئيس القسم في جامعتكم ندوة الليلة؟

ـ بالتأكيد. وأنا أترجم الآن أحد كتبه لنشره في دارك. **(في البداية كنا نتواصل بلا كلمات، ثم حدث شيء ما أفسد تفاهمنا التخاطري العاطفي التلقائي.**

لا، لم يحدث شيء كبير مفاجيء وهذا هو المروع. كانت الأشياء تموت ببطء من تلقاء نفسها. تغوص شيئاً فشيئاً في مستنقع الرمال المتحركة.

حاولت إصلاح الأمور، لكن الحوار ليس كرة اتبادلها مع رضا كالشيء، وكلما تخربَتْ استبدلها بكرة أخرى. التواصل يكون أو لا يكون.

. . . ولم يعد بوسعي أن أقرأ أفكاره أو نحلم الحلم ذاته معاً في الوقت ذاته، ولم يعد بوسعه أن يتجسس على كوابيسي ونحلي وعذاباتي).

تدخل عدة نحلات إلى السيارة. تكاد ريم لا تصدق ما يحدث لها. **(يا للرعب. . . يخيل إليَّ أنها خرجت من أذني وفمي!)** يتوقف صدوق بسيارته إلى جانب الطريق. ويبدو مذعوراً من دخول النحل ثانية إليها. **(من غير المعقول أن يكون النحل قد خرج من فمي. إنني متعبة الأعصاب لكنني لست خائفة فالنحل صديقي، يقطنني من زمان ويتكاثر في أعماقي).**

يغادر الأستاذ رضا والدكتور صدوق السيارة ريثما يجلو النحل عنها بعد محاولات عديدة فاشلة منها لقتله.

تصر ريم على البقاء وتحمل النحل على يدها واحدة تلو الأخرى وتطلق سراحها في الريح.

يعود كل إلى موضعه في السيارة.

يتابعون الرحلة.

يؤكد صدوق وقد ازداد المناخ الحار اختناقاً: . . . دقائق ونصل. ثم يتابع واستاذ رضا حوارهما. تسقط ريم في بئر صمتها.

يبدو لها الغروب موسخاً، ويزداد النحل طنيناً في صدرها. (كنت أعلل النفس بأن تكون ندوة الليلة مختلفة، يُعاد الاعتبار فيها إلى الحقيقة التي يعرفها صدوق وسواه، لكنني حدست أن لا شيء تبدل منذ وطئت أرض المطار.

شاهدت صدوق بعد انقطاع طال، فحيّاني وكأنه يراني للمرة الأولى! . . . ولماذا يدهشني ذلك وهو منذ نجاحه يتبادل الرسائل والمصالح وزوجي.

في البداية كان يبعث إليَّ بتحية في رسائله مستفسراً عن عملي وقصائدي ثم غاب اسمي تماماً في رسائله وحلّت محله عبارة «وسلامي إلى السيدة حرمك»)!

يقول الأستاذ رضا: يبدو أن الدرب أطول مما توقعت. هل بوسعنا شرب فنجان قهوة في استراحة ما؟

يتوقف د. صدوق بعد دقائق. تجلس ريم وترشف قهوتها صامتة نائية.

يحاول رضا أن يلفتها إلى أناقة المكان متودداً، بل ويستل من أصيص الأزهار على طاولة تتوسط الاستراحة زهرة برية صغيرة ويقدمها لها (بوسعه أن يكون رقيقاً وعذباً. إنه يعرف مواطن ضعفي ويتقن مداواة ما يجرح بين آن وآخر. . . ولكنني نادمة. كان يجب أن لا أرافقه هذه المرة. أخشى أن أنفجر وأقول حقيقة مشاعري وأتسبب في فضيحة ما. ما من فضيحة توازي قول الصدق. . .

في الندوة التكريمة الأخيرة كنت على وشك التعقيب على خطب الحاضرين. . . لاحظت يومها أن كل ما يقال في معظم تلك الندوات لم يكن يشيد حقاً بمزايا زوجي بل بمزايا ليست فيه.

إنهم يخترعون له فضائل لديه نقيضها ويتغاضون عن عيوب يعرفونها.

اعتلى أحدهم يومها سدة المنبر. لم يقل كلمة عن مجلتنا أو دارنا للنشر بل انطلق من المناسبة لاستعراض برنامجه الانتخابي والقاء خطبة سياسية. وكان

سبق له أن شتمنا مرة حين كانت مصالحه تتضارب وخطنا الوطني الذي لم يتبدل يوماً، ووجد في تكريم رضا مناسبة لاعلان مواقفه المستجدة!

يومها شعرت بالحنو على زوجي وهم يتقاذفونه ككرة من أجل تكريم مصالحهم.

كدت استعيد عقلانيتي الهادئة رغم طنين ثلاثين عاماً من النحل في صدري. قررت أن أعدل وأكون محامي الشيطان وقلت لنفسي إنه مقابل احتكار رضا للتكريم، قد يتم اغتياله هو وليس اغتيالي إذا شاء ذلك زعماء الفئة الفكرية الأخرى. رضا موضوع التكريم كرجل لكنه أيضاً هدف القتل والعقاب رغم مشاركتي له في كل أفعاله وأفكاره. وبعد اغتياله سأصير أنا أرملة الشهيد مع كل ما يتضمنه لقب كهذا من مزايا واعتبارات لا صلة لها بشخصي، وسأصير ممثلة له. وسيتدفق الحنان عليَّ والتكريم بعد «استشهاده».

مهنة القيادة والخطر أو التكريم من نصيب الرجال. إنه عالم ذكور، وهو ليس وحده مسؤولاً عن ثلاثين عاماً من النحل في قلبي.

ثم إنه لا يخلو من الطيبة لكن الأمور تجري على هذا النحو منذ عصور وهو لن يعلق الجرس ولن يتبدل شيء ما دام أمثاله يخافون.

يخشى سخرية الناس وسوء تفسيرهم لقصائدي أو اطلاقهم الشائعات عني إذا أطلقت العنان لقلمي ولم أكن «ست صالون» مهذبة «متأدبة» خارج أوقات الواجبات المنزلية، وما أكثر الشائعات التي أطلقت عن شاعرات وجنونهن واباحيتهن وعشاقهن المزعومين!

لو انفجرت، لو نشرت، لو تجرأت وطرت ليلاً فوق سطوح المدينة وتأملت احشاءها وكتبتها لقام الخلل في قانون يحرّم زيارة كوكب الابداع على جنس النساء إلا ضمن الشروط الإجتماعية التهريجية.

وصرت أكتب داخل رأسي الخطبة التي كنت أحب أن ألقيها في ختام الندوة كفضيحة جميلة ولكنني لم أجرؤ بل صرت أحاول تبرئة رضا من ذلك المستنقع مدعية لنفسي أنه ليس مذنباً بقدر نقمتي عليه وأنه الرصاصة لا اليد التي تضغط على الزناد وهراء آخر كهذا.

صرت ليلتها أحاول الاستعاضة عن الغضب والغيرة بخزّاني من الصبر والاستكانة والأمومة والحنان. كدت أفشل في امتحان الصبر الذليل وصار غضبي يتصاعد.

صرت أصلي لنغادر الندوة قبل أن أنفجر، وأنصت بعناء إلى صادقين قلائل ومهرجين من الصغار والكبار يتابعون تكريمهم لمصالحهم عبر خطبهم المفترضة عن زوجي.

«عبقور» يروي سيرته الذاتية ممتدحاً ابداعاته متخذاً التكريم ذريعة لاستعراض مجده. وآخر يسجل موقفاً انتهازياً عبر الحديث المقنّع عن انجازاتنا، أما الأدب والفكر والشعر والحقيقة فليست من بين هواجسه.

صرت أرى وجه الخطيب اثنين كما لو كنت ثملة والأفواه تنفتح وتنغلق وأنا لم أعد أفهم شيئاً. تأملت زوجي وخيل إليَّ أنه كان جالساً في مقعد التكريم على منصة الشرف كما لو كان مهموماً.

كأن هذا التمجيد يربكه في لحظة صدق مع الذات.

صرت أرى وجوه الخطباء الذين يتعاقبون على المنابر منذ بدأت حفلات التكريم تغطي الجدران والسقف وتتلاحق صورهم على شاشة لامرئية داخل رأسي كما في الكوابيس وكلهم يتكلم مرة واحدة مثل مئات من أشرطة التسجيل تعِوي كلها معاً واسمع التصفيق والتهريج . . .

كدت أعتلي المنبر وأقول صدقي ونحلي ثم سمعت صوتاً آتياً من قاعي شبيهاً بصوت رضا يسألني: هل أنت مشمئزة حقاً من احتقار الحقيقة أم أنك تحاولين رصد العلل في كل ما يدور لأنك تشعرين بالغيرة؟

صمتُ ليلتها، وانقذني الصوت من فضيحة قول الصدق).

يغادرون الاستراحة. يتابعون الرحلة وقد خيم الصمت.

«ها قد وصلنا» يقولها د. صدوق ويغادر السيارة مسرعاً لمساعدة الاستاذ رضا على الهبوط منها ممسكاً له الباب.

تفتح ريم الباب بنفسها وتهبط. تتلفت حولها وهما يتقدمانها في الدرب الضيقة صوب المركز.

تتأمل المرئيات وهي تغوص شيئاً فشيئاً في الغبار الرمادي للمساء. . .
(يبدو لي العالم غريباً والمساء استثنائياً وأنا في طريقي إلى ندوة دفن الحقيقة في هذه الضاحية الباريسية النائية.

أرى على جانبي الفضاء ستارتين عملاقتين تتدليان من السماء حتى أرض الحقول المحيطة بالمركز الثقافي، معقودتين عند الأفق الممتد في هضبة كالمسرح الشاسع. . .

ستارتان من المخمل الداكن الأرجواني. أكاد أسمع هسيس العث وهو يغلي فيهما.

السماء مرصوفة بالأسمنت ومعبدة جيداً، والغيوم من الآجر المرصوف والفخار.

أسمع هدير أنهار جوفية تغلي بمياه محمومة.

الأشجار تركض في المدى مع فزّاعات الطيور بأوراقها الداكنة، رمادية مشبعة بالسواد.

خلفها نهر متحجر لا يجري وإنما يملأ مجراه ويكاد يفيض على الضفاف.

ثمة قوارب على شاطئه مقلوبة منخورة الأخشاب: أُغمي على شهوة الحركة وذاكرة الماء.

أمام المركز الثقافي شجرة تفاح.

أقطف تفاحة وللتفاحة قناع كرنفالي العينين وشاربان يتدليان منها كما من بقية تفاح الشجرة.

تحتها على التراب المعدني نبتت أزهار من النيون والبلاستيك فاقع الألوان.

هل يرى صدوق ورضا ما أراه؟ أم أنني بدأت أخطو وحيدة في كوكبي الخاص؟

المرئيات كلها تستحم في ظلال راعشة مختنقة. الغروب يغزو المسرح الشاسع. القمر ذكرى قمر. قمر داكن السواد محاط بهالة فضية باهتة كالصدى.

احتقان حار كباطن قنبلة لحظة انفجارها وقبل انشطارهـا يمد كهـاربه لتتواصل أعماقي بأقرانها في ظلمات الأسرار.

نهر جوفي من الاختناق الغامض يمد شريانه المظلم بيني وبين العنـاصر الكونية وألتحم بالدورة الدموية لكوكب سري مجهول.

ومضة

يمر بنا قطار حديدي عار كهيكل عظمي وقد قُيدت إلى المقاعد الحديدية نساء يصرخن في قوافل الهوادج المعدنية.

ومضة

أرى امـرأة تتمدد داخـل تابـوت وهي تقرأ بصـوت عال عـلى العمال الارشادات عن طريقة إغلاقه عليها بإحكام.

ومضة

نبع ارتوازي حار ينفجر من باطن الأرض وتتطاير معه أوراق الكتب كلها التي ترجمتها والقصائد التي كتبتها وصفحات المجلات التي راجعتها.

نبع ينفجر تحت قدميّ د. صـدوق ويعلو بـه وهو يصرخ ثم يهـوي. ينهض ويتابع المشي والحوار مع رضا ولا يقول شيئاً عما وقع له ولا يصدقه خوفاً من أن يُرمى بالجنون.

العالم منطقي وكل خروج عن سكك المنطق غير منطقي ومرفوض! لكنه يلتفت خلفه صوبي وفي عينيه نظرة خوف اتهامية حذرة.

ومضة

عجـائز تجمعن حـول طفلة لختانها، ينسـين كل شيء عن الأمـر حين يكتشفن أن لها جناحين صغيرين ويقمن بقصهما ولعن الشيطان وينبت الجناحان ثانية فيعدن قصهما ويتكرر الأمر دونما توقف دونما توقف وبلا نهاية. . .

ومضة

دفتا باب تنغلقان على طفلة تبكي داخل خزانة وصوتها يتلاشى تدريجياً

وينقطع تماماً حينما تدير المفتاح في القفل يد هائلة الضخامة مقطوعة شبحية عائمة، مهترئة وملفوفة بضمادات للتحنيط تفوح رائحة أدويتها وعقاقيرها المجربة على طول قرون.

ومضة

أمرأة تحتضر مقيدة ومنطاد يطير في الجو بعيداً عنها محملاً بالأدوات الطبية للعمليات الجراحية والقطن واطارات النجاة من الغرق وثياب كرنفالية.

تصرخ المرأة وتطلب النجدة، فيطلقون في الجو ألعاباً نارية تحية لاحتضارها.

ومضة

خيط يربطني من ساقي وأنا نحلة عملاقة بشرية الرأس يعبث بها طفل بشاربين له وجه عنترة في رسوم التيناوي ورفيق شرف.

يضعني الطفل تحت الشمس المحرقة كي أطير كزيز الذهب(*) الذي يعبث الأولاد به ويسرون بطنينه... الطنين لا يأتي من صدري وحده. الخيوط عديدة والنحلات كثيرة وقد ربط مئات منها بخيوط إلى أصابعه كلها... طنين غاضب. طنين... خيوط... طنين... أرسل نداءآتي إلى أسراب نحل خفية طالبةً النجدة... وأتواصل وإياها).

الاحتفال بالتكريم بدأ.

تغمض ريم عينيها وتفتحهما وهي تبذل مجهوداً خارقاً كي لا ينفجر مجهول ما في صدرها... كي تنصت إلى ما يُقال.

الأصوات تأتيها متقطعة كالهمهمات اللابشرية، مثل تنهدات مخلوقات الأقفاص في حدائق الحيوانات في الليل وزعيقها.

(*) زيز الذهب: حشرة تشبه الصرصار شكلاً لكنها بديعة اللون فهي داكنة الخضرة المذهبة، وحين يربط الطفل «زيز ذهب» من ساقه بالخيط ويمسك به تحت الشمس الحارة تفرد الحشرة جناحيها وتطير محاولة الهرب ويصير جناحها الشفاف في الضوء بلون الزمرد. وأحياناً تنقطع ساقها المربوطة بالخيط في محاولتها المستميتة للطيران وتهرب وقد خلفت ساقها وراءها.

عبثاً تحاول ريم أن تتواصل وأداة اللغة. . . . يعاود الطنين المروع ضجيجه في أذنيها ولا تدري أهو قادم من صدرها أم عبر النافذة.

ترى الحضور بأقنعة مركبة على الوجوه. بعضهم ليس آدمياً. هذا الذي يلقي كلمة على المنبر كلب زينة (بودل) بقناع حصان. هذا الخطيب الآخر وحيد قرن بقناع أرنب. . . **(يا إلهي ماذا يحدث لي؟ قفير النحل في صدري يكاد ينفجر. ثلاثون عاماً من النحل. . . نحل داخل شراييني. طنين يصمّ أذنيّ ولست بواهمة).**

الطنين يصم أُذنيها.

يصمُّ آذان الحضور جميعاً. يُذهلون وهم يرون أسراباً من النحل تتدفق من كل مكان كهبوب الرمل في عاصفة هوجاء ولا أحد يدري بالضبط من أين يهطل.

النحل يتدفق. ثمة صراخ: اغلقوا النوافذ. النحل يهاجمنا.

أسراب هائلة من النحل تغلي في القاعة. ريم في شبه غيبوبة، كمن يرى حلماً أليفاً عاشه مرات ومرات. ترى ما يدور بعينين زجاجيتين ولا تدري هل ذلك النحل قادم عبر النوافذ حقاً أم أنه يخرج من عينيها وأذنيها وحنجرتها وأظافرها وشعرها وهي متخشبة ومتجلدة والحضور كلهم يصرخون كالمجانين والنحل يلسعهم كما في كابوس طويل هائل.

زوجها يحدق فيها مذعوراً كأنه يرى ما لا يُصَدَّق وهو يصرخ ألماً ثم يركض صوبها ولا يدري هل يفعل ذلك للاحتماء بها أم لحمايتها.

لا تلحظ في غيبوبتها أنها تنحني عليه كرحم.

سُحُبُ النحل تغطي وجه صدوق وتلسعه وهو ينتفض ألماً ويشير إلى ريم متهماً كأنه يريد أن يقول شيئاً. يسقط على الأرض. يرتجف كمن يحترق ولا يسمعه أحد وهو يصرخ أن النحل يخرج من فم تلك الساحرة مشيراً إلى ريم.

الحضور يصرخون ويتلوُّون. يحاول بعضهم الهرب من النوافذ والأبواب. يسقط معظمهم على الأرض ذعراً وألماً من النحل اللاسع والطنين المرعب.

تعود ريم شيئاً فشيئاً من غيبوبتها. تلاحظ أنها لا تتوجع. لم تلسعها نحلة وليست خائفة. الطنين وحده يصمّ أذنيها، والصراخ. النحل يغطي وجوه الجالسين على طاولة الشرف وأيديهم الدامية تلوّح في الفضاء كأيدي الغرقى قبل الانهيار.

صراخ... أنين... إغماء... ينتاب ريم تعب هائل ويُغمى عليها.

صفير سيارات الاسعاف. الشرطة. لا تدري كم من الزمان انقضى. تفتح عينيها: يا له من كابوس! يخيل إليها أنه سبق لها أن شاهدته من قبل. **(ولكن أين أنا؟ لمَ أنا نائمة في حقل؟).**

تلتفت. ترى زوجها ممداً إلى جانبها كعشرات الناس في الحقل، يرتجف بعدما لسعته عشرات النحل فيما يبدو.

ممرضون وسيارات إسعاف تروح وتجيء تحت المصابيح الكشّافة. رجال شرطة، وأطباء يتجولون بين الأجساد المرمية على الأرض.

ينحني عليها طبيب شاب. تسأله: كيف حاله، مشيرةً إلى زوجها.

يقول: سيئة لكن حياته ليست في خطر. أنت أُغمي عليك ولكنك بخير. الغريب أن النحل لم يلسعك. لعله عطرك الذي حماك منه. أنتِ من القلائل الذين لم يلسعهم النحل. تنصت إليه وسخرية في صدرها **(لن يحار الطبيب أمام لغز عادي كهذا. فلدى العلماء جواب مقنع دائماً).**

يكرر قائلاً: عطرك هو الذي حماك بالتأكيد من لسع النحل ونفرّه منكِ... ثمة عطور جميلة بالنسبة لحاسة الشم البشرية تنفر منها الحشرات وأخرى تجتذبها.

هذا النحل الافريقي متوحش وسام... لقد هربت أسرابه من أحد المختبرات منذ فترة وتنقلت ويبدو أنها كانت مختبئة في البيت المجاور المهجور وفشلوا في إيجادها رغم البحث الحثيث عنها.

تصمت ريم. لا تقول له إنها لا تضع العطور لأنها مصابة بالحساسية منها!

تتنهد عميقاً. تتنفس براحة وتشعر أن صدرها كالأثير تتخلله رياح المساء ولم يعد محتقناً باختناق غامض سريّ الطنين.

يسأل الطبيب زميلاً له يبدو حائراً: ولكن لماذا لسع النحل بعض الحضور ولم يقترب من البعض الآخر؟ وما الذي جعله يجن الليلة بالذات؟...

يقول الآخر: لكل شيء تفسير علمي وسنجد الجواب ولعله الحر.

تبتسم ريم سراً في داخلها ولا تقول شيئاً.

يعالجون زوجها بالمراهم والأبر. يلتفت إليها ويقول خجلاً من اتهامه بالجنون: لقد خُيّل إليّ في إحدى اللحظات أن النحل كان يخرج منك. بوسعي أن أقسم أنني لمحته في ومضة برق قادماً من فمك وأصابعك وعينيك وشعرك وأنفك...

لا تجيب.

يتابع الأستاذ رضا: ولكن ذلك بالتأكيد مستحيل. خيّل إليّ بعد ذلك إنك حميتني من النحل. الأمومة كانت موهبتك دائماً. إنك تفرزين الحنان كما يفرز النحل العسل. المرأة كالنحلة العطاء لديها إفراز ولا تُشكر عليه. (**ثمة دائماً جملة معسولة لابتزازي تهينني ضمناً... لماذا لا يصمت؟ صار يثرثر كثيراً مثلهم**) تشعر ريم بنحلة جديدة تطن في صدرها. (**هكذا بدأ الأمر من زمان بعدة نحلات وطنين خافت... هكذا بدأتُ منذ ثلاثين عاماً من النحل!**).

تتأمل سماءً مظلمة بأسرارها، والقمر مرآة تقع على الأرض وتنكسر ويتناثر حطامها...

١٩٩٤/٨/٣٠

الجانب الآخر من الباب

لا تشعر بالحرج أيها الشيخ..
دعوه يمر.
شيكسبير

أتوق للحوار مع شبح عاشق قديم، مات قبل أن يولد رب الحب.
جون دون

الدجاجة هي اسلوب البيضة في صنع بيضة اخرى!
صموئيل باتلر

الغاية هي الطريق.
جوته

هل أموت حقاً، أم أنه عيد ميلادي؟
نانسي استور

الجانب الآخر من الباب

الثلج يتطاير كأنه يهطل من الأرض صوب السماء. الظلام بدأ يندف ثلجه الأسود أيضاً داخل عينيّ ليلى، وهي تغادر المستشفى في الضاحية الباريسية.

تجر أمامها المقعد الحديدي المتحرك لابنها شاكر وعجلاته تغوص في ثلج تركض فراشاته البيض في المدى منذ يوم وليلة. (إنني حصان مسكين متعب يجرّ عشرات العربات ولا يدري كيف ولماذا.

كنت مهرة شبه سعيدة على شواطىء الضوء. أشق طريقي ككاتبة في الصفحة الثقافية في إحدى صحف بيروت وأحلم بالنجاح، وها أنا بصعوبة أنتزع خطاي من الثلج.

يومها كنت عاشقة لعينيّ نعيم احتمي بهما في الملجأ من رعد القصف وذعر الموت.. كانت عيناه العسليتان الدافئتان نافذتين اركض إليهما وأهرب عبرهما إلى حقول شاسعة صامتة إلا من أصوات العصافير، بعيداً عن أصوات القصف والرعب التي لم أعرف سواها منذ كنت في العاشرة من عمري حين انفجرت الحرب..

عينان في الملجأ تصفّحانني ضد الخوف والموت والألم، وضد بعوضة بحجم جرذ، وجرذ بحجم قط. نجلس وسط عشرات الأسر الأخرى الجارة، محاطين بأسرتينا، وتتعانق نظراتنا خلسة في مؤامرة لطيفة لقتل الحضور، نلغيهم من الملجأ واحداً بعد الآخر بممحاة لامرئية، مع اصواتهم ورائحة عرقهم وعفونة جدرانهم وجرذانهم وأصوات حربهم وجنونهم ونبقى وحيدين معاً في تلك الحقول الخضر الهادئة.

كيف انتهي بي ذلك كله إلى هذه المسيرة الذليلة الحزينة بين البيت والمستشفى المجاورة ثلاث مرات كل اسبوع على طول خمسة اعوام من الفقر والقهر؟.

لقد حلمت في مراهقتي بعش الزوجية ولم يخطر ببالي أنني سأختاره لمجرد أنه قريب من مستشفى في قارة أخرى!). .

يوقظها شاكر من افكارها ويسألها مرتين. متى يحضر عمو بوبوص؟ يكرر سؤاله قبل أن تلتقط انفاسها لتجيب بنفاد صبر: وعدنا بالحضور في السادسة والنصف.

بصعوبة ترفع المقعد الحديدي المتحرك استعداداً للهبوطِ به عن الرصيف وقطع الشارع. يعاودها الوجع في ذراعيها المرهقتين (حين رفعتُ شاكر في ديزني لاند عن مقعده وحملته تمهيداً لوضعه في مقعد الطائرات الدمى الدوارة، وعيت فجأة أنه يكبر ومأساته تكبر معه ولا أدري إلى متى أقدر على حملهما.

كان وزنه أثقل من المعتاد. كاد ينزلق من بين يديّ، فمد ذراعيه ليتمسك بكتفي مثل مصلوب على جسدي المصلوب بالتعب.

حينئذ امتدت ذراعان لرجل لا أعرفه تحملانه عني وتودعانه في المقعد. شاكر ابتسم للغريب على غير عادته، وهو الطفل الذي لم يضحك مرة منذ خمسة اعوام، منذ اصابته شظايا القذيفة الأخيرة في الحرب وخلّفته مشلول الجزء الأسفل. .

قلت للرجل بالفرنسية: اشكرك يا سيدي.

أجابني بالفرنسية أيضاً: سأبقى معك وأساعدك في حمله إلى الألعاب وإعادته إلى مقعده. ولولا كهولته ومظهري العادي لظننته يريد التحرش بي.

تأملته. طفل كبر على حين غرة بخدين محشوين بالسكاكر المسروقة من علبة جدته وعينين جذلتين تتطلعان إلى مباهج «الديزني لاند» الطفولية بهياج بريء لاحتضانها كلها مرة واحدة.

تحاورنا بفرنسية نصف ركيكة ريثما اكتشف كل منا أن الآخر لبناني.

سألته عن اسمه. أجاب: شاكر.

ضحكت: يا لها من مصادفة! ابني يُدعى شاكر أيضاً.

أضاف: لكن الأطفال يدعونني بوبوص.

ـ أطفالك؟

ـ أطفال السيرك حيث أعمل مهرجاً. هذا هو على الأقل اللقب الذي يُسمي به الناس مهنتي من الخارج.

سألته جادة: وما هي مهنتك؟

ـ خادم عند «بابا نويل». هو يوزع الهدايا في فترة الميلاد وأنـا أحاول توزيع الضحك على مدار السنة. الأهل يقومون عنه بعمله ليلةً، وأنا أقوم بها بقية السنة! . . .

ابتسمت من قلبي كله. لم يكن مهماً ما يقوله بوبوص بل كيف يقوله. كانت لديه موهبة انعاش الفرح.

حمل شاكر ثانية إلى مقعده فلم ينفر منه كعادته مع الغرباء. سألني اين والده؟

أجبته: زوجي نعيم يعمل في دكان لتأجـير أفلام الفيـديو العـربية في باريس ولا يستطيع مرافقتنا.

هز برأسه غير مصدق.

شعرت بشهية لا تقاوم لقول الصدق: حسناً. إننا لا نملك من المال ما يكفي لحضورنا ثلاثتنا، فكلفة الدخول ٢٥٠ فرنكاً فرنسياً وأحوالنـا الماديـة صعبة لا تؤهلنا للعيش في باريس. لكننا اضطررنا للإقامة في إحدى ضواحيها من أجل جلسات علاج «الصبي». فعلوا كل ما بوسعهم في بيروت، ونصحونا بالمجيء إلى هنا.

راتب زوجي هزيل ولكننا نتدبر أمرنا.

ـ لماذا لا تعملين وتساعدينه براتبك؟

ـ كان بوسعي العمل ككاتبة في الصحافة العربية المهاجرة هنا، حيث أربح ضعف راتبه، لكن نعيم رفض ذلك قائلاً إنه من غير المقبول أن تعمل المرأة ويبقى الرجل في البيت حتى لو كان راتبها ضعف راتبه.

قلت له يومها: الضرورات تبيح المحظورات لكنني لن اناقشك في خطأ

قرارك هذا.

قال لي نعيم: ابنك بحاجة إلى حنانك. لديك كأنثى أشياء لا أقدر على أن امنحها له.

كنت أريد أن اناقشه في هذه الأسطورة التي اخترعها الرجال لتقييدنا بساق سرير أطفالنا، لكن شاكر صرخ باكياً في نومه، وركضنا معاً ولم نبحث الأمر ثانية!

ذُهلت يومها وأنا أسمع صوتي يبوح بهذه الأسرار كلها لرجل لم أره إلا منذ ساعة ولا أعرف اسمه الكامل ويعمل مهرجاً!...

شعرت بالخجل والندم في آن، ووعيت كم صرت وحيدة وهشّة وعاجزة روحياً مرمية في مقعدي المتحرك النفسي وها أنا اتسول حنان أول من يقترب من حديده وافرض عليه أن (يجرني) قليلاً واسمح لنفسي باستعماله كأذن خاصة بالشكوى بل وأكاد أعترف له بإنني أفكر في الانتحار من وقت إلى آخر!

أتُراه كان يقرأ افكاري حين قال: لا تندمي على ما بحت به، وأنا أيضاً أشعر أنك قريبة مني، فأنت تشبهين شبح أختي كثيراً. ألا تعرفين أن للأموات الأحباب أشباحاً لا تفارقنا وتحضر حين نكون بحاجة إليها لا في الذاكرة فحسب بل قد تتجسد أيضاً؟ وسألني جاداً: هل شاهدت شبحاً من قبل؟

ذهلت فأضاف ضاحكاً: أنا مثلاً شبحٌ لا يخيف الناس في الظلام بل يخاف من الليل قليلاً ويحب النهار. وحين أموت سأتحول إلى شبح يُضحك الأطفال ويفرحهم.

تابع: أحب الأطفال، وكل من لم يعرف المحبة ميت. الموت ليس موت الجسد، ومعظم الذين ترينهم حولك الآن من الأموات. ألم تلحظي ذلك من قبل؟ ألا ترين اختلاط الأحياء والأموات والأشباح في الشوارع والمستشفيات والأعياد وكل مكان؟..

توقفت عجلة الألعاب عن الدوران فحمل بوبوص شاكر بين ذراعيه عني للمرة الخامسة وهو يقول له: «أنا فداك يا حبيبي» ولم يعده هذه المرة إلى مقعده المتحرك بل رفعه على كتفيه وانشغل به عني بقية النهار وهو يداعبه

وينتقل به من لعبة إلى أخرى ويبدو سعيداً حقاً بذلك حتى إنه شاركه الركوب في بعض الألعاب وأصر على أن يدفع ثمن المرطبات والشطائر وأوصلني بنفسه إلى البيت في التاكسي.

شاهده زوجي عبر النافذة يحمل المقعد ويُودع ابني فيه ويودّعنا فسألني نصف غاضب: من هذا العجوز؟

أجبته: لبناني يعمل مهرجاً في «سيرك لاريجولاد» بمنطقة «السان كلو». لقد اعطاني ثلاث بطاقات مجانية للتفرج على استعراض الضحك الذي يقدمونه للأطفال في عطلة نهاية الأسبوع. إنه لم يتزوج ولم يُرزق بأطفال وقد دلّل شاكر كما لو كان ابناً له).

تتابع انتزاع قدميها بصعوبة من الثلج وهي تجرّ أمامها المقعد الحديدي المتحرك وتكاد تنهار تحت جسد الظلمة الثقيل لسماء من السواد الصلد وما من نجمة.

يسألها شاكر: متى يحضر عمو بوبوص؟

تكرر بحنان: في السادسة والنصف يا حبيبي. إنها الخامسة والنصف الآن. سأعمل على تحضير الشطائر والحلوى وسيمر والدك لإحضار كعكة ميلادك في طريق عودته من عمله. سكون عيدك أحلى عيد ميلاد.

يسأل: بماذا سنلعب ريثما يحضر عمو بوبوص؟

تجيب: سيحضر الأولاد في السادسة، وريثما يصلون جميعاً سيكون عمك بوبوص قد وصل. لن يتأخر بوبوص عن السادسة والنصف فاطمئن. ستلعبون بلعبك ريثما يحضر. (قلت لبوبوص: عيد ميلاد شاكر في الأسبوع المقبل، وسنحتفل به للمرة الأولى، وذلك بمناسبة توقف الحرب في لبنان. لا تنس أنك اقترحت علينا ذلك ذات مرة، فهل تستطيع الحضور والسهر معنا؟

- ذلك يتوقف على توقيت عملي ولكنني سأحاول المستحيل بالتأكيد.

- لا عيد بدونك يا بوبوص فشاكر لا يبتسم إلا حين تداعبه. إنه عابس دائماً كعجوز كئيب في المدرسة والبيت والشارع وحتى أثناء اللعب مع رفاقه.

الطبيب قال لي منذ عام: هذا الصبي شُفي جسدياً لكنه يفتقر إلى إرادة المشي. إذا لم يبتسم ويضحك لن يشفى. الطب يستطيع أن يفعل الكثير. يزرع الأعضاء، لكنه لا يستطيع زرع الفرح.

قال بوبوص: قسماً بحياة شاكر «سأحضر حتى ولو كنت أحتضر»(*). هذا وعد ولن أتأخر.

سألته: بأي شاكر تحلف؟ به أم بك؟

أجاب: أنا وإياه واحد! . . .)

تتوقف ليلى قليلاً. تصلح من وضع قبعة ابنها على رأسه. تحيط عنقه جيداً بالوشاح الصوفي. تتنهد منهكة. البرد القارس يحجّر الثلج ويحوله صقيعاً. تكاد تزل بها القدم. تزداد تمسكاً بالمقعد الحديدي لشاكر خوفاً عليه من الإنزلاق.

تتابع تقدمها ببطء. الثلج الرمادي المسائي ما زال يندف في الفضاء وداخل قلبها وتحت جلدها. ثلج في دورتها الدموية. ثلج يندف داخل حنجرتها فتشعر بما يشبه الاختناق من أمسيات كئيبة باردة تهبط فيها الظلمة قبل الخامسة مساء.

تتنفس لاهثة ويلسعها الهواء البارد في رئتيها كنمل ابيض متوحش خرافي (ها أنا كسيحة تجر كسيحاً. كم أنا متعبة! يجب أن أتماسك. إنها المرة الأولى التي نحتفل فيها بعيد ميلاد شاكر. الاقتراح جاء من بوبوص منذ أشهر حين قال لنعيم وقد توطدت أواصر الصداقة بينهما كأي قطين ضالين في غابة يجهلانها: هذا الطفل ينقصه الفرح. لماذا لا تحتفلان بأية مناسبة ليسعد قلبه؟ احتفلا بالأعياد كلها على اختلاف مذاهبها. . احتفلا بعيد ميلاده على الأقل.

كنت أعد «التبولة»(**) في ركن الغرفة الكئيبة الذي تحول إلى مطبخ وأنا انصت صامتة لحوارهما وقلبي يبكي.

قال له نعيم: نحتفل؟ احببت زوجتي في الملجأ، وهناك خطبتها من والدها. وليلة العرس داهمنا القصف فقضينا بقية (الحفلة) في الملجأ، وبعدها

(*) ترجمة نحوية لعبارة «بدي إجي ولو كنت عم بلفق» وهو تعبير بلدي معروف.

(**) التبولة: طبق فولكلوري لبناني.

بعام ونصف داهمها المخاض في الملجأ أيضاً وتعذر نقلها إلى المستشفى لعنف الاقتتال الأخوي بين سطحنا والسطح المقابل، فولد شاكر في الملجأ وكانت إحدى الجارات قابلة قانونية لحسن الحظ. وها نحن نعيش في غرفة ضيقة النوافذ كالملجأ!! كنا نضحك ونمرح بين الملجأ والملجأ طوال ثلاثة أعوام من الفرحة بشاكر ونعيش بالرغم من كل شيء ونعمل أنا كموظف وهي كمحررة حتى اصابت الشظية ظهر ابننا وكسرت ظهرنا.. أنت لست غريباً وتعرف أحوالنا فكيف تريد منا أن نفرح ونُفرحه؟

ألا ترى كيف انتقلنا من قصف النار إلى قصف الفقر؟

ـ لن اتفلسف عليك مع أنني درست الفلسفة قبل أن أصير مهرجاً، فأنا أعرف أن الكلام الذكي الشاطر لا يداوي وجع الأضراس. ولكنني سأصارحك بسر وبوسعك أن تضحك عليّ.

حين تخرجت من قسم الفلسفة في الجامعة كنت أنوي العمل استاذاً في الفلسفة. ليلة قدمت طلبي للعمل داهمنا القصف فنزلنا إلى الملجأ والدنيا ظلام إلا من شمعة في ركنه. داعبت طفلة الجيران فضحكت واشتعلت في قلبي شمعة. أكرر. لن اتفلسف عليك. لم تشتعل في قلبي بل شاهدتها على أرض الملجأ قرب الأولى.

داعبت طفلاً آخر. ضحك. اشتعلت شمعة ثالثة. قالت أمه إنني موهوب في التهريج للأطفال وتضايقت أمي من هذا القول عن ابنها «الفيلسوف».

داعبتُ أطفال الملجأ. قهقهوا. وضحك معهم أهلهم وعمّ الضوءُ المكان كما خيل إليّ وتبدل الهواء الفاسد. حين سقطت القذيفة أمام باب الملجأ وانفجرت وقتلت أمي عاهدت نفسي على تكريس حياتي لإضحاك الأطفال، والعمل مهرجاً.

كنت دوماً أريد زيادة مادة النور في (ظلمانية) قلوبنا الكثيفة بالعدوانية بعدما تكدس ميراث العتمة على امتداد سنوات الحرب الزئبقية.

منذ قتلت القذيفة أمي الشفافة كهيولى من ضوء، هربت من ذلك الهول

كله إلى إضحاك أطفال الملجأ المذعورين والجرحى وقال الجيران إنني فقدت عقلي لمصرع أمي أمامي ولكثرة ما درست الفلسفة أيضاً! . . بالله عليك يا أخي، هل تجدني مجنوناً؟

اجابه نعيم: مجنون وألف مجنون فأنت تنفق راتبك على شراء اللعب والهدايا لشاكر.

ـ المجنون هو شريكي في الغرفة. إنه ينفق راتبه على النساء.

تدخلتُ في الحوار وقلت لهما: كل واحد مجنون على طريقته وكلنا مجانين. المهم أن يختار المرء الجنون الذي يناسب حقيقته).

يرجو شاكر أمه بما يشبه البكاء وهو يرتجف: عجّلي قليلاً لأنني أشعر بالبرد.

تجيب بصمت: أخاف يا حبيبي من الإنزلاق على الأرض. لا تقول له إن أصابعها تكاد تتجلد داخل قفازاتها الصوفية المثلجة المبتلة، تخشى أن ينزلق كرسيه من بين أصابعها وتدهسه سيارة أو يصطدم بجدار، أو . . .

لا تريد أن تقول له ما ينكده، لذا تجيب بصوت هادىء: حاضر يا حبيبي . . (وقفتُ أمام واجهة المخزن في الشانزيليزيه والمعطف الدافىء المبطن بالفراء يناديني. الثياب الدافئة الجميلة باهظة الثمن، فمن أين لي بشراء الدفء؟ الفستان الوردي أيضاً كان يناديني. أعرف أنني لست جميلة. أنفي يفسد حلاوة عينيّ ويكاد يتدلى حتى فمي، وقامتي قصيرة وممتلئة ومحرومة من الاستدارات المدججة بزوايا حادة تجعلها شهية. ولكن لو كان بوسعي شراء هذا المعطف بقبعته المبطنة بالفراء والدفء لما تعذبت في ليالي الثلج، ولو كان بمقدوري شراء هذا الفستان الوردي لبدا أنفي أصغر قليلاً، ولو كنت أملك المال لعملية تجميل لأنفي لصرت حلوة.

اقتربتْ مني البائعة تسألني: هل استطيع أن أقدم لك خدمة؟

إنه الأسلوب المهذب الفرنسي لطرد الزبائن المفلسين وتذكيرهم بأن ليس لديهم ما يفعلونه هنا!

قلت لها: لا. شكراً.

انطلقت هاربة من الدكان وقد عاهدت نفسي على أن أتابع التوفير في النفقات لنشتري كرسياً متحركاً على البطارية لشاكر وسيارة لتسهيل التنقل معه.

حين عدت إلى البيت تشاجرت مع نعيم لأنه كان قد اشترى (كروزاً) من السجائر بالرغم من ارتفاع أسعارها. يدخن ويهدر المال ويخنقنا بدخانه في شقتنا القفص، فنهرب أنا وشاكر إلى غرفته الصغيرة المتفرعة عن غرفتنا الوحيدة ولا باب آخر لها وفيها كوة صغيرة عالية تنوب عن النافذة.

تشاجرنا طويلاً وكل منا يعوي في وجه صاحبه وكنت أعرف أننا نتشاجر مع مصيرنا ونعوي في وجه اقدارنا.

ظللنا نتشاجر حتى تحولنا إلى ذبابتين تتخبطان في شبكة عنكبوتية شاسعة وما من ضوء، ثم فاجأنا بوبوص بزيارته و (تفلسف) علينا قائلاً أشياء عن الضوء وظلمة العداوة وهو في طريقه إلى غرفة ابننا الضيقة كالوكر وسمعناه يداعبه ويهرج له ثم خرج بعد نصف الساعة وكنا هدأنا وقال: لقد نام المسكين كالملاك. لن يقف على قدميه ولن يشفى وأنتما على ما أنتما عليه من شجار وبؤس. ما أثقل ميراثه من الظلمة!

لم نأبه له وتعالت أصوات شجارنا من جديد...

قال لنا غاضباً: أنتما شبحان بشعان مرعبان.. إذا تشاجرتما ثانية هكذا في حضوره وايقظتماه بعدائكما سأعاقبكما باختطافه ونختفي معاً...

ابتسم نعيم وقد انتهت فورة عصبيته وعاودته طيبة قلبه المألوفة حيث يحاول ترميم كل ما خرّبه حوله متودداً للآخر حتى التملق المفاجيء ومتدحاً أية سخافة تقال وضاحكاً لأتفه نكتة ولكن دونما اعتذار.

أما أنا فقد أخافتني عبارة بوبوص حقاً... ما يرعبني أكثر من الشلل النصفي لشاكر هو خسارتي له. ذلك الطفل الجميل المعذب الصابر بكبرياء الذي تهب من شعره رائحة أشجار الأرز، ويتعرق جلده ملوحة البحر وتلوح في عينيه عذوبة ذكريات طفولتي في تلك الأيام الجميلة قبل الحرب..

آه الذكريات الجميلة جمالاً تعهدته ذاكرتي بالتحريف بشطب كل ما كان

بشعاً وبمضاعفة جمال ما كان جميلاً. . . الذاكرة. . . ذلك الشبح الذي أتمسك به، أراه ولا أراه. . وأتفنن في اختراعه).

يقول شاكر بأسنان ترتجف برداً: ها قد وصلنا أخيراً. .

في صوته نبرة لهفة وانتظار لفرحة عيده.

تحاول ليلى أن تقول له شيئاً ولا تجد صوتها **(يغمرني تأنيب الضمير فالطفل يتسول مني حواراً سعيداً كما في أمسيات أعياد ميلاد الأطفال في التلفزيون. لكن الأمور تجري في الحياة على نحو آخر.**

أكاد أنهار تحت وقع ظلمة الليل وظلمة قلبي، وأشعر أن للظلام وزناً في البرد، ثقيلاً كحجر القبر، وأن للظلام رائحة حزينة، وله صوتاً أيضاً يشبه صوت تنفسي الآن المتعب المتجلد برداً.

في لحظات كهذه كنت أفكر بالانتحار.

لسبب أجهله كففت عن التخطيط لانتحاري منذ عرفت بوبوص).

تحمل ليلى طفلها على السلم الشاهق متآكل الأخشاب، وتحاذر الإنزلاق به وتكاد تبكي تعباً بعدما قهرتها وأذلتها عاهته.

تفتح الجارة العجوز بابها المقابل لبابهم وتقول لليلى إن موظفاً من «مخازن برانتان» جاء عصراً في غيابها ليوصل عشرات من علب الهدايا والدمى لشاكر، ولما لم يجد أحداً ترك الألعاب عندها بعدما وقعّت له على وصل الاستلام الخاص بذلك.

تشكرها ليلى وتهبط السلم ثانية لحمل الكرسي المتحرك الثقيل إلى البيت وحين ترفع رأسها إلى السماء، تبدو لها مثل باب اسود كبير صلد مغلق بإحكام. **(من اين كوم الهدايا من المخزن الفاخر «برانتان» واصدقاء شاكر كلهم فقراء مثلنا ولم أكن أتوقع كهدايا أكثر من بعض الأقلام الملونة وما شابهها؟)**

يتلهى شاكر بمتعة تحسس الأوراق الملونة التي تغلف اللعب وشرائطها المذهبة. تقرأ ليلى اسم بوبوص على بطاقة التهنئة. عشرات الهدايا الثمينة: مَنْ سواه يمكن أن يرسلها لشاكر؟

تترك ليلى ابنها في الغرفة بانتظار وصول بقية رفاقه ليطلعهم عليها ومعه داني الذي أوصله أهله مبكراً للتو.

تترك أيضاً باب شقتها مفتوحاً وتدخل إلى بيت العجوز المقيمة مقابلهم بعدما عرضت عليها إعداد الطعام في مطبخها الواسع الملاصق للمدخل إكراماً لعيد ميلاد الطفل المعاق، وهي أدرى الناس بحال بيتهم الضيق فهو ملك لها، وجزء من بيتها اقتطعته وأجّرته لتربح مالاً قليلاً وأنساً كثيراً.

تعمل ليلى على إعداد الشطائر وبعض الحلوى بسرعة. **(آه لو كان بوسعي أن أوضب له مائدة كالتي كانت أمي تحضرها بمعونة عمّاتي لعيد ميلادي قبل أن تفقرنا الحرب وتذلنا)**. تهرول من مطبخ الجارة الملاصق للمدخل كلما سمعت جلبة وصول طفل مدعو وتستلمه من أهله.

تبدو على وجه شاكر أمارات الفرح كلما وصل طفل واستلم هديته منه، وبدأ بتمزيق الأوراق الملونة عنها.

تعود ليلى للعمل على إعداد الشطائر.

يرن جرس الهاتف. تهرول وتجيب. نعيم يقول لها إنه سيتأخر قليلاً في الوصول مع «كعكة العيد» لزحمة العمل ويسألها هل وصل بوبوص؟

تلاحظ فجأة أنها السادسة والنصف، وتقول لنعيم إن بوبوص لمّا يحضر بعد، ولكنه أرسل عشرات الهدايا الثمينة التي استلمتها الجارة خلال غيبتهم الطويلة في المستشفى. نعيم يقول قلقاً: آمل ألا يخذلنا. ليس لدينا في غرفتنا الخانقة ما نسلي به الأولاد إذا لم يحضر بوبوص. **(في السيرك كان الأطفال يقهقهون حتى الثمالة لبوبوص، أما الكبار فلم يضحك الكثيرون منهم لوجهه المرسوم كأي مهرج بأنف محمرّ مثل الكرز. كان يبدو مؤثّراً للكبار ومفرحاً للصغار. لم أر من قبل سيركاً، كابني الذي أفلح بوبوص في انتزاع ابتسامة منه لا أكثر. وشيئاً فشيئاً تسلل إلى روحي وأنا اراه بعين القلب كالأطفال لا بعين المنطق الحسيرة. . . ووجدتني بعد دقائق اقهقه مثلهم وقد عدت طفلة. وعيت أنني ما زالت نضرة وحية لأن بوبوص ما زال قادراً على اضحاكي كبقية الأولاد.**

نعيم اكتفى بابتسامة وقال شبه معتذر: إنه مدهش. لكنه لم يقهقه كأنه نسي الضحك كابنه).

تسأل العجوز ليلى: أين المهرج الذي قُلتِ إنه سيحضر لإضحاك الأولاد؟

تجيب: لا أدري لماذا تأخر هكذا. المهم أن أنجز إعداد الطعام.

تقول العجوز: لولا الروماتيزم في أصابعي لساعدتك. **(لم يعد ثمة من يساعدني. حتى زوجي يبدو هذه الأيام نائياً وأكاد لا أصدق أنه الرجل ذاته الذي كنت أذوب عشقاً فيه. تبدو تلك الأيام نائية كأنها لم تكن. كأن المدينة كلها هناك تحالفت ضد حبنا ثم رمت بنا في حفرة الليل والثلج. . .**

ثمة أيام أشعر فيها أن العالم كله تحالف ضدي في حرب لم أشارك في صنعها. وثمة أيام أتذكر فيها ما سبق وكتبته وقلته، و«انحيازاتي» وتصفيقي لهذا الطرف وصمتي عن ممارسات غير مشرفة لذاك وشماتتي بموت فريق وحقدي على الآخر. . فهل استطيع حقاً تبرئة نفسي من هذه الحرب؟

ألم نتلوث كلنا فيها؟

أهذا البؤس عقابي وحصاد خطاياي؟
هل من خلاص لي بغير الاعتراف وتلاوة فعل الندامة؟

ألم تكن الشظية التي أصابت ابني آتية من قذيفة كنت أتعاطف ذات يوم مع مصدرها؟ آه لا أدري. . . ويبدو لي التفكير هكذا ترفاً في بعض الأحيان. . . أنا التي أغوص في ثلج الفقر والشعور بالذنب.

من المرعب أن يشعر المرء بالذنب مثلي إذا حلم بالسعادة لنفسه، وهذه الشطائر، ألن تنتهي أبداً. . طبقة من الزبدة، فأخرى من اللحم، فأخرى من الخس، فالمايونيز، فالبكاء الصامت والبكاء السري والبكاء. . .)

ضحكٌ.

تسمع ليلى ضحكاً قادماً من بيتها عبر الباب المفتوح. قهقهات لعشرات الأطفال تميز من بينها ضحكة شاكر التي لم تسمعها مرة واحدة من زمان، منذ أصابته الشظية الأخيرة في الحرب وحولته إلى معاق، لكنها تعلم علم اليقين أنها

ضحكته وأن بوبوص وحده نجح أخيراً في الإفراج عنها.

تسمع أيضاً صوت بوبوص الذي يبدو إنه وصل منذ قليل وبدأ يبث الفرح على موجة الأطفال.

تسمع همهماته وزمجراته وقهقهات شاكر (طالما كرر الطبيب لي: **ألا يضحك هذا الطفل أبداً؟ لا عائق طبياً يحول بينه والشفاء ولا سبب عضوياً لعاهته بعد الآن. إنه بحاجة إلى إيقاظ إرادة الحياة والفرح).**

العجوز تقول: يبدو أن المهرج وصل.

تتابع ليلى عملها وقد انزاحت صخرة الجليد عن صدرها. **(يبقى أن يصل نعيم بكعكة العيد ويكون عيد الميلاد الأول في الغربة بعد الحرب ناجحاً)**

تترك الشطائر وتقرر أن تلقي نظرة على ما يدور. **(أريد أن أرى شاكر ضاحكاً.**

إنه مشهد بوسعه أن ينسيني هذا البؤس كله الذي أتخبط فيه كمن مشى إلى كابوس ولم يعد يعرف كيف يغادره).

تدعو ليلى العجوز الفرنسية لمرافقتها للفرجة على المهرج فتقول الأخرى إنها ستصلح من زينتها وتلحق بها!

تتجه ليلى إلى شقتها عبر الممشى الصغير في السلم وقلبها يرتجف **(هل أحبُ بوبوص؟ نعم. أحبه. لولاه لما استطعت التماسك طوال العامين الماضيين. لم أعرف رجلاً أكثر رقة وعذوبة وعقلاً وحناناً منه. نعم أحبه. إنه ليس حب الشهوة. لم تخطر ببالي مرة فكرة عناقه أو امتلاكه كذكر، لكنني أعشق حضوره في حياتنا ولولاه لتفتتنا كلنا)**

يتعالى ضحك الأطفال وهي تدخل إلى الغرفة وتقع نظراتها على ابنها شاكر وهو يقهقه بفرح استثنائي كبقية الأطفال، ويخيل إليها أنها ترى بوبوص يقف بقدم واحدة فوق سطل من الماء لا تدري من أين جاء به، يتحرك بسرعة مقهقهاً ولا ترى بوضوح أهو واقف على حافته أم في وسطه دون أن تسقط فيه قدمه، في إحدى حيله الغامضة الخاصة، ثم ينتقل منه وهو يرتفع رويداً رويداً في الفضاء قافزاً مهرجاً متظاهراً بعد ذلك بالخوف من السقوط والأطفال

يضحكون ويهزجون ويصفقون ووجه شاكر يتورد بالعافية كما لم يكن أبداً منذ أصابته وبوبوص يتنقل كالطيف ويتوهج كشعلة حيوية لا جسد لها تسكب الفرح. . .

لم ترَ بوبوص من قبل حياً مشتعلاً هكذا، خفيف الحركة كما لو كان ظلاً على الجدار أو شبحاً. . .

تقرِّر إحضار الشطائر التي أعدتها واستبقاء بوبوص على العشاء.

تعود إلى المطبخ وفرح الأطفال ما يزال يزقزق في ليلة سعادتها الأولى في الغربة، وضحكة ابنها تملأ أذنيها وتقول للعجوز التي تزينت وصارت جاهزة لمشاهدة المهرج: ليت والد شاكر يحضر الآن ويراه مقهقهاً هكذا. . سيفرح قلبه. .

ولكن ضحكات الأطفال تخفت دون أن تتوقف كمن عبث بزر الصوت في مذياع، فبقي البثّ وغاب الصوت قليلاً.

تحمل ليلى صينية الشطائر وتمشي والعجوز لمشاهدة «نمرة» بوبوص. لا تراه لكنها ترى الأطفال يلعبون سعداء ويبدو وجه شاكر للمرة الأولى طبيعياً لا يخلو من البراءة والأمل ويشبه وجه انطوان وداني وخوليو وحسونة وعلي وبقية رفاقه في المدرسة.

العجوز تسأل: أين المهرج؟

بدورها تسأل ليلى إبنها: أين عمو بوبوص؟

يجيب بلامبالاة وهو يتابع اللعب سعيداً: لا أدري. لعله دخل إلى غرفتي أو إلى «الحمام». .

يصرخ طفل ضاحكاً مفسِّراً: كان يمشي علي الجدار.

يتابع طفل آخر: كان يمشي على السقف. كان يمشي على الماء.

طفل ثالث ورابع وبأصوات متمازجة: كان يطارد قطة. . كان يطارد نجمة. . كان يطارد وردة.

تتعدد حكايا الأطفال والفرح يعمّ المكان. **(إنني أحلم. من أين لنا بسعادة كهذه؟).**

تهرع إلى غرفة ابنها فلا تجد فيها أحداً. غرفة الحمام خالية أيضاً.

تقول لجارتها العجوز: لعله تعب فذهب إلى بيته أو لعله عاد إلى السيرك أو. .

ولكنها تتعجب لأنها لم تلتق به في الممشى الضيق بين الشقتين ولم تره وهو يخرج.

يصل في تلك اللحظة نعيم حاملاً قالباً كبيراً من الحلوى بالشوكولاه ويلتف الأولاد سعداء حول المائدة الصغيرة. ينفخ شاكر على الشموع بعدما اشعلتها ليلى **(لن يكون بوسعي إشعال شمعة بعد اليوم دون أن أتذكر شموع بوبوص في الملجأ)**.

يلحظ نعيم مناخ الفرح وسيالات السعادة وكهاربها التي تعمّ المكان وضحكات طفله التي لم يعرفها منذ أعوام ويسأل زوجته: جاء بوبوص، أليس كذلك؟

تقول: ذهب للتو، بعدما أضحك الأطفال. حتى شاكر قهقه طويلاً. أنظر إلى وجهه كم يضيء بالفرح مقهقهاً مع رفاقه. . هذا لم يحدث لنا من قبل هنا.

الأطفال يهزجون. يلتهمون الحلوى والشطائر ثم يعودون إلى اللعب بالدمى الثمينة: هدية بوبوص. يفتح شاكر الهدية الأخيرة من بوبوص ويقرأ نعيم على الورقة كلمة لطيفة يقول فيها: «قررت شراء لعب لشاكر بثمن الكرسي المتحرك على البطارية الذي كنت اقتصدته لإجله إذ إن قلبي يحدثني أن لا حاجة لكما به»! . . .

يسأل نعيم زوجته: لماذا ذهب بوبوص؟

ـ لا أدري. لم تتح لي فرصة الكلام معه. تفرجت عليه قليلاً وكان مدهشاً وخارقاً ثم تابعت عملي في المطبخ، وحين عدت والعجوز لأدعوه إلى العشاء وأكلمه وأشكره، كان قد مضى.

بعد أن يذهب الجميع، يقرر نعيم الاتصال هاتفياً ببوبوص لشكره على هداياه وعلى حضوره الذي نجح في انتزاع القهقهة من شاكر للمرة الأولى منذ

إصابته وعاهته . . .

يجيبه على الهاتف زميل بوبوص في الغرفة وهو يبكي ويقول بحزن بالغ : بوبوص «أعطاك عمره». توفي في المستشفى منذ ساعة. لقد عدت للتو من هناك .

يصرخ نعيم غير مصدق: يا إلهي ماذا تقول؟ هذا غير ممكن. . .

ينتحب الرجل: خرج بوبوص صباحاً على دراجته النارية كعادته وقال لي إنه ذاهب إلى «مخازن برانتان» لشراء الألعاب لشاكر وبعدها بساعتين اتصلوا بي من المستشفى يقولون إنه يحتضر!

يصرخ نعيم: ماذا؟

يتابع الآخر: علمت من المسعفين في قسم الطوارىء أن دراجته انزلقت مقابل مخزن «برانتان» وطار عنها مصطدماً بجداره. حراس المخزن اتصلوا بالمسعفين فنقلوه إلى المستشفى بعدما أصيب في رأسه وعموده الفقري إصابات بالغة كما ذكر لي الطبيب.

ـ متى قلت إن الحادث وقع؟

ـ حوالي الحادية عشرة ظهراً كما ذكروا لي في المستشفى. لقد دخل المسكين في غيبوبة عميقة منذ لحظة الاصطدام ولم يفق من الغيبوبة وتوفي أمام عينيّ منذ ساعة!

ينادي نعيم زوجته وهو ما زال ممسكاً بسماعة الهاتف ويسألها بصوت جهد أن يكون هامساً كي لا يقلق شاكر: هل قُلت إن بوبوص جاء الليلة؟

ـ قلت لك إنه جاء.

ـ هل أنت متأكدة من ذلك؟

تدهش وتجيب: شاهدته بعينيّ وكذلك الأطفال. لِمَ هذا السؤال؟

لا يجيبها ويتابع الحوار الهاتفي مع رفيق غرفة بوبوص: من غير المعقول يا أخي أن يكون الاصطدام قد وقع قبل الظهر. بوبوص كان عندنا قبل ساعة. .

ـ غير ممكن. كنت إلى جانب فراشه قبل ساعة. بل إنني قضيت بعد

الظهر عنده في المستشفى ولم اغادره إلا بعدما غادرنا رحمه الله. منظره كان يمزق نياط روحي... كان المسكين في غيبوبة، مقيداً إلى عشرات الأنابيب التي تخرج من شرايينه وأنفه وعنقه... الله لا يريك منظراً كهذا لعزيز..

ـ ولكن... من الذي جاء عندنا؟

ـ لا أدري... ولا تفسير منطقياً لديّ الآن... أعذرني..

ـ هل تظنه أرسل أحد زملائه؟

ـ لا أدري.

ـ أقسم لك أنه كان هنا.. زوجتي لا تكذب...

ـ وأنا لا أكذب يا أخي... لقد لازمته منذ الظهر وهو يحتضر حتى فارق الحياة قبل ساعة. بوسعك الذهاب إلى المستشفى وسؤال الممرضة والأطباء ومحضر البوليس. هل يعقل أن أكذب عليك في كارثة كهذه؟..

ـ المعذرة يا أخي. الصدمة أطاحت بصوابي.

ـ وأنا أيضاً. فاعذرني.

يعيد نعيم سماعة الهاتف وزوجته تنصت ولا تفهم شيئاً، وتنقضّ عليه مستفسرة.

يقول بصوت منخفض: بوبوص مات منذ الصباح بعدما اشترى الهدايا وأوصاهم بإرسالها...

ـ ولكنه كان هنا...

ـ لم يكن هنا. لا يُعقل أن يكون ممدداً يحتضر ويلفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، ويهرّج في بيتنا للأطفال في وقت واحد.

تصمت طويلاً ثم تهمس: ألم يقل لنا مرة إنه سيحضر حتى ولو كان يحتضر؟ ألا تذكر؟

ـ غير معقول... لعله كان قبل الحادث قد اتفق مع بديل له للحضور.

ـ غير معقول أيضاً. أعرف بوبوص جيداً. أعرف صوته و«حركاته»

وقهقهاته. . . غير معقول أن لا يكون هو.

ـ ما المعقول؟

ـ لا أعرف. لقد شاهدته ولم أشاهد شبحاً. .

ـ هل أنتِ متأكدة؟

ـ لا أعرف! . .

ـ هل تؤمنين حقاً بوجود الأرواح؟

ـ لا أعرف. . لا أعرف. . .

يغرقان في صمت مذهول، ويلمحان شاكر قرب باب الغرفة وهو يقف على قدميه متمسكاً بالباب ويمشي عدة خطوات صوبهما مستنداً على الجدار ويسألهما مداعباً: ما بكما؟ هل شاهدتما شبحاً؟! . .

١٩٩٤/٨/٢٥
الساعة ١٠,٤١ ليلاً

بيضة مكيفة الهواء

لا يموت الناس بالنسبة إلينا وقت موتهم، بل يستحّمون في هالة من الحياة لا صلة لها بالخلود بل باستمراريتهم فينا كما أيام كانوا أحياء. . . وكما لو أنهم مسافرون.

مارسيل بروست

ثمة حكاية يابانية عن أمير حَلِمَ بأنه فراشة وحين استيقظ لم يكن واثقاً: أهو أمير حلم بأنه فراشة أم فراشة حلمت بأنها أمير.

آلان كورين

هذه الحياة حلمٌ والحلم ليس أكثر من حلم!

بدرو دولاباركا

الحلم مسرح حيث الحالم هو الممثل والمنتج والكاتب والجمهور والناقد!. . .

د. جونغ

بيضة مكيفة الهواء

لو لم يأت صوتها من تلك العلبة البلاستيكية لأقسمت أنه آت من أعماق تلك المياه المظلمة التي أتحاشى السباحة فيها واهرول طوال النهار في أرجاء مكتبي في ناطحة السحاب هرباً من شياطينها وظلالها وأسماك قرشها وقناديلها المضيئة وهياكلها العظمية وصناديق كنوزها وأناشيد عرائس بحرها وقراصنتها. . .

آه تلك المياة المظلمة المضيئة في قاعي التي أتقن الهرب منها. . ولكنني أزورها مرغمة ليلاً حين يقتادني النوم إليها مقيّدة في قوارب الحلم. .

لو لم يأتِ صوتُها من سماعة الهاتف لأقسمت أنه يناديني من قاع تلك المياه لأقفز مستسلمة وأتبع نبراته حتى تلك الدهاليز المرجانيـة التي أحكمتُ إقفال أبوابها ذات يوم بسبعة أقفال وعملت على ذلك سبعة أعوام بلياليها وأنا انتحب: أغلق يا سمسم!

هل يمكن لصوت خافت مرتجف آت من سماعة الماضي النائي أن ينفجر في وجهي بموجاته الصوتية ممزقاً روحي وشظاياي تتطاير بين موجة وأخرى من موجاته وماء بحر غامض الأنواء يجرّني من جديد إلى الأعماق المعتمة وأنا عبثاً أقاوم؟

قالت لي بلهجة شامية عتيقـة: أنا ميمنـة أم عرفـان الساروجي، هـل تذكرينني؟

صرت أرتجف مثل قطة شتائية مبتلة في زقاق معتم، وقد ميَّزتُ صوت السيدة ميمنة وأشرت بيدي إلى سكرتـيري كي يغادر الغـرفة مـع الموظفتـين الجالستين إذ خفت أن تكتشف دموعي الجافـة دربها إلى خـدي بعد سنـوات طويلة، وتتساقط على وجهي ومعها أسطورة المرأة فولاذية الأعصاب.

صرت أكرر بذهول كخرقاء: أم عرفان الساروجي؟ «ميمنة خانم»(*)؟

(*) خانم: لقب تركي يطلق في دمشق على النساء احتراماً.

تسأل ثانية: لم تسمعي صوتي منذ ربع قرن. فهل تذكرتني؟

كيف كان بوسعي أن أنسى صوت والدة حبي الأول الكبير؟ كان ابنها الوحيد، وكان ربما حبي الوحيد. فيا للصلة التي لا تنفصم عراها بين عاشقتين لرجل واحد هما ميمنة خانم وأنا.. (جّرتني من يدي أمام المرآة المطعمة بالصدف في صالون قصر آل الساروجي، وهي تخلع قرطيها الماسيين البديعين وتطلب مني أن أجربهما.

متوردة بالخجل ارتديتهما بيدين مرتجفتين.

أشعلا وجنتيّ بنار كانت متقدة في قلبي، فقد كنت عاشقة وسعيدة وفي السادسة عشرة من عمري.

تأملتهما. ماستان كبيرتان كل واحدة ككرة الساحرة الشفّافة يحيط بهما إطار ذهبي بنقوش شرقية كأنها كتابة سرية لتعاويذ غامضة. جربتهما فهبّت منهما على وجهي رائحة الغوطة وليالي بردى وسمعت همهمات الناس على مر آلاف السنين من أزقة مدينتنا الدهرية وخفت كما لو كانا قرطين مسحورين. خلعتهما وأعدتهما إليها فضمّتني إلى صدرها الدافىء وقامتها الممتلئة ورائحة عطر «أربيج» ممتزجة بـ «فتة المكدوس»(*) تفوح منها وهي تقول: هاتان الماستان ستكونان هديتي لك ليلة العرس.

لقد توارثناهما من زمان، ربما من أيام بناء سور الشام. أعرف أنك ستحافظين عليهما وستهدينهما بدورك ذات يوم إلى من تستحق.

أعادتهما إلى أذنيها فتدلّيا حول وجهها كأسطورة. صرت أرتجف فرحاً وأقبّلها بنزق مراهقتي وأقسم لها أنني سأموت قبل أن أخون الأمانة).

يطول صمتي، ويدي الممسكة بالهاتف ترتجف..

تقول وهي تتوهم صمتي لامبالاةً: معذرة يبدو أنك نسيتني.

أجد صوتي: لا. لم أنسَكِ. وأنت بالتأكيد تعرفين ذلك وإلا لما اتصلتِ بي.

(*) فتة المكدوس: طبق شامي خاص بالولائم.

ـ هل بوسعنا أن نلتقي؟

ـ بالتأكيد، أينما شئت ومتى شئت.

ـ تعاليْ إلى فندقي بعد ساعتين. أنا في فندق «الوالدورف استوريا».

ـ سأكون هناك. إلى اللقاء يا ميمنة خانم و «يا ميْت أهلين وسهلين»(*).

أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها وأنا أكاد لا أصدق. تموت يدي فوقها ثقيلة كسمكة نفقت للتو ولم تعد يدي ولا تخصني ولا أعرف كيف أعود بها إلى مفاتيح الكومبيوتر أمامي.

جرس الهاتف يرن ثانية لأمر ملحّ. أقرر تأجيله على غير عادتي. أطلب من سكرتيري إعلام الموظفين بتأجيل الاجتماع الذي كنا بدأناه.

أتأمل نيويورك من نافذة مكتبي في الدور الخامس والثمانين من إحدى ناطحات السحاب.

يُداهمني من جديد ذلك الإحساس بالاختناق وأشعر أنني أعيش داخل بيضة جهنمية تتعرق من الداخل زحاماً وهياجاً والأفق ضجيج منغلق كنصف دائرة.

في نيويورك أفتقد التنفس الذي كان يجيء كنوم الطفل في صحراء «الميماس» أو المرتقيات الترابية على الخدين العملاقين لقاسيون ونحن نتسلقها معاً، عرفان وأنا.. التنفس الجميل حتى قاع شراييني وبمساماتي كلها المشرّعة لامتصاص الحياة والفرح. كان حب الأخاديد الدهرية في وجه قاسيون وتجاعيد لها عمر الزمان يوحّدنا، ويمنح حبنا بُعداً يتجاوز الأزمنة..

منذ أيامي الأولى في نيويورك حين بدأت العمل موظفة في هذا البنك إلى أن ارتقيت وصرت نائبة للمدير، وأنا أشعر أنني أعيش داخل بيضة مكيفة الهواء لكنها خانقة ولا أعرف كيف أثقب قشرتها الجهنمية أو أفتح نافذة فيها لأغادرها إلى الماوراء وأحيا...

أعيش حياة مزدوجة، إذ تبدو لي حياة النهار العملية في البيضة مكيّفة

(*) يا ميْت أهلين وسهلين: ترحاب شامي عتيق. ميْت أي مائة باللهجة المحلية هناك.

الهواء حلماً كابوسياً مذهّباً لا أستيقظ منه إلا حين أنام وأحلم، فأحيا اختراقاتي للبيضة الشاسعة الخانقة وأمضي إلى عوالم أخرى، لم أفلح يوماً في نسيانها!

أظل أتأمل نيويورك من النافذة.. مئات آلاف النوافذ تحدّق بي بعيون ساخرة، وثمة ساحرة تركب مكنستها بين ناطحات السحاب وطائرات الهليكوبتر متأهبة لاختراق جدار الصمت إلى خارج البيضة الجهنمية.

يدخل معاوني السكرتير ويسألني بوجهه العشريني النضر: هل ستمرين الليلة بي؟

أجيبه كأي رجل أعمال كثير الهموم والأحمال: ليس الليلة. إنني متعبة. إذا بدلت رأيي سأهتف لك.

يقول بصوت منخفض بلكنته العربية التي لم تفارقه بالرغم من هجرة أسرته إلى أميركا وهو صبي صغير: تعاملينني كما يعامل الرجل الشرقي عشيقته. قولي نعم سأحضر أو لا لن أحضر ودعيني اتصرف بما تبقى من وقتي. تعرفين أنني أحبك.

يتدلى لصق النافذة من الخارج ماسح الزجاج في شرفته المتحركة المعلقة بالحبال. يهرع سكرتيري صوبه ويرخي الستارة بغلظة كمن يصفق باباً في وجه الآخر. أمتلىء بشحنة عدوانية نحوه... (**يحبني ذلك الشاب الذي يصغرني بعقدين؟ يبدو لي الأمر هزلياً لو لم أتذكر أن صديقتي «ندوة» في دمشق كانت تعشق الرجل الذي تعمل سكرتيرة له وكان يكبرها بعقدين، وانتحرت بسببه. فلم لا يحبني شاب يصغرني سناً؟ ألمجرد أنني امرأة وهو الرجل؟**)

أجيبه بهدوء: سنبحث الأمر معاً بلا جلبة خارج المكتب. أنت تعرف أنني لا أخلط بين عملي وجسدي، ولا أريد أن تتهمني يوماً باستغلال مركزي في صلتنا. والآن علي أن أذهب لأمر طارىء. أرجو منك أن تلغي بقية ارتباطاتي.

- أحببتك لأنني توهمتك شهرزاد وإذا بك شهريار!

- اعذرني. لن أخوض الآن في ذلك كلِّه.

- لستِ امرأة شرقية. أنتِ رجل شرقي!

ـ اعذرني. لن أخوض الآن في ذلك كله.

ـ أنا الرجل الصحراوي، لكنك تتعاملين معي كما كانوا يُعاملون الحريم!.. لماذا اخترتِ عربياً لتعذيبه؟ لماذا لا تعقدين صلة مع ريتشارد أو جوني؟

ـ اعذرني. لن أخوض الآن في ذلك كله.

ـ وأنا لم أعد راغباً في ذلك الحب كله. سأتزوج من ابنة عمي التي لم أرها، وأرضخ لمشيئة أهلي. سأستدعيها من آخر الدنيا. ذلك أفضل بالتأكيد..

أسمع صوتي بارداً وقاطعاً كحد شفرة في صباح شتائي:

اعذرني. لن أخوض الآن في ذلك كله!

أستقل المصعد إلى المرآب. أقطع بسيارتي «الوول ستريت» صعوداً صوب «بارك افنيو» حيث فندقها.

أقود سيارتي «الكاديلاك» الضخمة دونما وعي كامرأة آلية، بينما أهرول طفلة حافية القدمين ممزقة الثياب في دروب دمشق الماضي وأنا انتحب بحثاً عن الذين أحببتهم في الماضي وراحوا... (مثل الحلم راحوا)(*).

ولكن الماضي لا يروح حقاً. لقد بقي في أعماقي وشماً من حجر لا تبدله الأيام. وما من طارد شياطين بوسعه إخراج وجوه أحباب الأمس التي تسكنني كأشباح غالية.

أصل أمام فندق «الوالدورف استوريا». ما زال في الوقت متسع. أهيم على وجهي طويلاً طويلاً في زحام نيويورك. أقود سيارتي في الشوارع وفوق الجسور على غير هدى وأنا استرجع الماضي كله بدءاً بوجوه رفيقاتي في المدرسة. أكاد اصطدم بالعديد من السيارات.

أعود إلى مدخل الفندق وأترك السيارة لعامل مرآبه. أندم لأنني لم أمر بالبيت لإصلاح زينتي كي لا ترى ميمنة خانم وجهي بعد هذه السنوات كلها بلا

(*) (مثل الحلم راحوا): أغنية للسيدة فيروز.

مساحيق كما في المآتم الشامية وعهدها بي (أتغندر) كثيراً أيام خطبتي لابنها وأقوم بغارات على (علبة الغندرة)(*) التي تخصّها وعلى أصبع الشفاه بلونه (الموف) الذي شاع يومئذ.

أصعد الدرجات المرمرية إلى المدخل الفاخر بأرضه المنقوشة بلوحة فسيفسائية مستديرة تذكرني دائماً بفسيفساء الجامع الأموي (يا لحنيني لذلك الزمان). أجلس بانتظارها في صالة (البيكوك أليه).

لقد جئت قبل موعدي بأكثر من نصف ساعة، كي أفرغ رأسي من أصوات عشرات الكومبيوترات التي تقطنه وأتهيأ لاحتفالي الداخلي بلقائها مثل مجرم يرتب مكان جريمته بأدق تفاصيلها..

أحلم بأن تقول شيئاً، تكشف سراً، تسلمني به سكيناً أجهز بها على الماضي وأمثّل بجثته وأعلقها على أسوار قلبي سبعة أيام بلياليها واستريح...

يأتي النادل، النجدة. «جلينفيديش دوبل» بلا ماء مع كثير من الثلج. أخرج سيجاري وأشعله. لا أبالي بنظرة ركنية لرجل غير راض عن اغتصابي لحقه في السيجار. لعلها النظرة ذاتها التي رمق بها جده أول امرأة شاهدها تدخن سيجارة من زمان. أما ابنه أو حفيده فلن يلفت المشهد نظره.

لن أفهم يوماً هذه القوانين الهزلية أو أخضع لها: ما هو القانون الذي يمنعني من تدخين السيجار ما دمت لم أسرق ثمنه ولي رئتان كأي رجل؟ قلة تهذيب؟ ولماذا يظل التهذيب حكراً على النساء؟

يا لي من متناقضة، تعشق دمشق ولا تجرؤ على العودة إليها. امرأة فولاذية في النهار ترجع مراهقة معذبة ليلاً، تحلم كل ليلة بعرفان وبدمشق، تركض في دروب «الشام»(**) حافية القدمين تقرع نوافذ أحبابها النائمين ويظنون قرعاتها صوت الريح. وتهيم روحها قرب قبر عرفان في مقبرة الدحداح بين السبع بحرات والقصّاع.

(*) (علبة الغندرة): علبة الماكياج باللهجة الشامية.

(**) الشام: دمشق كما يدعوها أهلها.

وكيف أعود؟ هـل بوسعي أن أتعايش ودمشق وأنا أجلس في سهراتها شاهرة السيجار أو الغليون؟

كيـف أعود وأنا التي ألفتُ أن أكون شخصاً مستقلاً كأي ذكر وهو أمر لست واثقة من رضى مدينتي الأم عنه وعن صلات قد أقيمها خارج إطار «الحب الكبير» تماماً كما يفعل ذلك بعض الخائبين مكسوري القلوب ثقيلي الأحمال وأنا منهم!؟ ثم إنني لم اتقن يوماً فن تجميل حقيقتي أو إخفاء اسوأ ما فيها! (قال لي أبي: ستتزوجين من ابن صديقي بدر الدين الساروجي ويدعى عرفان. شاب متعلم وذكي عاد لتوه من جامعة كامبريدج بعدما أنهى اختصاصه. والده ثري. سمعته طيبة. وعرفان سيرث معامل والده.. إنه الزواج المثالي.

قلت له: لا أريد زواجاً مثالياً بل زواج حب. ولن أتزوج الآن من أحد فلا تفسد فرحتي الليلة بنجاحي في البكالوريا. لن أتزوج إلا من رجل أحبه وقد يكون فقيراً ومن الأفضل أن يكون ثرياً!...

- ولكنني اتفقت ووالده!

- هذا أمر يخصكما. أما أنا فلن أتزوج أحداً. أريد أن أتـابع دراستي الجامعية.

- سيزورنا وأسرته مبدئياً يوم الغد. لم لا ترينه قبل أن ترفضيه؟

- لأنني لا أرفضه بل أرفض الأسلوب. ليس بوسعك يا أبي أن تعلمني ريثما يحضر العريس فتقطع دراستي. لو كان العلم «شهادة» أتباهي بها لهـان الأمر. لكنه يبدلني من الداخل. ولم يعد بوسعك أن تزوجني كما زوّج والدك عمّتي التي لا تقرأ ولا تكتب.

كان غضب والدي كبيراً لكنه كظم غيظه وقال: حسناً سأتصل بأسرته ونؤجّل الموضوع...

دخل إلى غرفة مكتبه وسمعته يتحدث على الهاتف. حاولت أن استرق السمع. لم أفلح إلا بسماع قهقهة ضبطتني بعدها الخادمة، فتظاهرت بأنني أمر مصادفة! عاد والدي شبه ضاحك وقال: لا تحلفي محلوفُ عليـكِ(*). ابنه

(*) لا تحلف محلوف عليك: مثل شامي يعني لا تتدلل فأنت اصلاً مرفوض. وأهل الشام يحبون كثيراً الحوار بالأمثال.

أيضاً رفض الحضور للتعارف ولن يتزوج إلا من صبية يعرفها ويحبها ولا يريد الزواج على الطريقة القديمة كما يسميها. يا لهذا الجيل المفسود!).

يعود النادل. «جلينفيديش» آخر بسرعة مع الكثير من الثلج. أطفىء سيجاري جيداً. لن أدخنه في حضور السيدة ميمنة لا من باب الرياء.. لكن الطفلة الشامية التي تقطنني تخشى جرح شعورها. المحبة وحدها تروضها، تلك الطفلة التي بذلتُ كل ما بوسعي من أجل قتلها لم تمت وها هي تستقوي حتى بالصحو عليّ بعدما غلبتني مراراً في عالم الحلم والنوم... (أيتها الطفلة في أعماقي. إنني أعرض عليك الصلح والتعايش. النهار لي والليل لك. العمل مملكتي والحلم مملكتك. أعترف بك فاعترفي بي. أيتها الطفلة التي كانت جالسة ـ منذ ألف عام وهي في السادسة عشرة من العمر ـ على طرف الطاولة في ستيريو «الفورهندرد» في دمشق إلى حيث اصطحبَتْها جارتها غيدا وخطيبها، ونهضا يرقصان وتركاها وحدها على الطاولة تحدّق حولها بفضول في حياة الليل التي لم تعرفها من قبل، أرجوك أن تطلقي سراحي من الذكريات ورائحة الياسمين الشامي التي تفوح ليلاً كتنهدات عاشقة..

على مقعدي في «الفورهندرد» كنت أراقب غيدا تراقص خطيبها بتحفظ، وصديقهما الذي اصطحب شقيقته يراقص شقيقة صديق آخر.

السهر يومئذ بحضور الشقيقات كان يعني حسن النية وارتفاع المستوى الخلقي للسهرة، فالشاب أضحى «غير مؤذٍ» ولن يفعل بشقيقات الآخرين ما لا يرغب في أن يفعلوه بشقيقته. نوعٌ من الضمانة لتعارفٍ هدفه (شريف) يتراوح بين الزواج والصداقة الأخوية.

جاء شاب عجوز يكبرني سناً بأكثر من عشرة أعوام وطلب أن يراقصني واعتذرت. كان (يعرج) في مشيته لعاهة في قدمه ـ وهو ما لم يضايقني ـ وثبّت في وجهي عينين ثاقبتين لوجه جذاب وغير وسيم وقال بجرأة: هل ترفضين مراقصتي لأنني أعرج؟ في الرقص الكل يعرجون ويصيرون مثلي!!

وانفجرت أضحك. كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟ وهل اخترع الرقص رجلٌ أعرج ليعرج الجميع مثله؟ مصارحته فتحت أبواب قلبي على مصراعيها،

وكنت صبية لا تعرف فنون صناعة الأقنعة، فقلت له: اعتذرت منك لأنه لم يسبق أن رقصت مع شاب من قبل غير شقيقي ورفيقات المدرسة في أعياد ميلادهن! . . إنني مرتبكة أكثر منك وكسيحة بالذعر!

جلس إلى جانبي. تدفق ذلك التيار السري اللامرئي بيننا فاشتعلنا. .

غمرتنا تلك الينابيع الجوفية والأنهار الغامضة التي تتدخل في مصائرنا دون أن نراها إو نقدر على السيطرة عليها. . أنهار لعلها تنبع من الحلم وتصب في الجنون مروراً بالفن والشعر والهذيان والحمى. . والحمى بين يدي ويده. . حوار طويل عن كل شيء ولا شيء والزمن قطٌ هاربٍ سريع الركض. . وتأتي بعدها لغة الصمت التي تبدو أمامها قوالب اللغة تافهةً. .

ساعتان من السهر. لم أعد أرى سواه.

حدث لي ما لا يقنع عقلي: الحب من النظرة الأولى! . . استحال الباقون في القبو دمى من البلاستيك.

الأصوات العالية ماتت وطغى عليها همس شفتيّ لشفتيه. كان يمسك بيدي فأرتجف كأنه يضمني، ونقهقه كمعتوهَيْن لنكات تافهة.

قال لي فجأة وهو يراقصني، ويحتويني بموجات تتحسس مسامي وتكتشف دربها إلى ما تحت جلدي، وأنا أطير فوق غيمة بنفسجية خضراء حمراء زرقاء: لا اؤمن بالحب من الرقصة الأولى لكنني أحبك! . . . وهو أمر أرجوك أن لا تصدقيه لأنه غير منطقي!! لكنه حقيقي.

صرنا نرقص متعانقين وقوة لامرئية تشدنا إلى بعض. . وكدنا ننسى الرقص ويبقى العناق. . صحوت من ذلك التلاحم العلني الملقب رقصاً وقلت له: لم أقترف رقصة كهذه من قبل. أعتقد أن دمشق ستجد فضيحة تتحدث عنها. . إنها فضيحتي الأولى. .

- وأنتِ حبي من الضحكة الأولى والنظرة الأولى والرقصة الأولى.

كدت أسأله عن اسمه حين قال لي: تصوري. كان والدي يريد تزويجي من حمقاء لم أسمع بها من قبل.

تابَع: هكذا، مجرد زواج «على الهوية» بواسطة الخاطبات وتوقيع الأوراق مثل

عقد شراء صفقة فواكه لمعملنا للكونسروة. . صبية كان يفترض أن أعلبها وأدمغ عليها تاريخ انتهاء الصلاحية (بولادة الأبن الثالث وصبي طبعاً!)

قلت له: لقد حدث لي الشيء ذاته! كان من المفترض أن أرضى بترك دراستي وبتزويج والدي لي إلى أحمق لا أعرفه يدعى عرفان بدر الدين الساروجي. .

قال دون أن يرف له جفن أو يبدّل نبرة صوته: وهذا الأحمق هو أنا!!. . . وأنت الصبية التي رفضتُ أن أتزوج منها!

ـ بل أنا الصبية التي رفضتْ أن تتزوج منك!

وانفجرنا نضحك طويلاً. . .

وقالت صديقتي غيدا وهي تظن لقاءنا مدبراً ونحن نغادر «الفور هندرد»: سمعت بشائعة الخطبة بينك وعرفان الساروجي ولم أصدق أنك قد تتزوجين من رجل تختاره الأسرة والخاطبات.

قلت لها: وأنا أيضاً لم أصدق!). . .

يأتي النادل وينظر إليّ بدهشة وأنا أطلب منه «جلنفيديش دوبل» وفنجان قهوة كبيراً في آن وبسرعة! (هذا عمري، لحظات بين النار والرماد. بين مسقط قلبي في دمشق ومسقط نجاحي في نيويورك. بين الأفق وبيضة مكيفة الهواء. لحظات بين القاع والقمة. بين أقصى الحب وأقاصي اللامبالاة). .

يعود النادل. أبتلع الجلينفيديش مرة واحدة وابدأ بشرب القهوة وأنا امتص قرصاً يخفي رائحة الكحول خائفة من ميمنة خانم! والطفلة الدمشقية التي تقطنني ومملكتها أحلامي بدأت بمدّ سلطتها الآن على صحوي أيضاً (ليلة إعلان خطبتي وعرفان انتهزَ فرصة سرور والدينا التاجرين بزيجة تناسب مصالح أعمالهما، واستأذن والدي لإصطحابي إلى مطعم [كاندلز] «شموع» للعشاء. قال أبي: ولكنكما تناولتما طعام العشاء! أجاب عرفان: لم نشبع بعد!

جلسنا في الطابق الثاني الأكثر عزلة وطلبنا عشاءً لم نذقه.

قال لي عرفان: لستِ بحاجة إلى التوقف عن دراستك من أجل زواجنا. بوسعك نيل شهادتك أولاً وبعد ذلك نتزوج.

ـ هل تستطيع الانتظار؟ وهل أستطيع الانتظار؟

ـ إنني أحبك حقاً لا بمعنى الامتلاك. نمو شخصيتك هو كسب لي. لستُ من نسـل شهريـار... أنا من فصيلة جـديـدة... ولن أطلب من مسرور السيّاف اعتقالك ولن أربطك كالجمل في مضارب قبيلتي. ستكونين زوجتي لا «عقيلتي» المعتقلة...

ـ لا أصدق أن ذلك الحلم الرائع يحدث لي، وأنك رجل حقيقي ولست حلماً... نعم. أريد أن أتابع دراستي وأن لا أفقدك. ولكن والدك سيرفض ووالدي أيضاً!

ـ سنرفض رفضهما ونفرض عليهما أرادتنـا فنحن أبناء زمن آخـر. لا تقلقي فسأقنعهما. تذكري أنني «الرجل» وأنا حر بزوجتي، أمامهما على الأقل.. أما فيما بيننا فأنت حرة داخل زواجنا بقدر ما أنا حر.

ـ أشعر مرات أن كوني ولدت امرأة وعربية في آن ذنبان لا يغتفران.

إنهما يعنيان تجريدي من معظم حقوقي المدنية ولا بد من ذَكـرٍ يتحمل مسؤولية أفعالي أمام المجتمع بما في ذلك رغبتي في العلم والعمل وعليه مهمة تقويمي وإلا وقع عليه اللوم قبلي

ـ اطمئني. لن أكون الزوج الذي يضطهدك بل الصديق الذي يحميك ويحمي رغبتك في العلم والعمل.

كان ذلك لا يصدق. أجمل من أن يكون حقيقة. آه، هل حدث ذلك حقاً أم أن ذاكرتي تقوم بتجميل صورة الموتى في ملصقات شوارع القلب؟

حين غادرنا «شموع»، ذهبنا إلى مقهى معلق بين الليل والماء في دمـر وشربنا القهوة وبردى شاهدنا، ثم ذهبنا إلى المهاجرين ووقفنا في الساحة في كنف قاسيون...

ضمني إليه في الظلمة منتهزاً فرصة خـلو المكان من المارة وحدّقت في دمشق وقلبي ينبض حباً لها وله. ورغم العتمة والأضواء القليلة المرشوشة هنا وهناك كان بوسعي أن أرى تضاريس المدينة المنقوشة داخل قلبي كما في ضوء النهار الساطع.

ليلتها شق ضوء القمر الشفاف «اوتوستراداً» من الضياء بين منمنمات أزقتها القديمة وبيوتها العتيقة الوديعة، وصبّ فضته السائلة على سطوحها ومآذنها وقبابها. . .

دمشق الليالي التي تحيط عنقها بعقد من الياسمين وتتمدد باسترخاء في ضوء القمر، ودمشق الصباحات التي تتربَّع على عرش امبرطورية الضوء ورائحة البن العربي والهال والفل وزهر الليمون والنارنج تفوح من عنقها وأنفاسها. . .

قلت له: أحبكما أنت ودمشق. سأنجز دراستي وأعود إليكما.

رفض والدي أن أسافر دون «كتب الكتاب»، فالعقد الزوجي الشرعي «بوليصة تأمين»، وبعدها يتحمل عرفان تبعة سيرتي العلمية غير اللائقة!

المهم أن يجد مجتمعنا ذكراً يستجوبه إذا اخطأتُ ويحمّله مسؤولية عقابي، ويعاقبه بالثرثرة إذا لم يحولني إلى بخار وغبار ولم يُعدني إلى القمقم ويختم فوهته بالحديد المصهور. وبدلاً من قذفه إلى قاع البحر، بوسعه الاحتفاظ به في سريره!!

لم يكن عقد الزواج يهمنا حقاً، فقد «تزوجنا» حتى آخر شريان في القلب وكان شهودنا الليل والتفاح وقاسيون قبة السيّار والقمر ذات جنون جميل في سيارة مكشوفة!)

توقظني دقّات الساعة الأثرية التي تتوسط صالة الفندق الملاصقة لـ «بيكوك أليه» تعلن السادسة. بعد دقائق تهبط الست ميمنة عليَّ مثل غيمة مشحونة بأمطار الماضي وصواعقه. (ليلة سفري قال لي مشجعاً: من الجميل أن تصممي على دراسة المال وإدارة الأعمال في الجامعة ذاتها التي درستُ فيها. البنات المدللات مثلك يكتفين عادةً بدراسة التدبير المنزلي و «الهوم آيكونومكس» في مدرسة «البي. يو. سي» في بيروت وخوض مباريات الجمال!

حين تعودين سنعمل معاً في إدارة أعمالنا وسنتعاون على كل شيء. لن تكوني أنثى البيت بمعنى الضلع القاصر بل بمعنى أنك حبيبتي وأنثاي. . .

لم أصدق أذني. كان حلماً أن أسمع رجلاً شرقياً يقول لي كلاماً كهذا

ويكون حبيبي وزوجي.

ودّعني وكانت ابتسامته الملتاعة تردد أغاني (الميجانا والعتابا) و (الأوف)، والآهات المسافرة لقلوبٍ اخترعت فن التنهد.

بعد شهر من سفري، ومن أحاديث هاتفية محمومة، ومداعبات تلفونية بـ «الشيفرة» السرية عابرة للقارات على حدود الرعشة كدت أقول لعرفان إنني حامل وإن تلك الليلة لم تمر عابرة رغم جهودنا، ولكنه سبقني إلى الكلام: لا تقلقي إذا سمعت أنني في المستشفى. عملية تافهة في الأنف لتخليصي من أوجاع الألتهاب المزمن في الجيوب الأنفية. لا أريد أن يفسد شيء شهر عسلنا فيما بعد.

علمت فيما بعد أنهم خدروه من أجل الجراحة التافهة لكنه لم يصح.

مات، ربما ليثبت أن الحب يخذل الجميع والموت لا يخذل أحداً! . . .

لم اجرؤ على العودة لحضور مأتمه. لم يكن بوسعي أن أهبط في مطار دمشق دون أن يكون في استقبالي ولا أن أتجول في شوارعها وهو يرقد في مقبرة الدحداح على مقربة من بيتي! . . .

وأرسلوا إليَّ بعمتي لتواسيني.

لم أكن بحاجة إلى المواساة فقد جننت وانتهى الأمر. ثمة خيط واحد يربطني إلى الحياة: ذلك الطفل في أحشائي الذي زرعه دون أن يدري قبل سفري رغم احتياطاته كلها.

صممتُ على الاحتفاظ به وبحت بسري إلى عمتي وأنا أتوهمها ستفرح لأنه تبقى لي شيء من عرفان. لكنها صعقت وقررت: يجب أن تجهضي ذلك الطفل وإلا أضعت فرصتك في زواج آخر. صحيح أنك زوجة عرفان شرعاً، ولكن الأصول أصول والسيدة المحترمة لا تسلم نفسها حتى لزوجها إلا حسب الأصول. . .

وتابَعتْ: ابنة عائلة محترمة مثلك لا تنجب طفلاً من خطيبها حتى ولو كان زوجها!!

من يبالي حقاً بهذا الهراء وقد سبقني عرفان إلى أرض الماوراء؟ . .

ولكن حزني قتل طفلي.

وحين أجهضت من تلقاء نفسي اعتبرتني عمتي سعيدة الحظ وكنت أبكي عرفان ولا أبكي طفلنا وحده. . . لم يبق إلا الرماد.

كان عرفان رائعاً كحلم، والأحلام لا يحق لها أن تعيش طويلاً ولا أن تموت!.

أرفع رأسي. أجد ميمنة خانم تقف أمامي كشبح. لم أسمع خطاها. (أنا الشبح لا هي. لعلي مُتُّ وانتهى الأمر من زمان. إننا لا نعي موتنا إلا حين نلتقي بالذين عشنا معهم أصدق أيامنا) انهض. تضمني إلى صدرها فأكاد أنتحب وتمطر حنجرتي المجرحة ماء مالحاً. أقبّلها نحيلة ذاوية. تجلس بكل أناقتها وكبريائها وسجل أحزانها المسطر في تجاعيد. أعرف أن ما حدث لها حدث لي. أرى في هرمها عربات الزمان التي راحت جيئة وذهاباً فوق نضارتي. لقد هرمنا معاً في بلاط الحزن على عرفان.

أضمُّها إلى قلبي بصمت ودون أن أتحرك من موضعي واتذكر لحظة ضمتني إليها أمام المرآة وأنا أجرب قرطها. (ربع قرن من الأحزان تفصل بين تينك اللحظتين، ولكنها ما زالت قريبة مني كذلك اليوم. ثمة شيء مشترك بين النساء المكسورات مثلنا قد يكون رجلاً ذهب ولم يعد). .

تجلس والدموع تنحدر من عينيها الجميلتين رغم الزمن.

أحاول أن لا أبكي لكنني أزيح نظارتي السميكة وأمسح عيني. يجب أن لا أبكي، فعرفان ثالثنا على المائدة. ليس بمقدور أية عاشقة مثلي أن تلتقي بأم حبيبها دون أن يكون الحبيب ثالثهما.

اتأمل شفتيها اللتين قبلتاه طفلاً. بطنها الذي حمله وهي لا تدري أنه مرشح للموت قبلها.

أحدّق فيها صامتة ونظرات المحبة المتبادلة والحنين نهر يجرفنا معاً فنطفو ونغرق. (آه يا سيدتي لماذا هتفت ولماذا تنكئين جرحك وجرحي معاً؟ دعيني في دنياي، هاربة إلى عملي ونسياني المستحيل. منذ موت ابنك لم ائتمن رجلاً على حبي كي لا يغدر بي ولم أثق يوماً إلا بعرفان. . ثمة جزء سري مني ظل طفلاً

وعاشقاً يقص صـور الأماكن القـديمة الـدمشقية من الصحف كـما لو كـانت تذكارات ويجمع الكتالوجات العتيقة واسماء شوارع ذلك الزمان. . وصـور بيـوت الأزقة بـأبوابهـا الخشبية المنقوشة و «ساحة الـديـار» التي تتـوسـطهـا «البحرة». . . وتزنرها الأشجار والأزهار والياسمين.

ثمة جزء من رأسي العملي الذي جلب الأرباح للبنك، كان يتابع حياته اللامعقولة داخل الحلم مؤمناً بأن الكون ملعب مفتوح بين الماضي والحـاضر وكل ما على المرء أن يفعله هو أن يجرؤ على التجول بينهما. . .

طربوش أبي يتربع على الطاولة في مدخل بيتي النيويوركي، أما شباكي الشامي العتيق فقد علقته على الجدار كنافذة على السر اغادر عبرهـا جاذبيـة البيضة مكيفة الهواء. . نافذة أفتحها ليلاً ولا أرى الجدار خلفها بل أرى دمشق وتهبّ رائحة الياسمين ويلوح وجه عرفان في ومضة خاطفة فأقول له «تصبح على خير» وأنا أتساءل: لماذا لا أراه في الحلم ولو لمـرة واحدة؟ لماذا أحلَم بدمشق، بحضوره فيها، لكنني لم أره مرة داخـل أرض الحلم. لم يحدث أن شاهدته في أحلامي وجهاً لوجه. ولم يخاطبني مرة؟)

تقول ميمنة خانم ورائحة اليـاسمين تهبّ منهـا وأمسيات دُمّـر والهامـة ويتدفق من أصابعها ضوء القمر: لم يكن الحصول على رقمك الهاتفي صعباً. أنت سيدة ناجحة ومعروفة ولم تنقطع أخبارك عني حتي بعد وفاة المرحوم والدك وانتقال والدتك للإقامة مع شقيقتك المتزوجة في باريس.

اتساءل: هل جـاءت آلاف الكيلومترات لتقـول لي ذلك؟ مـاذا تريـد بالضبط؟ أحاول أن أقول شيئاً فلا أجد إلا الصمت.

تتابع بصوتها الذي لم تبدله الأيام: أعرف أنك رفضت الزواج من أي رجل بعد عرفان. ولم تزوري الشام بعده. . ولم. . ولم. . أما زلت تحبينه؟

كدت أقول لها: الذاكرة خبزي اليومي ولم أنجح يوماً في التخلص من ديكتاتورية الذكريات، كأن نموي العاطفي توقف منذ ذلك اليوم وصرت معاقة. وما زالت أذهب إلى الوسيطات الروحيات في نيويورك لاستدعائه إلى دنيا الحلم لأبصره ولو مرة أخيرة. . فأنا أشعر أنه مسافر طالت غيبته وأفتقده. . .

ولكنني وعيت عجزي عن قول كلمة. ربما كان الأبطال يتحدثون هكذا في االسينما الرديئة. أما في الحياة فالخرس هو السيد.

تكرر: أما زلت تحبينه؟

لا أجد صوتاً في حنجرتي المحشوة بالرماد. أهز رأسي بالإيجاب.

تقول لي: أعرف ذلك!..

يأتي النادل. تعتذر عن شرب القهوة لمرضها وتطلب ماء معدنياً.

تبدو منهكة ترتجف كاللهبة الأخيرة لشمعة. أفيض حباً نحوها. أحاول أن أقول لها ولا أجد صوتي: إنه لا يزورني في الحلم ولا أدري لماذا. لكنني ما زلت أعيش معه بمعنى ما. إنه ما زال زوجي ولم أصبح بعد أرملته.. ما زال حياً في حياتي كما هو في حياتك رغم ربع قرن من الفراق.

لا أقدر على الكلام. ثمة شوك جهنمي ينبت في حنجرتي.

أشعر أنها تقرأ صمتي. ثمة لغة خاصة بين عاشقتين مكسورتين لرجل واحد.

تقول: إنني يا ابنتي في طريقي إلى مستشفى في هيوستن. ثمة عملية جراحية خطيرة قد تنقذ حياتي، لكنني أحتضر، وأعرف أنني أحتضر. وقد جئت لأودعك قبل أن أموت ولأسلّمك أمانة.

دموعي تنحدر إلى الداخل، وتنتحب مسامي. موت كل ما يخص عرفان هو موت جديد لي. أتابع تماريني على الموت في حضرتها. تذهلني قدرتها على قراءة أفكاري فصمتي لا يضايقها كأننا نتواصّل عبره بصورة أفضل.

ارتجف في حضرتها وأتخيل ما الذي يمكن أن يقوله عني زملائي رجال البورصة وسكرتيري والموظفون إذا شاهدوني أعود طفلة ـ في حضرة أم عرفان ـ ترتجف راكضة في دهاليز مظلمة وهي تفتح التوابيت العتيقة كلها.

تتابع: جئت فقط لأراك، ولأعطيك هذة الأمانة التي حملتها لك طويلاً.

(ما الأمانة؟ أهي رسالة من عرفان لم أكن جديرة بها قبل الآن؟ رسالة من دمشق؟)

تُخرج من حقيبة يدها قرطين ماسيين. ابذل جهداً خارقاً كي لا أجهش في البكاء وقد ميزتهما في ومضة عين.

استعيد تلك اللحظة اللامنسية، أمام المرآة المصدّفة حين جربتهما ذات يوم وكنت في السادسة عشرة من عمري فراشة فرح. يا إلهي.. كأن ذلك حدث البارحة، ومنذ ألف عام في آن..

تقول: أعرف أنك أمينة على حبه وأريد أن تحتفظي بهما. تذكري. هذا ليس قرطاً عادياً من الماس. إنه قرط مسحور. له قوى استثنائية أترك لك أكتشافها بنفسك. سحره قوي جداً شرط أن يكون صاحبه صادق العاطفة، وأنا أعرف أنك كذلك!

كي أنجو بنفسي من التأثر، من السحر الشامي في القرطين، أهرب كعادتي إلى لغة المرأة الفولاذية. أحاول أن أكلمها بلغة نيويورك والبنوك والماديات وروح العصر.. أن أقول لها إنهما ثروة لا بأس بها بلغة البنوك والمال. وإن عشرة قراريط من الماس، خمسة لكل قرط، محاطة بذهب معتق ونقوش أثرية لا ترمى هكذا، لكنني أشعر أيضاً أنهما لا شيء أمام حب عرفان.. وثمنهما لا شيء أمام قيمتهما..

أتناولهما من يدها وأخفيهما في منهدتي كما كانت جدتي تخفي أشياءها الغالية.. آخذهما كأنني قانعة بأنني أستحق ائتمانها عليهما.

أقول لها فجأة: أرجوك أن لا تموتي أنتِ أيضاً..

تنهض من جلستها على المقعد المقابل وتجلس إلى جانبي على الأريكة كما لو كنتُ ابنتها المسافرة.

تضمني إليها. تقول بنقاء المحتضرين: في البداية غرت من حبه لك. طفلي الجميل الصغير متعلق بامرأة أخرى صبية وجميلة وغير بدينة مثلي؟ كان ذلك يومئذ لا يُطاق! ثم انتقلت عدوىَ المحبة إليك حين عرفتُ مدى حبك له..

يمر الوقت سريعاً ونحن نتحدث عن عرفان في جلسة استثنائية لتحضير روحه في قلب مانهاتن على مقربة من ناطحات سحاب «البان أميركان»

و «الأمباير ستيت» و «مركز التجارة العالمي»!

تلهث ميمنة خانم ويبدو عليها التعب شيئاً فشيئاً وأنا اتمنى لو أستبقيها.

تكرر وصيّتها: حافظي على القرط فهو ليس ماساً عادياً، وله قوى سحرية استثنائية. تذكري ذلك.

أوصلها إلى المصعد. أضمها مودعة. وحين ينغلق بابه المعدني عليها بحزم سريع كسقوط مقصلة أتمنى لو كانت في قطار يمشي ببطء وأنا ألوح لها حتى يغيب دخانه من الأفق، لأتجرع الوداع قطرة بعد أخرى وآلفه.

وحين يعلو المصعد بها، أشعر أن مصعداً آخر لامرئياً يهبط بي حتى قاع التمزق والعزلة.

يغمرني الذعر من العودة إلى شقتي القريبة في الجادة الخامسة ولا أجد عرفان هناك. ولكنني أعود. دوماً أعود مثل شبح معذّب طردته البيوت المسكونة كلها إلى شياطينه الخاصة وعذاباته.

أضغط زراً في مدخل بيتي. تضيء الأنوار في الغرف كلها مرة واحدة. هكذا طلبت من مهندس الديكور خوفاً من لحظة العودة كل مساء ومن الظلمة التي تنتظر الذين يقطنون وحدهم. كأن العتمة تقول لي غرفة بعد أخرى: أنا خاوية. وأنت وحيدة ولا أحد ينتظرك! بوسعك الاحتضار ولن يبالي أحد بك.

الخطوة الثانية التي أتخذتها لكسر الوحشة هي الإنصات إلى الشريط المسجل للمخابرات الهاتفية لي على ماكينة الإجابة الآلية. دعوات إلى سهرات تبدأ بالطعام وتنتهي بصفقات العمل مروراً باستغابة حلقة الثرثرة الأخرى التي تستغيبنا في الوقت ذاته. خواء.

(جوكينغ) في السنترال بارك وخواء.

ثياب ثمينة وعطور، ورجال يحملون السلالم اللامرئية لتسلقها إلى المجد، ونساء مثلهم وزوجات ضجرات وخواء في البيضة مكيفة الهواء.

الخطوة الثالثة لكسر الوحشة زران اضغط عليهما: التلفزيون والموسيقى معاً هاربةً من الضجيج إلى الضجيج كي لا أسمع صوت أعماقي.

الليلة لن انصت إلى مايكل جاكسون أو مادونا. استخرج الشريط

«السري» لألحاني، ويهب من «الهاي فاي» صوت محمـد عبد المطلب ينشد: «ودع هواك وانساه وانساني. عمر الزمان ما حايرجع تاني. كان حلم وراح. انساه وارتاح ودع هواك. . .». أنشد معه وأنا أتأمل نيـويورك من نـافذتي في الدور الخمسين. . . كان حلماً وراح؟ ليس بالتأكيد.

العمر راح وبقي الحلم. الأول يصغر والثاني يكبر.

أدور في البيت وأكاد أضحك كمن يراه للمرة الأولى. لعله بيت يشبهني. طربوش والدي العثماني يتربع في صدر المكان وإلى جانبه ماكينة الفاكسيميلي. الشمبانيا في البراد وإلى جانبها حرزي الشامي العتيق الذي أوصتني جدتي بعدم التخلي عنه، وأرغمني حر نيويورك الخانق على إيداعه صيفاً في البراد فقد بدأ يبلى. صور قديمة على الطاولة. صورتي بثوب الاستحمام الشبيه بورقة التوت (البيكيني) إلى جانب صورة ابنة خالتي بـالايشارب والكم الـطويل، وخـالتي بالمنديل الأسود والثياب العربية، وجدتي بـ«البرالين»(*). إنه موزاييك حياتي الممدود بين الحاضر والماضي، بين قارتين وعمرين وصحوين ونومين. .

صورة لي مع عرفان وعقد من الياسمين يحيط بعنقي اشتراه لي من صبي ملحاح. . ترى أين الصبي اليوم؟ هل كبر أم ما زال يبيع الياسمـين للعشاق طفلاً إلى الأبد لا يتبدل كالحب؟

حمام سريع دافىء. جرعة جلينفيديش ولقيمات. جلسة هادئة على شرفة معلقة فوق المدينة. . .

استعد للنوم نصف مذعورة. أية أحلام سأرى الليلة بعد هذه الزيارة التي زرعت الاضطراب في روحي؟

قبل النوم لا أدري لماذا أتأمل القرط الماسي، وأُدخل دبوسه للمرة الثانية في أذني المثقوبة، وربع قرن تفصل بين المرتين. يحدث شيء غريب حين ارتديهما ويتدليان على جانبي وجهي المتعب وشعري القصير المصبوغ باللون الأشقر.

(*) البرالين: الحجاب الشامي للطبقة المتوسطة قبل ربع قرن وأكثر، قطعة قماش سوداء مفصلة على حجم الرأس وتتدلى حتى الخصر كمنديل الصلاة فوق معطف أسود طويل محتشم، وثمة منديل أسود شفاف يغطي الوجه يُسمى الفيشة.

يخيّـل إليَّ أنني أبدو أصغـر سناً شيئـاً فشيئاً. . . والتجـاعيـد في جبيني تتناقص. أضحك لهذا الخاطر. أقرر أن لا مفر من الذهاب إلى مجاهل النوم.

كل ليلة، أخشى مغامرة الذهاب إلى النوم، أنا التي أغامر نهاراً بصفقات مالية تجلب الربح الكبير للزبائن وللبنك. ناجحة في النهار. مهزومة أمام الليل حين تنقض عليَّ الأحلام وتعيدني إلى دمشق. احتفظ بالقرطين الماسيين العتيقين كتعويذة في أذنيّ وأقرر النوم دون أن أخلعهما.

أجلس في سريري. يرن الهـاتف. يـرد المجيب الآلي. يـأتيني صـوت سكرتيري بكل نزق شبابه: أرجوك أن تتصلي بي. إني آسف.

لا مفر من جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة الليلة بعد قطع الاتصالات الهاتفية. أعدّل توقيت رنين المنبّه لصباح الغد باكراً وألحظ أن اسمه (ماكينـة الأحلام)!

اطفىء النور. أسقط في البئر تدريجياً وأنا انزلق إلى حيث لا أدري. . .

أستيقظ. أجد نفسي خارج البيضة مكيفة الهواء، جالسةً في سيارة حمراء مكشوفة متوقفة في ساحة المهاجرين في حضن قاسيون مرتدية ثوبي «البروكار»(*) الذي تألقت فيه ليلة خطبتي وعرفان. الرؤيا مشوشة. لعل نظارتي متسخـة. أرفع عن عيني نظارتي الثقيلة ويدهشني أنني قادرة على أن أرى بدونها كما لو كنت قد عدت صبية. أتحسس شعري القصير المصبوغ بالأشقر فأجده طويلاً أسود اللون يغطي كتفيّ وصدري. أدير مرآة السيارة صوبي فأجدني قد عدت صبية في السادسة عشرة من عمري وأكاد في البداية لا أميـز وجهي لولا شبهـه الكبير بوجهي في صوري القديمة. ألتفت إلى يساري فأجد عرفان جالسـاً في مقعد السائق، وفي القاع دمشق الزمان الغابر. لا يدهشني ذلك. إنني بالتأكيد أحلم والحلم رحيل عبر العصور والأماكن. يغمرني الفرح: للمرة الأولى أبصر عرفان في حلمي. . ولكن هل أحلم حقاً؟ حين أحلم عادةً لا أعرف أنني أتحرك داخل حلم، أما في كوابيسي فإنني أعي أنني أرى كابوساً حينما يُشارف عـلى نهايته بصورة خاصة. . .

(*) البروكار: قماش شهير من صنع دمشق.

ولكن قلَّما أحلم وأنا أعي بصحوي أنني أحلم!

أتأمل عرفان وأحاول أن أشرب حضوره بنظراتي. عطشي إليه مشحون بالتوسل إلى الخارق والاستثنائي والمستحيل.

أحدّق في دمشق المدينة التي تحجرت داخل رأسي بأحباب الأمس فيها الذين لا يهرمون ولا يموتون. تزداد دهشتي. كيف أعي أنني أمرأة ناضجة عادت مراهقة، أم تراني لا أحلم لكنني بطريقة ما سحرية انفلتُ هاربة من البيضة مكيفة الهواء، لأتجول في الأزمـان وأعيش ثانيـة اللحظات التي أشتهيهـا وأعي ذلك التجوال اللامنطقي. أم أن ذلك هو ما يدعى بالحلم؟ يد عرفان على المقعد قريبة من يدي. لا أجرؤ على الإمساك بها خوفاً من أن أكتشف أنه رجل من غمام. أخشى أن ألمسه أو أكلمه فأستيقظ من الحلم، إذا كان ما يحدث لي حلماً. انظر إلى المارة ويخيّل إليَّ أنهم لا يروننا. نتأمل مدينتنا معاً في القاع. أرتجف فرحاً به وبدمشق. يبدو ثوب دمشق مطرزاً بالبساتين الخضراء وقباب الجامع الأمـوي تسبح في ضوء الغروب المذهب السائل تطوقها بيوت صغيرة متراصة في أزقـة كثيرة الانعطافات والانحناءات الحنـون، كمن ينطوي عـلى أسراره وأفراحـه ودمعه. إلى اليمين في المرتفع أرى المقهى الشعبي ودرجات سلمه المحفورة في التراب والمدعومة بأخشاب بدائية. فالطاولات التي أعرف أنها ترتج تحت وقع فنجان القهوة وكوب الماء لأنها على أرض ترابية غير مستوية. لا يقول عرفان لي شيئاً ولا أنطق بكلمة. تبدو اللغة شيئاً هزلياً. يمد يده ويمسك بيدي وأخاف على الحلم من أن ينكسر. لا يحـدث شيء.. وعناق يـدينا يكفي لتـوحيد دورتنـا الدموية، والسعادة المنسية تتدفق من عروقي إليه جيئة وذهاباً بيننا والوقت يمر في ومضة عين ويطلع القمر متوّجاً ما يحيط به من أثير مرهف. ينسكب نوره بكثير من الشفافية الفضية عباءة من الغيم المشع تسيل نوراً على الشوارع المزنرة ببيوت من القصائد الحجرية. هنا مدرستي في الجسر الأبيض، وهناك بيتي وفي الناحية الأخرى بيت عرفان في الحلبوني فالتكية فالجامعة تزنرها البساتين ونهر بردى فضة سائلة تقطعها الجسور.. إنها دمشق التي أعرف أنها تبدلت وكبرت مع الزمان، ولكنها كانت تبدو هكذا لحظة تحجرت داخـل رأسي ولم يعد بـوسع شيء أن يمحوها. أشعر برغبة فتّاكة في طرح أسئلة كثيرة على عرفان. أين هو؟ كيف جاء

للقائي. هل يحلم هو أيضاً أم أن الزمان بدّل مساراته خطوة إلى الوراء إكراماً لنا؟

كان يكفي أن أفكر بمكان أو أحنّ إليه حتى أجد نفسي فيه مع عرفان.. أتذكر رقصتنا في «الفورهندرد».. ها نحن في «الفورهندرد» نعيش ثانيةً رقصتنا الأولى. وسط موسيقى ذلك الزمان ورفاق الأمس. تراه يعرف مثلي أن ذلك كله لم يعد موجوداً؟ أتذكر العشاء في «شموع»... ها نحن في «شموع» الزمن الغابر نتهامس... أتذكر جلسة ما بعد عشاء «شموع» في دُمّر. ها نحن في دُمّر. في الشرفة الخشبية المعلقة فوق بردى بين القمر والتنهد. أنفه قريب من أنفي مثل قبلة متنكرة لتنفسٍ مشترك..

لحظات، نعود منها إلى وقفتنا المفضلة في قاسيون نطلّ على حبيبتنا وسيدتنا دمشق.. وثمة صوت عذب ينشد من بعيد «يا ميت مسا»(*)... ها نحن في الغوطة.. في الربوة.. في الهامة.. في مطعم مطار المزة.. في أماكن لعلها لم تعد موجودة في نظر البعض، ولكنها دوماً هناك وكل ما في الأمر أنها صارت لامرئية... أقول له إنني أفتقده. لا يجيب. أقول له إنني أريد أن أبقى معه. يشير إليّ بأصبعه أن أصمت. أتذكر حكاية أورفيوس وعودته بحبيبته في القارب من مغاور الموت. لكنني افتقده. ثمة خطوة عليّ أن أخطوها لأعبر النهر إلى الضفة الأخرى كي لا يفرقنا بعد ذلك شيء. وريثما يتم ذلك يبدو الحوار محرّماً!..

ونحن نغادر مطعم المطار يلحق بنا الصبي الذي يبيع عقوداً من الياسمين. يتناول عرفان عقداً منها ويحيط به عنقي. أشتهي أن أقول له إنني سأبقى أبداً معه أتجول في الزمان والمكان لئلا نفترق وإنها نزهة بسيطة لا يتقنها إلا المحب الحقيقي. اشتهي الاعتراف له بخياناتي له مع سكرتيري وسواه.. وأن أسمعه يقول لي إن هذه حاجات الجسد التافه الذي سأخلعه ذات يوم، وهي حاجات يعرفها كرجل...

اشتهي أن أقول له إن الحب يخذل الجميع والموت لا يخذل أحداً وذات

(*) أغنية للسيدة فيروز.

يوم سنلتقي. لكنني أظل صامتة، وهو يتحسس القرطين في أذنيّ وعلى شفتيه ابتسامة استثنائية كمن اكتشف سراً.

أقول له إن والدته زارتني في نيويورك واعتبرتني جديرة بهما وإني لبستهما قبل أن أنام، أو قبل أن أستيقظ لا أدري.

تتسع ابتسامته وكي لا يقول لي شيئاً يدير ظهره لي. أنتحب وأرجوه أن يلتفت صوبي. أساله: أين أنت! لماذا مضيت؟ ماذا يدور عندك؟ ماذا خلف الجانب الآخر من الباب؟ ما شكل القمر في سمائك؟ كيف أستطيع اللقاء بك ثانيةً.

لا يجيب ولا يلتفت إليَّ.

أكرر بإلحاح: أرجوك أن تلتفت إليَّ. كيف أستطيع اللقاء بك ثانيةً؟ أكررها وأنا أنتحب.

يلتفت صوبي كمن يريد أن يقول لي كل ما يعرف. يهمس: القرط...

لم يكد ينهي كلمته حتى استيقظت وفتحت عينيّ وضوء شمس معدنية يملأ الغرفة. (لماذا استيقظت؟ وأي أثم اقترفت؟).

أظل ممددة في فراشي. أغمض عينيّ ثانية واستعيد الحلم لحظة إثر أخرى ببطء كمن يدير لسانه على سكرة. أتذكر ما كان تفصيلاً بعد آخر. أتحسس القرطين السحريين في أذنيّ وأشم رائحة الياسمين.

من جديد أستعيد حلمي كبخيل يحصي ليراته الذهبية قطعة إثر أخرى وهو يتحسس تضاريس كل واحدة على حدة. عرفان. قاسيون. الغوطة. رائحة زهر الليمون. الصبي بائع أطواق الياسمين، العقد الذي تناوله عرفان منه وطوّق به عنقي في الحلم... الربوة.. ودُمّر.. والغوطة.. و.. و..

أستعيد الحلم منذ بداياته مرات ومرات في سريري مغمضة العينين مثل شريط فيديو لا أضجر من تكراره على شاشة جفوني المغلقة، وتفوح رائحة الياسمين حولي... ولكن، من أين لي بالياسمين في نيويورك؟..

أتذكر أنه أمسك بيدي في الحلم. أشمها. يفوح منها عبير عطره اللامنسي ممتزجاً برائحة الياسمين. لا. لست واهمة. كل شيء يبدو حقيقياً لكنني بالتأكيد

واهمة. حقيقي؟ غير حقيقي؟ حلم؟ صحو؟ وهمي؟ واقعي؟ ألا تقع الأشياء لنا إلا على أحد هذين الوجهين؟

يرن جرس المنبّه. انتهى الحلم الشامي، والجرس يستدعيني للعودة إلى عالمي الآخر في البيضة مكيفة الهواء.

أنهض من فراشي وعبير الياسمين ما زال يلفني. واكاد لا أجرؤ على التحديق في مرآتي..

كُنت في الحلم صبيةً في السادسة عشرة من عمرها، وها أنا امرأة ركضت فوق وجهها دواليب الزمن.

أتحسس وجهي أمام المرآة، وعنقي. وما أكاد أفعل، حتى يذهلني أن أجد عقداً من الياسمين يتدلى من عنقي وقد أصفرت أوراقه قليلاً!

١٩٩٤/٩/١
الساعة ١٢,١٥ ليلاً

قلعة الدماغ المغلقة

حياة المرء الحقيقية هي غالباً تلك
التي لا يحياها.
اوسكار وايلد

في السلوك الأكثر وضوحاً لدى
المرء، ثمة جانب سري.
جوزف كونراد

كنت كما لو أنني أتحرك في عالم من
الأشباح، وأشعر بنفسي ظل حلم.
اللورد تنيسون

قلعة الدماغ المغلقة

كُنتُ في السرير معها، أمتطيها قارباً إلى جزر الدهشة واللّذة والنسيان حين دخل زوجها. في البداية لم أصدق عيني. فباب بيتي مقفل ولم أسمع ضجيج تحطيمه، فكيف دخل؟

شاهد ما نحن عليه ولم يقل شيئاً، لكنه صار يتقدم نحونا وهو يشهق منتحباً بصوت عال كمن يحتضر وقد أمسك رأسه بيديه كأن عنقه لم يعد يقوى على حمله.

لاحظت أنه لا يمسك بسكين أو بمسدس وشعرت بشيء من الارتياح لأنه غير مسلح.

ظل يتقدم نحونا بقامته الفارعة الضخمة. يداه امتدتا إلى عنقي وهو ما يزال يشهق كمن يخطو إلى ذروة النشوة وهو يخنقني وأشاركه الشهيق. يا إلهي إنه يقتلني. إنني أختنق. إنني أموت. أموت.

لقد مت. ها أنا أغادر جسدي وأقف إلى جانب السرير وهو ما زال يخنقني. بدا لي الأمر طريفاً وقلت له أن يتوقف عن خنق دمية الخروق تلك لأنني مت وانتهى الأمر ولا داعي لأن يتعب نفسه أكثر من ذلك.

توقعت أن يستدير إلى ناهد ـ التي كانت ترتجف بصمت في ركن السرير وهي تغطي نفسها بالشرشف الأبيض كشبح وذعر مذعور في عينيها ـ ويخنقها كما فعل بي.

خفت أن يفعل ذلك وتصير ناهد شبحاً مثلي وتلازمني إلى الأبد وأنا الذي يحار كلما زارته كيف يتخلص منها بعد انجاز رحلة السرير.

لكنه لم يفعل وإنما جلس منهاراً على المقعد ودفن وجهه بين يديه وهو يبكي ويرتجف ويردد: اللعنة عليكِ يا ناهد. كان صديقي. ألم تجدي رجلاً آخر؟

لم تجب.

نهضت وأخذت ترتدي ثيابها على عجل نصف مختبئة خلف مقعد، كأن زوجها لم يرها عارية من قبل، أو كأن عري جسد الخيانة مختلف عن العري الزوجي: كأنها الآن امرأة أخرى وقد ينقض عليها ليغتصبها كأية غريبة شهية.

بوسعي أن أتأمل ذلك كله بهدوء محايد ما دمت قد صرت شبحاً. بل هو هدوء فضولي.

قالت له: كفَّ عن البكاء. لعله ما زال حياً. دعنا نطلب الإسعاف فقد يمكن إنقاذه. الحمقاء. ألا ترى أن بياضاً شاحباً يسري في خرقة جسدي ولساني متدل من فمي وعينيّ من زجاج كعيون الدمى؟

يجيبها: لقد مات. أعرف أنه مات. لقد قتلته.

يتابع انتحابه وقد غطى وجهه بيديه..

أتأمل جسدي. إنه يميل إلى البشاعة، فكيف كنت أراه من قبل جميلاً وأنا أتغندر أمام المرآة وأصعد فوق الميزان وأداعب شعري راضياً؟

للمرة الأولى أرى نفسي بوضوح: ساقان بيضاوان نحيلتان نادرتا الشعر كفخذي دجاجة بعد أن تقوم أمي بنتفها في القرية حين كنت طفلاً أتأملها بذعر، ربما لأنني كنت أحدس من يومها بأنني سأموت كما ماتت بينما جسدي ينتفض مرتعشاً كجسدها.. كرشي كبير يتدلى على طرفي جذعي ولا أدري كيف كان بوسع ساقين هزيلتين كهاتين أن تحملاه، وربما كان ذلك سبباً لوجع ركبتيَّ. صدري يغطيه وبرٌ هنا وهناك، سوء في التوزيع دونما غزارة في الانتاج، كشعري المشعث فوق قمة راسي بلون كستنائي. حلاقي كان يصبغ لي بياضه فأفرح وأنا اتظاهر بلومه. ذلك الحوار المسرحية كان جزءاً من عملية الصباغ وبالتالي كنت أجزل لحلاقي العطاء.

الآن أرى كم كان وجهي مائلاً إلى البشاعة: ضيّق وطويل وصغير ومركب على جسد لا يلائمه، وأنف لا يخلو من ضخامة متورمة لا تشبه «الأنف الصقر» الذي يُضفي على الوجه قوة الشخصية وكنت أتوهمه أنفي. ولكن النساء كن يدعين الوقوع في غرام وسامتي وأعي الآن بوضوح أن القضية لها صلة بجمال أرقام حسابي المصرفي.

ها قد مُتّ وصرت شبحاً ولا حاجة لي بثروتي تلك كلِّها. . وأنا سعيد لأنني أنفقت منها ما استطعت كالمجنون وأنا أردد ببغائية: لا أحد يأخذ معه شيئاً. غداً نموت. . ولكنني لم أكن أعني بالطبع ما أقول ولم أكن أصدق أن ذلك سيحدث لي. والآن أنا سعيد لأنني أوصيت بأموالي قبل موتي إلى من يستحق.

تقول ناهد لزوجها بصوت بدا لي متماسكاً أكثر مما ينبغي لامرأة مات «حبها الأول الوحيد الكبير» (كما كانت تسميني): حسناً ما الذي سنفعله الآن؟

لاحظتُ أنها لم تبكِ على جسدي وتنتحب لأنني متُّ وهي التي طالما طاردتني عشرات المرات في اليوم هاتفياً مدعية أنها ستموت إذا لم تسمع صوتي!

لن تسمع صوتي بعد اليوم ولا يبدو عليها أنها تموت!

تُكرِّر: لقد قتلتَه. نحن في ورطة. دعنا نهرب من هنا.

أغضبُ بعض الشيء لأنها لا تحاول الاتصال بالشرطة لينال قاتل حبها «الأول الوحيد الكبير» عقابه!

يهدأ انتحابه كمن يصحو. يقول دعينا نتصل بالبوليس. لقد كان ما كان. . .

تسوّي شعرها أمام المرآة ولا تراني. ولا «أراني» أنا أيضاً، إذ أقف إلى جانبها، لا أرى انعكاس صورتي فيها وتقول: إذا عرف الناس فالفضيحة لي والسجن لك. يجب أن نهرب من هنا.

يردد منهاراً: سيعرفون.

تقول: لن يعرف أحد. سنجعل الأمر يبدو سرقة.

يسألها: والبصمات؟

تجيب: لقد سهرنا البارحة هنا مع الأصدقاء حتى الفجر كعادتنا كلما ذهبت زوجته لزيارة أمها، ودخلنا إلى غرف النوم وتعاطينا المخدرات وغيرها في كل ركن ومكان في «الفيلا»، وما تزال آثار السهرة وأكوابها القذرة وصحونها وبقايا أكلها في موضعها. . وبصمات بقية أفراد الشلة لا بصماتنا وحدها وهذا هو «الأهم». . .

يسأل: ماذا لو حقّقوا بدقة؟ الاعتراف بالحقيقة أفضل من أن يكتشفوها فيما بعد ويتهموني بقتله بغرض السرقة. الكل يعرف أننا فقراء منذ خراب بيوتنا في الحرب ونعيش على التكسب من ورائه ومن ماله.

تجيب: اكتشاف الحقيقة يحدث في القصص والتلفزيون لا في الحياة. المحقق الشرطي لن يهمه كثيراً موت القتيل ويفضل إقفال التحقيق والعودة للعشاء في بيته.

إذن تجاوز ناجي الصدمة وبدأ هو أيضاً يفكر وهذه ليست مفاجأة. المفاجأة في أن ناهد هادئة وثاقبة الذهن وأنا الذي لم ير منها حياً غير جسدها بديع الإغراء. حقاً إن الأشباح ترى بوضوح لا كالأحياء المساكين.

كنت أتوهم أن أحداً سواي لا يعرف الحقيقة.. الآن أرى أنني لم أكن أعرف شيئاً. موتي أمر مثير لأنه صار بوسعي أن أتعرف على حقيقة الأشياء، وأضحى بمقدوري أن أراها بصورة أفضل. المشكلة أنني لم أصبح ناضجاً للمعرفة إلا حين صرت ناضجاً للموت. أعني ميتاً!

يُسارع ناجي إلى «الخزنة» في ركن الغرفة. يعالجها، بحثاً عن المال وربما عن حليّ زوجتي كارمن.

تقول له: لا تتعب نفسك. الخزنة فارغة وموجودة لتضليل السارقين (كاموفلاج) لا أكثر. إنه يضع نقوده ومجوهراتها في هذه العلبة البلاستيكية الحقيرة في مخبأ سري في قاعها تحت دبابيس زوجته وأمشاطها. لقد أعطاني نقوداً من هناك وتركني أجرب عقدها الماسي الكبير.

بسرعة أفرغتْ محتويات العلبة في حقيبة يدها: مجوهرات بعشرات آلاف الدولارات وعُملات مختلفة. اتجه هو إلى الباب الزجاجي الذي ينفتح على الحديقة وفتحه وخرج ثم أطبق بابه خلفه، وبعدما أطبقه كسر زجاجه من الخارج ثم عاد ودخل بعدما مسح بصماته.

كنتُ قد شاهدت شيئاً مماثلاً في السينما. حقاً إن السينما تعلم كل شيء. قال لها بنبرة فخر: الآن سيظن البوليس أن سارقاً خنقه في نومه.

تقوم بترتيب الفراش نسبياً ليبدو وكأن شخصاً منفرداً نام فيه لا ساحة

غرام وتقول له: دعنا نخرج كلّ منا على حدة. لن يرانا أحد في هذا الظلام. ولكن الحيطة أفضل.

ينهرها: أنت السبب في هذه المصيبة.

تقول وكأنها تذكّره بأنه هو قاتلي: احمد ربك لأنك قتلته في بيته الريفي هذا... ويوم إجازة الخدم أي في غياب الشهود.. باستثنائي!

ها هي أيضاً سعيدة لأن قتلي جرى هنا لا في الڤيلا المحروسة جيداً في المدينة!... ذلك لا يُصدق.

يكرر غاضباً: أنت السبب يا...

تبهرني هذه الاكتشافات. ما أجمل أن أكون شبحاً وأرى الذين عرفتهم ولم أعرفهم على حقيقتهم!

أقرر أن أتبعهما إلى بيتهما!.. كان الأمر مثيراً للفضول ويكاد يكون مسلياً. سألحق بهما في الظلمة وأخيفهما. منذ صغري وأنا أخاف كثيراً من الأشباح وأرتجف في الظلام، وها أنا اليوم شبح بمقدوره أن يخيف الناس.

وقفْتُ في طريقها وهي تغادر البيت وزعقتُ في وجهها بصوت مرعب، لكنها لم تبالِ كثيراً بل سألت زوجها بهدوء: هل سمعت صوت حركة في الحديقة؟

أجاب: إنه صوت الريح. سنلتقي في البيت

قررت أن أذهب إلى بيتهما لأرى لحظة معاتبته لها على خيانتها.

لم أكن غاضباً من ناجي الذي خنقني قدر غضبي منها. كنت أريد أن أراها تتعذب. «غاضباً» ليست كلمة ملائمة: مشاعري الآن من نمط مختلف أقل حدة وأكثر عمقاً، مثل ضوء مظلم...

ما أكاد أقرر الذهاب إلى بيتهما حتى أجد نفسي هناك! يحدث الأمر بسرعة خارقة، مثل انتقال نقطة من الضوء على جدار. حين كنت صغيراً كنت مولعاً باللعب بالمرآة والشمس: أمسك بمرآة أمي وأنا داخل غرفة ظليلة، وأترك الشمس تسقط فوق صفحتها من النافذة ثم أرمي تلك النقطة الضوئية على الجدار. بعدها أحرك يدي حركة صغيرة وتركض نقطة الضوء بسرعة في غمضة

عين مثل حشرة من نور.

وأعبث بحشرة النور تلك وأجعلها تركض كالمجنونة من جدار إلى آخر وعلى السقف وأتقمصها وأنطق بصوتها، وحين يعلو صوتها كثيراً يأتي أبي ويزجرني بصوت حنون لأنه يعرف أنه لا يملك لي ثمن لعبة أخرى.. أبي الجميل الجميل لو يراني الآن كيف صرت شبحاً وأتحرك مثل نقطة الضوء لدهش ولبكى طويلاً لأنني متّ وها أنا أشعر بالحاجة إلى البكاء والعويل..

تدخل ناهد وهي تتكلم مع نفسها بصوت عال وأراها بوضوح في الظلام ريثما تشعل النور فأراها بوضوح أقلّ. تشتم هذه الليلة المنحوسة التي أدعى فيها زوجها أنه سيسهر مع أصحابه وفاجأنا.

لقد كان على الأرجح يراقبنا، وسرق منها مفتاحها- مفتاح بيتي - وقام بعمل نسخة عنه قبل أن يداهمنا.

تتابع الشتائم البذيئة بصوت عال. «....» أخت هذه السهرة. ما الذي سنفعله الآن؟ ومن سينفق علينا. كان زوجي يعرف طوال الوقت ويتجاهل. فأي عفريت ركبه الليلة؟ يا لهذا البؤس منذ خربوا بيوتنا في بيروت أولاد «الـ....»، أولاد الكذا.. والكذا..

تدهشني بذاءتها. كنت أظنها جميلة ورقيقة كفراشة وليست بحاجة حتى إلى الدخول إلى الحمام لقضاء حاجات مقرفة مثلي وبقية البشر..

كنت أظن النساء الجميلات كالدمى الخزفية البديعة لا يذهبن إلى «بيت الخلاء»، ولكنهن فيما يبدو كبقية البشر، ويشتمن أيضاً ببذاءة مطلقة ويتسترن على الجرائم...

يدخل ناجي هائجاً ككلب حراسة غاضب، وقد استعاد سطوته في البيت.

يهاجمها. يضربها على وجهها.

تبصق في وجهه بوقاحة وتقول له: لا تلعب دور الزوج المفجوع المخدوع فأنا أعرف علاقتك مع كارمن وقد شاهدتكما معاً في السهرة منذ شهر تفعلان ذلك واقفين هائجين وشاهدتك تحملها وتستولي عليها بكل فحولتك.. كنت قد

لحقت بها إلى غرفة النوم لإصلاح زينتي. ألم تخافا من أين يضبطكما زوجها؟

يذهل ولا يقول شيئاً.

يرتمي على مقعد ويدفن وجهه بين يديه. أحاول أن أفعل مثله فلا أجد لي وجهاً أدفنه.

كارمن، زوجتي، مع هذا الخنزير البشع؟ ما الذي لديه وليس لـديّ، أنا الذي كانت تدعوه «أكثر الناس وسامة» وكان الأحمق الذي هو «أنا» يلبي رغباتها كلها؟

حسناً. ضبطتني مرة مع خادمتها البشعة. وماذا في ذلـك؟ حاولت أن أشرح لها أنه حين تتعرى المرأة لا يوجد فرق بين خادمة وعالمة، وحين ينطفىء الضوء تستوي في الجمال كلوديا شيفرز ويوبي غولدبرغ. المهم التجديد في نمط البشرة ورائحتها وملمسها و. . . و. . .

لم تقل شيئاً ليلتها. ظلّت صامتة. قلت لها إن الرجل بحاجة إلى ذلك وإلى التبديل حتى مع خادمة بشعة. أمر مؤسف لكنه حقيقي. ولستُ خيراً من أميل زولا الذي أنجب أولاداً من خادمة زوجته.

توقعتُ أن تجيب: «والمرأة أيضاً كذلك» لنتشاجر وأضربها وأذكّرها بأنني رجل وهي امرأة وثمة فارق بينهما، ثم نتصالح وأقسم لها صادقاً أنني لن أكررها وننتهي من الأمر وأعود إلى تكرارها صادقاً!

ظلت كارمن يومها صامتة.

تقول ناهد: لماذا حضرتك مسموح وأنا ممنوع؟ ولماذا قتلته وأنت تفعل مع زوجته ما يفعله هو معي؟

ينفخ صدره مثل ديك ويصرخ بها: اخرسي. أنا رجل وأنت امرأة.

تقول: انتهى الزمان الذي كان فيه جواب كهذا هو القول الفصل! . . .

خفتُ أن تبدأ بمحاضرة عن «تحرير المرأة» وعن «ازدواجية المعيار» وغير ذلك مما تسطره بعض الكاتبات ويضايقني كثيراً فـ «أشنّع» عليهن في السهرات، وأروي الحكايا الوهمية عن مغامراتي معهن، أو مطاردتهن لي وتعففي! . . لكنها

لحسن حظي صمتت.

بعد صمت طويل تقول بهدوء: والآن من أين سننفق؟ هذه المجوهرات ينبغي طمرها في الحديقة ريثما تنتهي فترة الإيجار التي دفعها المرحوم لهذا البيت وبعدها نتدارس الأمر. المهم أننا لا نستطيع أن نبيعها قبل انقضاء زمن طويل.

تتابع: على شاشة التلفزيون يُلقى القبض دائماً على السارق حين يحاول بيع المسروقات.

يجيب: سننفق من «الكاش» والعملات المختلفة التي قمنا بسرقتها، ولكن بحذر كي لا يرتفع مستوى معيشتنا فجأة ونلفت أنظار المحقق كما يحدث في السينما!

ـ وبعد ذلك؟ نحن مشردان وأنت بلا عمل.. خرَّب الله بيوت الذين خربوا بيتنا. ما الذي سنفعله بعد ذلك؟

يجيب: بعد ذلك سأطلقك وأتزوج من أرملته كارمن.

ـ ماذا؟

يتابع بفخر: إنها تموت بي حباً..

تسأله بهدوء: وبعد ذلك؟ إنها عجوز في الخمسين مثل المرحوم ونحن شابان في مطلع حياتنا... ماذا تريد من هذه الزيجة؟..

ـ وأنت ماذا تريدين مني؟ يتابع ساخراً: سأتزوجها لشبابها وأخونها معك لمالك!!

ـ دعنا من الهذر! بعد زواجك منها سأقتلها أنا وترثها أنت وتعود إليّ. جريمة بجريمة وأنت البادئ.

خفتُ وأنا أسمعها. النساء الماكرات يتنكرن داخل أجسادهن الهشة ويفكرن فيما يبدو بأفضل مما يفعل الرجال ويمارسن «التقية» ويخفين عقلهن كي لا تتم إبادتهن بانتظار اليوم المناسب للاعلان عن حقيقتهن مرة واحدة حيث يحكمن العالم.. يا لهن من شريرات!

أشعر بالذعر منها ومنه. من المفترض أن الأشباح يخوّفون البشر ولكن

العكس فيما يبدو هو الذي يحدث. وحين صارت ناهد تخطط منذ الآن لقتل كارمن بحيث يبدو الأمر حادثاً وقضاء وقدراً ويكون هو بالتأكيد بعيداً عن المكان ومحاطاً بالشهود صرت أصرخ رعباً بصوت عال.

يسألها زوجها: هل سمعتِ شيئاً؟

تجيب: إنه صوت الريح.

لا. ليس صوت الريح. إنه صوتي... أحاول أن أهز الستائر والثريات وافتح الأبواب على مصاريعها ثم أضربها وأفتح صنابير المياه وألون ماء حوض الاستحمام بالأحمر كالدم وأزلزل السرير والمقعد تحت الجالس فوقه وأحطم آنية الأزهار وأفعل بقية الأشياء التي ينسبها البشر للأشباح. لا أستطيع... ليست لدي أية كتلة مادية. الأشياء تخترقني كما كنا نخترق الضوء أنا وأبي في سينما القرية ونحن ندخل بعد بداية الفيلم ويزعق الحضور. كنت أحني جسدي خوفاً أما أبي فيعجز عن ثني قامته الشاهقة الشبيهة بالصنوبرة التي زرعها أمام باب بيتنا. كان يحب كثيراً زراعة الصنوبر والأرز. كلما ولد أحدنا يزرع له صنوبرة أو أرزة. أختي ماتت أرزته فتشاءم أبي كثيراً والغريب أن أختي ماتت أيضاً بعدها.

صنوبرتي صارت أطول مني وها أنا قد مت فهل ماتت هي أيضاً وصارت شبح صنوبرة! هل للأشجار أشباح أيضاً؟

ها هو ناجي يضاجع ناهد بجنون ويبحر فيها ولعابي لما يجف بعد عن صخورها.. إن الأمر مخيف، وأنا شبح مسكين مذعور.

إنهما يخيفانني وهما يخلعان قناعاً بعد آخر وتتكشف الحقيقة وإذا بها طبقات، واحدة فوق أخرى.

خوفي منهما يجذبني إليهما في آن وأعجز عن مفارقتهما. يبدو أنها تنتشي حقاً معه. أراقبها الآن وأنا شبح وأكتشف أنها كانت تكذب وتلفق نوبات نشوتها معي. نعم. لديه ما ليس لدي ولم أكن حقاً أكثر الرجال فحولة كما كنتُ متأكداً ولا أكثرهم خبرة ولا.. ولا..

تقول له بعد ذلك: يجب أن نحاول النوم الآن. علمت منه قبل تشريفك أن الخادمة ستحضر غداً فجراً. وهذا يعني أنهم لن يكتشفوا جثته قبل ذلك.

يتحدثان كشريكين حميمين.

هكذا، بسرعة، صار اسمي: جثته!.. أولئك البشر الأحياء لا يكفّون فيما يبدو عن إثارة دهشة شبح مسكين مثلي وتخويفه. اكتئب وأنوح كي أرعبهما فتقول ناهد: هل نسيت صنبور المياه مفتوحاً؟

أغادرهما إلى الحقول وأشعر بالوحشة. ينزف الليل ويحتضر قلبي (أما زال لي قلب؟) وسط خواء المدى المظلم اللامتناهي.

أجلس على صخرة وأبكي دون أن أدري لماذا وأحاول أن أضرب رأسي على الصخرة أضربه أضربه حتى يسيل الدم ويـراني أبي ويشفق عليَّ ويحملني عائداً إلى البيت ولكنني أعرف أن ذلك لن يحدث لي.

أقرر أن أسكن بيتاً ما من البيوت ليصير بيتاً مسكوناً وأحاول أن أخيف فيه الناس بقدر ما يخيفونني. لكنني لا أعرف أي بيت أسكنه، أنا المقتلع من قريتي بعدما تهدم بيتي..

صحيح أنني اغتربت وصرت ثرياً ولكن حتى الأشباح لا تستطيع بناء بيوت هدمها القصف ودفنتها الجرافات..

يا لي من شبح ليس لديه أي بيت طفولة وصبا يسكنه ويجعله مسكوناً. إني شبح مسكين مذعور لا يعرف إلى أين يمضي والوحشة تقتله.

أتذكر بيتاً قيل لي إنه مسكون بالأشباح في القرية يوم اعتزمت شراءه. أقرر الذهاب إليه. أجدني أمام بابه. يبدو أن الأشباح ليسوا بحاجة إلى وسائط مواصلات. حشرة ضوئية تركض، تعكسها مرآة بيد طفل عابث وشمس لا ندري من أين جاءت.

أتنقل في الزمان والمكان بأسرع من الضوء واكتشف ذاتي كشبح وطاقاتي كالإبصار في الظلام.

«أوبرج الأشباح». اقرأ بحروف من ظلام ملون على البـاب. أدخل. المكان يعج بهم. أراهم ولا أراهم وأعرف أنهم هناك. ليس بينهم من يرتدي الستائر البيض وملاءات السرير (كما فعلت ناهد مثلاً!).. كلهم عراة في حزنهم يتضورون مثلي خوفاً وحيرة...

ـ مساء الخير يا معشر الأشباح.

ـ وعليك السلام... تبدو جديداً هنا. أهلاً بك.

كم هم لطفاء مثل نزلاء مصح عقلي تم تعذيبهم بالكهرباء (بحجة شفائهم) وتدجينهم في غرف المطاط الكاتمة للأصوات كمسدسات القتلة وحقنهم بإبر النسيان في دورة دموية تسبح فيها أشجار الأرز والصنوبر وزهر الليمون ونبتات التبغ والتين والزيتون والأحباب الذين غدروا بنا أو غدرنا بهم والماضي والماضي وفعل الماضي الذي اغتال الحاضر والمستقبل والدورة الدموية الجحيمية المثقلة بعذابات أضاعت وجهها وصوتها وذاكرتها وبقيت في الشرايين، والنفايات المشعة والمسلسلات التلفزيونية المكسيكية والطعام العفن بالحر والبعوض والرماد المتحرك في أنابيب القلب المخدوع بالزمن والنساء.. الدورة الدموية تقرع تقرع تقرع جدران المطاط...

تصرخ ناهد وتنهض من نومها: ما هذا القرع.

يقول ناجي: لم أسمع شيئاً...

أنتقل ثانية كالضوء إلى «أوبرج الأشباح» وبسرعة كما لو كنت في مكانين في وقت واحد، واتجه نحو ذلك الشبح المنطوي على نفسه مثل مشمشة نشفوها تحت الشمس عشرات السنين: إني معذب وخائف..

يجيبني: دعنا ننظر إلى النصف الملآن من الكأس...

أقهقه.

يتابع: لدى الأشباح إمكانيات شتى، محدودة وشاسعة ككل حكم ذاتي. بوسعك مثلاً أن تتحرك داخل الزمان والمكان مثل نقطة ضوء جيئة وذهاباً شرط عدم الاقتراب من النهايات والبدايات والخطوط الحمر...

ـ مثلاً؟.

ـ بوسعك الذهاب الآن لإلقاء نظرة الوداع على جثتك والذهاب لحضور جلسة فتح وصيتك وقراءتها..

ـ ولكن...

ـ لا يوجد «ولكن» لا في عالم الأحياء ولا الأموات.. «ولكن» مشنوقة في الحديقة ومعلقة على الأسوار.. أنظر من النافذة تراها بالنيون مضيء السواد وقد نقرتها الجوارح.. توقف عن «ولكن» وعن الدهشة والاستغراب فقد تنجو..

ـ ولكن...

ـ اخرس واذهب من وجهي.. للجدران آذان حتى في بيوت الأشباح، والعقاب أزلي... تعلّم قدراتك المحدودة واستخدمها بدلاً من مناطحة المستحيل... وإلا نبذك معشر الأشباح وأحلّت دماءك المظلمة قبائلُهم...

ـ حاضر مولاي. سأترك القضايا الأزلية لحكمتكم وأعود إلى شؤوني الخاصة...

ـ لماذا لا تتفقد جثتك وترعب الأحياء؟ الوقوف على الأطلال «منصوح» به حتى ولو كانت الأطلال جثتك.. المهم ألا تطرح اسئلة كبيرة..

ـ سأفعل.. سأتفقد جثتي!

ما أكاد أنوي الذهاب إلى هناك حتى أجد نفسي هناك!

ها هي جثتي البشعة ومصور البوليس يلتقط لها الصور. اللعنة. كنت أحب دائماً أن أصور جانبي الأيسر الجيد حيث تختفي «رحابة» فمي وتبدو عيناي الضيقتان على اتساع، وتختفي صلعة الجانب الأيمن من جبيني. لا أحد يقدر مشاعر الجثث ناهيك عن الأشباح.

ها هي كارمن تنتحب، كارمن الجميلة الشاهقة الرائعة الوردة الحمراء الذابلة الوغدة التي انتزعتها من عرش الملهى لأتوجها على عرش قلبي ونسيْتُ الدنيا لأجلها ونسيْتُ صنوبرات أبي.. آه أبي..

ها هي كارمن تنتحب فوق جثتي وهو مشهد تمثيلي رائع.

المحامي يقول لها: «مسكين. مات شاباً»! وهو يعرف أنني تجاوزت الخمسين منذ خمسين سنة مثلاً!...

دنيا من القردة في حديقة الحيوانات ولكن بسيارات وثياب وقصائد وقصص وروايات وباصات ومخازن كبيرة وإعلانات نيون وسوبرماركت ومحامين

وبنوك وطائرات وحروب وتلفزيونات وآباء بينهم من لم يعد يحبنا. .

آه أبي. . كم كان جميلاً وشاهقاً. . عدنا معاً من الحقل، وأقسمت له أن أعود من الاغتراب ثرياً، وأعمر له قصراً ونسيته وكانت كارمن ترقص ترقص وفقدت رشدي.

ينقلون جثتي. يقول المحقق: إلى المشرحة. أحب أن أرى تشريحي، ولكنهم ينقلون جثتي خطأً إلى مستشفى المجانين. الحمقى. كل ما يفعلونه خطأً ووحدي الصح.

يذهب المعزّون. كارمن في السواد جميلة. كم كان منظرها قبل حضورهم مسلياً وهي تضع ماكياج «الأرملة» وتجهد أن يكون لامرئياً، تضع خط الكحل ثم تمسحه بلعابها بطرف إصبعها ثم تمسح المزيد من البودرة بباطن كفها ثم تجرب قبعة تتدلى منها خرقة سوداء شفافة (أعني دانتيل) وتبدو وكأنها وجَدَتْها تزيدها حسناً فتبتسم في المرآة ولا تراني واقفاً قربها بل تقوم بزيادة طبقات الأحمر على شفتيها. ترخي الدانتيل على وجهها كلما اضافت طبقة «بودرة» كما في «بروفة» لمسرحية مهمة. والآن ها هي تخلع القبعة كمن يرمي بقناع تحته أقنعة. يبقى معها ناجي بعد اعتذار ناهد بحجة الزكام وانسحابها إلى البيت كأية صديقة وفية لا يمكن للشك أن يراودها في صديقتها. .

ترى هل كانت كارمن تعرف سر علاقتي بناهد؟ لو كانت تعرف لانتهزتْ الفرصة ولطردتها. الأرملة تصير ملكة بعد وفاة زوجها، تطرد عشيقاته الباكيات حتى اللواتي أحبهن أكثر منها.

لعلها لا تعرف أن ناهد واحدة من عشيقاتي لكنها تحدس بوجود الأخريات.

ها أنا أحاول إيجاد المبررات لخيانتها لي مع ناجي كي لا أجرح «أناي» الشبحية! كأنني ما زالت بشرياً وكذاباً ولم أتحول إلى شبح أصيل حقيقي.

يبدو أن الشفاء من الماضي صعب حتى حينما نتحول إلى أشباح، ويظل الألم يطاردنا في الدهاليز. .

أركض في الدهليز شبحاً زئبقياً مذعوراً تطاردني أشباح بشرية حية. آه،

لا مفر. ولكن حالي كشبح أفضل مما كنت سأكون عليه لو عرفت حياً ما هم عليه من كذب.

أهرب. أتحول حشرةً من نور مظلم أهيم طويلاً في غيبوبة اللامكان واللازمان.

حان الآن موعد جلسة فتح وصيتي ولن تفوتني. ها هي زوجتي ـ أعني أرملتي ـ في أبهى زينة تستعد للذهاب لترث ثروتي.

رائحة العطر تفوح منها. لم أكن أعرف أن للأشباح حاسة شم. كنت أظنهم فقط يرتدون الملاءات البيض ويدورون في القصور.

كارمن لا تدري. ناجي لا يدري. ناهد لا تدري. ما أسعدني بخداعهم. لا يعرفون أن أحداً منهم لن يرثني ولن ينتفع الباقون منه. لقد كنت أكثر الجميع خبثاً ومكراً وهنا مجد الأشباح.

قبل أن تغادر كارمن البيت يحضر وفد من الوجهاء بثياب الحداد. يفاجئها رئيس المجموعة ويقول كلاماً كثيراً وشعراً ونثراً تأبينياً مفاده أن لا تنقطع عطايا المرحوم (أي أنا) عنهم.

حسناً. كنت أموّل واحدة من تلك المجموعات «الخيرية» التي يعرف الرب وحده ماذا تفعل ومن تخدم وإلى أين تذهب أموالها ـ بالإضافة إلى جيوب الجماعة ـ كارمن تؤكد لهم بكل «أصالة» التزامها بـ «تراثي» والشيك سيصل في الوقت المحدد ويمتدحون أخلاقها وأريحيتها و «استيه لودر» التي زيَّنت وجهها بماكياجها وتنتهي الجلسة بصورة للجريدة.

تركب كارمن «الكاديلاك» في الطريق إلى المحامي يرافقها ناجي وناهد. أتحرق شوقاً لمشاهدتها حين تصل إلى مكتبه ويقرأ الوصية عليها وعلى صديقيّ الأسرة الشابين الوفيين اللذين يرتبطان معها في السراء والضراء والسهرات والأهم في الشيكات.

ها هي تهبط من السيارة ولا تمس الأرض بقدميها وهي تمشي مثلي نصف طائرة كأن الفرح أيضاً يحوّل الأحياء إلى أشباح تعوم في فضاءاتها الخاصة.

تجلس محاطة بـ «وزير الميمنة» ناجي و «وزيرة الميسرة» ناهد.

يقرأ المحامي الوصية ويغمر الذهول الجميع بمن فيهم المحامي لأن فرصة إدارة أملاكي لن تتاح له بعد اليوم ولا فرصة مغازلة أرملتي والناطقة باسمي وموزعة ثرائي على من تشاء ويعرف كيف يشكر.

إنها لمفاجأة غير سعيدة للجميع فقد تبرعتُ بأملاكي وحرمتها ـ وحرمتهم معها ـ من الميراث.

في البداية تكاد كارمن لا تصدِّق. أقفز في الفضاء فرحاً وأخترق السقف والجدران حين تفتح فمها الجميل بدهشة، ثم يُغمى عليها.

يُغمى على ناهد أيضاً، أما ناجي فتصاب عضلاته كلها وديكيته بالضمور، لأن دجاجته المسنة لا تبيض ذهباً كما توهم بل آهات وأنات نشوة كبقية الفقيرات لا أكثر!

يا لي من شبح سعيد. نعم. لقد كنت مجنوناً بعض الشيء حين أوصيت بثروتي كلها لملاجىء العجزة لتحسين أحوال الشيوخ كي يصير لهم إلى جانب السرير طاولة صغيرة (كومودينة) يضعون عليها صور الماضي الحقيقي مثلي ومثل ماضي بقية شعب الأشباح.

فأنا زعيم «جبهة تحرير الأشباح» وقد كرّست أموالي لأجل ذلك.. وليس كالعجائز من حليف للأشباح فهم على العتبة ريثما يتم انضمامهم إلينا، ولهم حق اختيار الصور التي تعذبهم لوضعها إلى جانبهم قرب السرير، ولهم حق الاحتضار وهم ينادون أحياء لا يسمعون، وتفوح رائحة الصنوبر وزهر شجر الليمون والتبغ والغبار والبارود وأحباب يغادرون الروايات المحكية عنهم ويتنصلون من بعض الحكايا الزائفة التي رويت لمصلحة الأحياء..

أجل! بعد قراءة الوصية، أغمي عليهم جميعاً تقريباً، وكان ذلك جميلاً جميلاً.. بل إن أشباحاً خافتة الظلال غادرتهم لحظة الإغماء وكادت تراني وتحاورني ولكن كانت أشباحاً مغمى عليها ولا بد من الانتظار قليلاً ريثما تؤكد «ذاتها الشبحية» بموتها.. آه كم أنا سعيد لهذا المشهد اللطيف حيث الذين عرفتهم، يقفون على الحافة بين وهم الحياة والشبحية.

أرى جلادَيْن يقتربان مني بثياب بيضاء. رجل وامرأة. إنني شبح وليس

بوسعهما أن يرياني، ولكن. . . .

الرجل يقول للمرأة: هذا يومك الأول كممرضة ولا بد من تعريفك بالمرضى. . . فهل تعبتِ؟

ـ لا. من هذا المسكين المنطوي على نفسه كشبح؟

ـ هذا بالضبط ما يمكن قوله عنه. . أحسنت الوصف. إذا كان المريض السابق يظن نفسه جمال عبد الناصر والآخر اسحق رابين فهذا يظن نفسه شبحاً!

ـ غريب. .

ـ لا غريب في مستشفيات المجانين. . نحن الغرباء، إذ لديهم عوالمهم ومنطقهم الخاص. . . ورؤوسهم الحصينة كالقلاع.

ـ شبح من يظن نفسه؟

ـ شبح نفسه!. . إنه مغترب جمع ثروة وعاد إلى لبنان وجنّ.

ـ لماذا؟

ـ هذا سؤال لا يُطرح في حال الجنون. ما قد يسبب جنون رجل ما، قد يمر به الآخر لامبالياً. تعرفين أن الروح دهاليز مظلمة ومحاولة القفز من نافذة الأسرار خطرة قد تودي بالمرء إلى الضفة الأخرى المجهولة. . . .

ـ حسناً ولكن ما سبب جنونه في ظننا؟

ـ لا أحد يدري بالضبط لماذا. . . . حاولت جمع بعض المعلومات عنه لغرابة حالته. . قيل لي إنه فوجىء ليلة وصوله من الإغتراب، بعد طول غياب حاملاً ثروة طائلة، بأنهم اودعوا والده في مأوى العجزة وكان والده المسكين يحتضر في سرير حقير، بين عشرات العجزة الآخرين في القاعة المزدحمة بهم وبعكازاتهم. ولم يتعرف عليه والده قبل موته. . . كان المسكين يموت ولعله عرف ابنه وعجز عن التعبير عن مشاعره. . أو لعله أراد معاقبته. . من يدري؟

موت الوالد نصف المختل الذي تجاهله وهو يحتضر ـ أو لم يعرفه ـ زلزله وخلق فيها يبدو حالة رهيبة من الإحساس بالذنب والندم.

ـ وكيف وصل إلى هنا؟

ـ نقله محاميه إليَّ ذات يوم. كان يشكو من أوجاع رهيبة متنقلة في جسده لا مبرر طبياً جسدياً لها، إلى جانب انهيار وحزن مفهوم في حالته. عالجته بالعمل في الزراعة مع رفاقه، وبالعقاقير، والرسم وكتابة الشعر إذ قيل لي إنه بدأ حياته شاعراً.

تقهقه الممرضة: كل عربي يتوهم نفسه شاعراً. هذه حالة عامة وليست وقفاً على المجانين.. ما من عربي إلا وبدأ حياته شاعراً فمناضلاً فواقعياً أو مجنوناً!!

يضحك الطبيب ويقول: كنت أحاول أن أنفذ إلى ثنايا روحه عبر حرفه. كتب قصيدة مؤلمة جداً أسمها «أنا شبح».

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ صار مقتنعاً بأنه شبح، كما المريض الجالس إلى جانبه يتوهم نفسه «فخر الدين المعني»!

ـ وبعد ذلك؟

ـ تاه عني في تلك الدهاليز، وانتقل إلى الضفة الأخرى ولم تنفع معه أنواع العلاج من صدمات كهربائية وأدوية كيمياوية.. أظن أنه يعاني من عقدة العظمة والشعور بالذنب في آن، لعله يرى أن العالم غدر به، ويشعر بالتقصير تجاه والده ويحاول تلاوة فعل الندامة.. إنه الآن من رعايا الضفة الأخرى ولم يعد بوسعي أن أسمعه صوتي أو أسمع صوته فهو يظن نفسه شبحاً ولا يقول شيئاً ولا يكلم مخلوقاً ويتوهم أن أحداً لا يراه.

ـ مسكين. ليس سهلاً أن تعود بثروة لتدلل والدك فتجده يحتضر ولا يعرفك ليودعك على الأقل أو يغفر لك.

ـ يُقال أيضاً إنه أحب في الغربة راقصة عربية الأصل خرافية الجمال ماهرة الإقناع قيل إنها تدعى كارمن وخانته بعدما أنسته حتى كتابة الرسائل لوالده.. كأنما شطره الإحساس بالذنب.. ولكن من يدري.. الطب بدائي جداً أمام أسرار دهاليز الروح وساحاتها المشرعة للرياح الغامضة، فهذا رجل

وليس «كومبيوتر» . .

إنهما يتآمران عليَّ ولا يعرفان أنني شبح وأنني أسمعهما وأراهما.

آه كم أنا سعيد لأنني شبح وبوسعي أن أتنصت على كل شيء دون أن يراني أحد. . حتى الجلادَان اللذان يدعيان أنهما الطبيب والممرضة الجديدة.

الإعداء يتنكرون في ثياب مختلفة أهمها رداء الطبيب وزيّ الممرضة.

أما العدوة السابقة التي تنكرت بزيّ الممرضة القديمة فقد قتلها شبحي. سحقها تحت غصن الصنوبر في العاصفة وظنوا أن صاعقة ضربت الشجرة حين غادرت سيارتها وسقط الغصن فوق رأسها وقتلها.

البشر الأحياء لا يفهمون شيئاً. لا يعرفون أن الأشباح مذعورة أكثر منهم لكنها لا تموت ولها ضراوتها الخاصة، وتتقن الإنتقام.

. . ها هو أبي ينتظرني على الضفة الأخرى كما يفعل كل يوم. إنه يعرفني وهو سعيد بعودتي. سألحق به ونتابع زراعة أشجار الصنوبر والأرز في الحديقة إكراماً لولادة الأشباح وما أكثرها. لقد زرعنا شجرة لصبية لم تولد بعد وعلّقنا لها ملصقات في شوارع القلب آملين أن تولد شبحاً مرة واحدة ولا تتلوث ببشريتها.

ما زال الجلّادان في ثيابهما البيض يثرثران ويحومان في المكان. سأنتظرهما في الحديقة ذات عاصفة وأساعدهما على الولادة كشبحين بريئين مثلي بعدما أسحق رأسيهما الخبيثين بغصن شجرة وأريحهما من سمهما الخاص وأقدم خدمة لهما. السلام عليكم. . أنا حشرة ضوئية ذاهبة إلى الجانب المظلم للقمر. . فمن يتبعني؟ كنت في السرير معها، أمتطيها قارباً إلى جزر الدهشة واللذة والنسيان حين دخل زوجها. في البداية لم أصدق عيني فباب بيتي مقفل ولم أسمع صوت تحطيمه فكيف دخل؟

شاهد ما نحن عليه ولم يقل شيئاً لكنه صار يتقدم نحونا وهو يشهق منتحباً بصوت عالٍ كمن يحتضر وقد أمسك رأسه بيديه كأن عنقه لم يعد يقوى على حمله.

لاحظت أنه لا يمسك بسكين أو بمسدس وشعرت بشيء من الإرتياح لأنه غير مسلح. ظل يتقدم نحونا بقامته الفارعة الضخمة. يداه امتدتا إلى عنقي وهو ما زال يشهق كمن يخطو إلى ذروة النشوة وهو يخنقني. . . . .
. . . .

١٩٩٤/٩/٣

ـ بدأت كتابة هذه القصص داخل رأسي منذ عام ١٩٨٨ .
ـ باشرت تسطيرها على الورق يوم ١٥/٨/١٩٩٤ .
ـ تمت كتابتها كمسودة أولى يوم ٦/٩/١٩٩٤ .
ـ أنجزتها ظهر يوم ١٣/١٠/١٩٩٤ .

الفهرس

منشورات غادة السمان

قصص وروايات

عيناك قدري (قصص) - (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) - (الطبعة التاسعة)

ليل الغرباء (قصص) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المرافئ القديمة (قصص) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة السادسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السابعة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الثانية)

الأعماق المحتلة (الطبعة الثانية)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)

تنفيذ وطبع: مطبعة دار الكتب
ساحة رياض الصلح - بناية العازارية
تلفون: ٦٤٥٠٣٩ - منزل: ٣٧٠٠٧٣ - ص.ب.: ٣٥٥٩-١١ بيروت



□ هذه المجموعة القصصية هي الكتاب السابع والعشرون لغادة السمّان بعد مؤلفاتها: عيناك قدري. لا بحر في بيروت. ليل الغرباء. رحيل المرافىء القديمة. حب. بيروت ٧٥. أعلنت عليك الحب. كوابيس بيروت. زمن الحب الآخر. الجسد حقيبة سفر. السباحة في بحيرة الشيطان. ختم الذاكرة بالشمع الأحمر. اعتقال لحظة هاربة. مواطنة متلبسة بالقراءة. الرغيف ينبض كالقلب. ع. غ. تتفرس. صفّارة انذار داخل رأسي. كتابات غير ملتزمة. الحب من الوريد إلى الوريد. القبيلة تستجوب القتيلة. البحر يُحاكم سمكة. تسكع داخل جرح. ليلة المليار. غربة تحت الصفر. الأعماق المحتلة. أشهد عكس الريح.

□ قصص هذا الكتاب محاولة لطرق باب الأدب الغرائبي الماورائي الشائع في الغرب والنادر في عالمنا العربي. إنها في جوهرها امتدادٌ لموضوعات كتاب «السباحة في بحيرة الشيطان» للمؤلفة، ولكن بهاجس قصصي: ونجد فيها المحاور «الفضولية» ذاتها: الظواهر الخوارقية، انفصام الشخصية (الشيزوفرانيا)، الأشباح، الجنون، القوى الخفية، تحريك الأشياء بواسطة الفكر، وغيرها...

□ ولكننا في هذه القصص نجد الغرائبي واللامعقول والماورائي امتداداً للواقعي، وجزءاً من نسيج الحياة اليومية بكل همومها وعذاباتها وهواجسها وأحلامها وأقدار أبطالها. ولعلها المحاولة العربية الأولى التي تكرّس مجموعةً قصصيةً بأكملها لهذا النمط الكتابي غير الشائع عندنا.

منشورات غادة السمان